مطالعات في الرواية الفارسية المعاصرة

دكتور
إبراهيم الدسوقي شتا
أستاذ اللغات الشرقية بكلية الآداب
جامعة القاهرة



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٦

إهـــداء

الى أمـــى :

اعترافـــا بالفضل

وامتنانا لدروس قل أن توجد فى الكتب

ابراهيم الدسوقى شتا

تصدير

فى هذا القرن خطت الرواية الفارسية خطوات واسعة فى طريق التطور ولست أريد بهذا التصدير المبسط أن أتعرض للرواية الفارسية : تاريخها وميادينها وأهم أعلامها ، فمن أجل ذلك أعد الآن كتابا موسعا عن الفن القصصى الفارسى عموما من ١٨٦٥ الى ١٩٧٥ .

خلال اعدادى لهذا الكتاب ، جذب انتباهى بعض الروايات رأيت أنها تعد معالم على الطريق وأنها تصور القفزات الفنية الواسعة من ناحية المعالجة ، كما أنها تقدم صورة واضحة للشعب الايرانى الشقيق فى صراعاته المختلفة السياسية والاجتماعية ، وتدل على نمو الشخصية القومية لايران ، وفوق ذلك كله تعد دليلا على التطويع الذى خضعت له اللغة الفارسية منذ مطلع هذا القرن حتى صارت صالحة للتعبير عن كافة الموضوعات .

هذه الروايات السبع التى أعرضها هنا جزء من كل ، فهناك بعض الروايات قرأت عنها كثيرا الا أننى لم أعثر عليها مثل رواية « عيناها » لبزرج علوى « وربيع العمر » لمحمد مسعود ، وطبعات هذه الروايات لا تجدد وليس للاقبال الجماهيرى دخل فى هذا الأمر .

ومن نافلة القول أن الروايـة هي « ديوان الشعوب » ومن ثم أردت هنا أن أعرض التطور الاجتماعي للشعب الايراني وصـورا من حياته اليومية ومعتقداته وتقاليده وعاداته ، وكان الكتـاب أوراقـا مبعثرة كتبت في فترات متقطعة من العمر أردت أن أجمعها خاصـة ولم يقدم من الأدب المعاصر الى اللغة العربية الا ما قدمه كاتب هذه السطور من ترجمة لأربع عشرة قصـة قصيرة لصادق هدايت تحت عنوان « قصص من الأدب الفارسي المعاصر » (هيئة الكتاب ١٩٧٥) ورواية البومة العمياء لنفس الكاتب (هيئة الكتاب ١٩٧٦) ومن ثم خلا الكتاب الذي بين أيدينا من ذكر لهدايت بالرغم من أنه رائد الفن القصصي في ايران بلا منازع .

هذا الكتاب سياحة مكانية وزمانية داخل ايران ، أرجو أن يزداد منها القارىء العربي معرفة بشعب شقيق وعريق تربطنا به أقوى أواصر الود ، وهو أيضا دعوة الى السادة الزمـلاء أساتذة اللغة الفارسـية وآدابهـا في الجامعات المصريـة لعل رواية من الروايات المعروضـة تصادف هوى في نفس أحدهم فيقدم على تقديم نصـها الكامل الى العربية ، والله الموفق .

دكتـور
ابراهيم الدسـوقي شـتا
أستاذ اللغات الشرقية ـ كلية آداب القاهرة

١ ـ الورود التى تنبت فى جهنم

محمد مسعود دهاتى

ولد محمد مسعود دهاتى من اسرة متواضعة فى مدينة اقليمية صغيرة ، وفى بواكير عشريناته وصل الى العاصـمة طهران واشتغل مدرسا فى مدرسة ابتدائيـة ، ونشر عمله الأول « مسرات الليـل » بالاسم المستعار دهاتى فى مجلة الشفق الأحمر ، وقد أثارت الروايـة بلهجتها الحـادة ضجة جذبت اليه أحد الوزراء فأرسله فى بعثة الى أوربا وظل فترة صامتا ومنذ سنة ١٩٤١ أصدر جريدته الأسبوعية « رجل اليوم » وهى مجلة سليطة لا تتوقف عند حد وبلته بعدد من الأعداء الأقوياء ظلوا يترصـدونه حتى اغتيل سـنة ١٩٤٧ ولايزال قاتله مجهولا .

ورواية « الورود التى تنبت فى جهنم » جزء من ثلاثية أتم منهـا جزءين فقط ، والجزء الثانى وهو « ربيع العمر » على طول ما بحثت عنه لم أستطع العثور عليه والجزء الأول لا تجدد طبعاته . والعرض الذى اقدمه الى القراء هو من الطبعة الأولى « ١٩٤٢ تهران » .

هذه رواية من أشد روايات النقد السياسى والاجتماعى وضوحا وأظهرها نغمة . كتبها محمد مسعود وأردفها بالجزء الثانى ، وكان ينوى اتمامها بالجزء الثالث لولا أن يدا خفيـة أثيمـة امتدت اليه فاغتالته ، ومضى الكاتب دون أن تتم الرواية .

جهنم ــ فى رأى الكاتب ــ هى ايران . وهى لم تتحول الى جهنم فى مطلع هـذا القرن أى الزمـن الذى تجرى فيه أحـداث الرواية فحسب ، بل انها كما يعبر الكاتب على لسـان بطله ــ ولعله الكاتب نفسه ــ طوال تاريخها الطويل ليست الا جهنم نزلت الى الأرض . ان هنـاك حلقتين متصلتين فى تاريخ ايران طوال عصورها ، انها تنقسم الى عصـور من الفوضى تعقبها عصور من الديكتاتورية فعصور من الفوضى وهلم جرا . وبطل الرواية شاب درس فى أوربا وتزوج وترك زوجته وعـاد الى وطنه يبحث عن عمل حتى يرسـل فى طلب زوجتـه ويخدم وطنه بهذا العلم الذى أفنى فيه شـبابه فى الخـارج .

ومقدمة الرواية عبـارة عن خطابات متبادلة بين البطل وأحـد أصدقائه ، ان الصـديق يسأل عن أحوال صديقه الذى نعلم فيما بعد أن اسـمه « محمود » ، ولكن محمودا صامت ، وزوجتـه وطفلها ينتظران رده دون جدوى ، وتأكل منهما الأيام يوما بعد يوم فيذوى جمالها ويزحف اليأس المظلم القاتل على نفسها يوما بعد يوم ، ويزورها صديقه هـذا فلا يسمع منها الا نحيبا ، ولا يرى فى نظرات والديها الا سخطا ، وبعد طول انتظار يكتب لها زوجهـا خطابا قصيرا نعلم منه معها أنه لايزال بلا عمـل وأنه يحـارب لسبب لا يدريه ، وأن الشرطة تطارده وأبواب العمل تسد فى وجهـه وأنه متهم بتهمـة الانتماء الى مذهب تحاربه الدولة وهو منه براء وتنتحر الزوجة لكن بعد أن تترك عدة خطابات من زوجها (لا نعلم كيف وصلتها ولا أين

ولا متى) وهـذه الخطابات التى وقعت فى يد الكاتب (بطريـق لا ندريه أيضا) هى التى تكون بقية الرواية . والملاحظ أن صيغة الخطابات هى الصيغة التى تغلب على الرواية الفارسـية المعاصرة ، ربما لأنها توحى بأكبر قدر من الواقعية ، وفى صيغة المتكلم ما يمنح الكاتب فرصـة كبيرة للتعبير عن ذات نفسه ، أو الشطح الفلسفى واستعراض الثقافة وهى آفة لا تخلو منها رواية فارسية واحدة .

فى الفصل الأول من الرواية أو من الخطابات نجد وصفا من أبلغ ما يمكن لايران فى العشرينات من هـذا القرن حيث سقطت فى أيدى العسكريين لتصمت بعدها ـ الله يعلم الى متى . ان ايران جهنم يحكمها شيطان . ويلعب المؤلف على أسطورة الضحاك [1] القديمـة ويحملها رموزا حديثة . ان الشيطان الذى يحكم خائف من الشباب مثل الضحاك القديم الأسطورى تنبت كل يوم حية فى كل كتف من كتفيـه لا تهدأ الا اذا أكلت نخـاع شـاب ، وان لم تأكل سببت للطاغيـة عذابا ما بعده عذاب ، انه يصف فى هـذه الفقرة البليغة ، الحياة فى ايران فى ذلك العصر أبلغ وصف : « شيوخنا لا دين لهم ، وشرطينا لص ، وقضاتنا قتـلة ، نوابنا لم ننتخبهم ولم نرهم طول عمرنا ، وهم أعدى أعدائنا ، مثقفونا أس الجهل والفساد ، ومحاكمنا مركز الظلم والشقاء ، كلنا نعلم هـذا ، ونتحدث بهـذا الى بعضنا بعضا حين نخلو الى أنفسنا ، لكننا نحترم شيوخنا ، ونخـاف من الشرطة ، ونقدم الالتماس الى القاضى ، ونستشفع النواب ، وننتظر من الحكومة الشفقة والمساعدة ، ونلجـأ الى المحـاكم لرفع الظلم

واحترامنا لشيوخنا ، وخوفنا من الشرطة ، ورفعنا الأمور الى القاضى ، واستشفاعنا بالنواب ، وتظلمنا للمحاكم كله رياء وكذب ،

---

(١) الضحاك بطل أسطورى قديم .. احتل ايران وسـام أهلهـا سوفا من العذاب .. ثم تخلصت منه بثورة قادها كاوه الحداد وافريدون .

أما دعاء الشيوخ ، وحراســة الشرطة وعدالة القاضى ودفــاع النائب فى المجلس فكلها أكذب من الكذب نفسه ، ان الكذب هو حطب جهنم التى نحيا فيها ، الكذب هو المواد الخــام لمصنع الألم والعــذاب هذا الكذب هو النتاج الذى لا تنتهى لمزرعة المصــائب والآلام هذه ، الكذب هو البذور المباركة الخصــبة الدائمة التى زرعت فى مواطن البلاء هذا .

ومع ذلك ففى وســط جهنم ترتفع دقــات الطبول كل يوم ، ترقص عليها فتيات عاريات النهود يجمعهن موظفو الشيطان ليرقصن تحت أنظارهم الشهوانيــة فى احتفالات تسمى بالقومية بينما آباؤهن فى السجون ، وأمهاتهن يرزحن تحت عبء الحيــاة التى تقضى عليهن يوما بعد يوم ، هــذا الجزء لا يخفى رمزه بل هو أشبه بالرمز الذى يضخم الحقيقة فيظهرها أقوى مما هى ، وهكذا تدور الأيام طاغيــة يسلم لطاغية آخر وظلم يشكى منه لظلم ، ولا حس ولا صــوت ، فان جهنم لا تقبل الشكوى .

ثم ندخل فى الجزء المهم من الرواية وهو يتناول طفولة شــاب ايرانى وصباه فى أوائل هــذا القرن وتحت وطــأة هذه الظروف ، ان هذا الجزء هو الترجمة العملية لهذا النقد القاسى الذى قدمه فى البداية . ان طفولة الشاب قاسية بالرغم من نشأته فى أسرة من الممكن أن توفر له ضرورات الحياة ، فهو طفل وحيد فى أسرة متوسطة لديها خادمة تسمى سكينة ستلعب دورا هاما فى حيــاة الطفل فيما بعد ، والأم لا ترى الا نادبة أو باكيــة ، لعل ذلك من نتاج الظــلم الذى قاسته المرأة فى مجتمع يسيطر عليه رجال جهلة . والطفل يســكن فى الحى الذى يحيط بضريح الامــام عبد العظيم حيث جبانــة طهران ويختلط الموتى بالأحياء وبمتزج الموت بالحيــاة بحيث تصير روائح الموتى ومناظر جثثهم من الحياة اليومية ولا تختلف كثيرا عن بقيــة

جزئيات حياة الأحياء ، فى هذا الجو المأساوى الحزين تمضى طفولة البطل وهناك فى اللاوعى عنده تثبت صورة لا تفارقه (وهى تتكرر كثيرا فى عدد من الروايات الفارسية المعاصرة) وهى صورة احتفالات المؤمنين من الشيعة بالعاشر من محرم وبمصرع الحسين عليه السلام فى كربلاء حيث تمثل صور تمثل مصرع سيد الشهداء مع زهرة شباب آل البيت فى كربلاء ، ويضرب المحتفلون أنفسهم بالأسلحة ، خفيفها وثقيلها تكفيرا عن خذلانهم للحسين ، واستحضارا لدمائه الذكية ومن مات فهو فى عرف الفقهاء الشيعة شهيد ، ويندمج الممثلون فى أدوارهم فتسيل الدماء أنهارا ، ويقتل بعضهم فتتلقفهم أيدى الناس مكبرة مهللة فتلقى بهم بملابسهم فى حفر أعدت خصيصا لهذا الغرض ، وبالرغم مما فى الصورة من بشاعة لا يقرها الاسلام السمح الا أن الطفل كان ينتظر بفارغ الصبر يوم أن يكبر ويسمح له بأن يشترك فى هذه الاحتفالات ، ويسمح له بأن يحمل السيف يسيل به دمه عله يمسح الخطايا المفتعلة التى ارتكبها هؤلاء التعساء فى حياتهم التعسة .

من نفس هذه المقابر كان طريق الطفل الى المدرسة ، وكانت تسلية الطريق مشاهدة الموتى ، أجل الموتى ، ليس الموتى القادمين من المدينة فحسب ، بل الموتى القادمون من أطراف ايران أيضا ليدفنوا بجوار الامام علهم يحشرون معه يوم القيامة وقد وصلت جثثهم الى كنف الامام وقد لحقها التحلل ففاحت روائحها وتساقطت أطرافها وتمزقت أكفانها ، من شكل الأظافر أو الشعر أو الأجزاء الظاهرة من جثث هؤلاتى الموتى كان الأطفال يتناقشون حول جنس المتوفى أو سنه ، وهكذا يمضون الطريق الى المدرسة .

ويصل الطفل مع زملائه الى المدرسة ، حيث مناهج التعليم العقيمة ، فقد ألغيت أشعار سعدى وحافظ التى تدعو الى الحب ،

وحلت محلها ــ بدعوى التطور ــ أسـماء أنهار أمريكا الجنوبية أو أسماء أنواع من الطعام لم يكن يحلم الأطفال حتى بأن يروها يوما من الأيام ، وفى المدرسـة مدرسون غلاظ شداد لا ينجو من نظراتهم الشبقة طفل ذو وجه صبوح ، وينقضى اليوم الدراسى بخيره وشره ليعود الأطفال من نفس الطريق ، ولكن المقابر فى ذلك الوقت غاصة بالناس ، الحواة الذين يلعبون بالحيات حيث تهرب منهم وتختـار الحياة بين الموتى ، والدراويش والوعاظ الشعبيون الذين يعرضون منـاظر ساذجـة تمثل مشـاهد آل البيت ويجمعون الصـدقات ، أو يفتون بأسـلوب فج لا مواربة فيه فى قضـايا الزنا والطـلاق وبمدلولات جنسية كانت تثير فى عقول الأطفال الغضـة العديد من الأسـئلة .

ومن بين هؤلاء الأطفال اصطفى بطلنا رفيقا ، وكان فقدانه لهذا الصديق أول صدمة يتلقاها . كان « أحمد » وسيما ذكيا وصموتا ومؤدبا ونظيفا وكان فوق هـذا يشارك بطلنا الرغبة أو الأمل فى أن يشترك فى احتفالات المحرم ، وها هما يلتقيان بأحد الصناع فى سوق النحاسين فيتفقان على كل شىء : على أن يصنع لهما السيف والقيود ، وعلى أن يتلقى منهما الثمن أقساطا ، وها هما يبيعان كتبهما القديمـة ويسلمان الصانع كل ما يصـل الى أيديهما من نقود بطريق مشروع أو غير مشروع ، وهل هناك طريق غير مشروع فى سبيل هـذه الغاية العظيمة والهدف السامى ؟ لكن بمجرد أن يقترب الموسم يسقط أحمد مريضـا ، بدأ الأمر عاديا ، تغيب أحمد يوما عن المدرسـة فذهب صاحبنا لزيارته فوجده يعانى من ارتفاع طفيف فى درجة الحرارة ، الا أن هـذه الوعكة اشتدت حتى انقلبت الى حمى ، وها هو صاحبنا يذهب لزيارته فلا يكاد يعرفه المريض ، وذات صـباح كان محمود ذاهبا الى صـديقه المحتضر ، وعندما اقترب من المنزل سمع صراخا يعرف دلالته جيدا ، مات رفيق الصبا ولأول مرة يفهم الطفل معنى

الموت ، كانت المرة الأولى التى يرى فيها ميتا بعد أن عرفه وعــاش معه وهو حى ، ولم يطق ، خرج من منزل صاحبه الى الخــلاء ، فى نفس المكان الذى كان يجلس فيه مع صدبقه يستذكران ويخططان لاحتفالات عاشوراء ، ومن بعيد كان يسمع الجلبة والصراخ ، كمــا كان يسمع غناء يأتى من بعيد ، ولكن ما كان يرن فى أذنه هو الأغنية التى كان يغنيها دائما مع رفيقه :

طائر اللقلق محلق فى الفضاء فى قدمه جلاجل
ذهبنــا الى منزلــه فوجــدنا مأتمــه

ثم ندخل فى مرحلة أخرى من حيــاة البطــل ، لقد بدأ يحس بتغييرات فى كل أنحاء جسده ، بدأ يهتم بالجنس الآخر ، بدأ يميز بين الوجه الحسن والوجه القبيح ، وتركزت كل رغباته غير المفهومة حول جارة من جيرانهم ، انها كبيرة فى السن ومتزوجة ، لكنه لم يكن يرى غيرها وسكينة خادمتهم ، وفى النهايــة عندما لا يقنع بخيــال الجارة يقنع بسكينة ، انها ليست جميلة لكنها على كل حال فى متناول اليد ، وهو لا يراها كما هى عليه بالفعل ، لكنه يراها بعين خياله ، يراها بطلة من بطــلات القصص الرومانسى الفارسى ، يراها شيرين ويرى نفسه خسرو ، ويراها ليلى ويرى نفسه المجنون ، ويراها زليخا ويرى نفسه يوسف ، ويجدها المؤلف فرصــة ليتفلسف ، لو كان لكل النساء قبح سكينة لانمحى من العــالم ثلثا ما حاق من شــقاء على الأقل ، ويمط المؤلف فى هــذه الفكرة فيأتى بالأمثلة من كتب التاريخ حتى لنكاد ننسى الرواية والبطل والأحداث ، وهذه النقيصة تكاد تكون موجودة فى كل الروايات الفارســية ، ان المؤلف يستطرد ويستعرض ويبسط بساط الفضــــل والثقافــة ويدير الأحــاديث الفلسفية العميقة على ألسنة أبطال حظهم من الثقافة ضئيل أو معدوم ، ميراث فكرى سقط الى الروائى الفارسى من الشعر الفارسى الكلاسى،

حيث كان الشاعر يصر على أن يظهر لممدوحه مدى ما حصله من فنون الثقافة •

ثم يعود بنا الكاتب بعد يأس الى بطلنا ، فاذا بنا معه فى لحظاته المختلسة مع سكينة عندما يخرج والده الى العمل وتخرج والدته فى زيارتها المعتادة الى المقابر ، كانت فى السابعة عشرة فكانت تضمه اليها كما تضم الأم ولدها وتتركه يتحسسها ، وفى هذا العالم المختلس نسى الصبى مأساه طفولته ونسى صديقه تماما ، ولم يعد من ذكرى أحمد ما يؤرقه الا الصانع فى سوق النحاسين الذى ذهب اليه بعد وفاة صديقه يسترد ما دفعا معا فادعى الرجل أنه وهبها جميعا صدقة على روح أحمد ، وهو متأكد أنه لم يفعل •

لم ينم من الصبى جسده فحسب ، بل انه ليحس باستقلاله الفكرى ، لقد بدأ ينظر بعين الزراية الى معتقدات أمه والى أفكار أبيه ، وبينما كان يحاجى أمه كان لايزال خائفا من أبيه ، حتى انمحى ذلك الخوف ذات ليلة ، كانت الحرب العالمية الأولى قد أعلنت ، وأخذ أبوه يشرح لأمه بلهجة العالم الواثق كيف أن غليوم أعلن الحرب شفقة بالمسلمين ، وكيف أنه يضمر اسلامه وسوف يعلنه بعد انتصاره النهائى ، وينكر الصبى ما سمع ، لقد قرأ أن الملوك والسلاطين يعلنون الحروب ويشنونها لمنافعهم الشخصية ، ويندفع الصبى الذى من المفروض أنه مراهق فيلقى خطبة عصماء عن الثورة الفرنسية والجمهورية ، ويهز الوالد رأسه ويصمت ، ثم ينقل أحاديث ولده العجيبة الى أحد أصدقائه ، ويطلب الصديق لقاء الصبى الأعجوبة ويلتقى الصبى بالمقابل الفكرى لسكينة •

لقد كان الرجل من أبطال الحركة الدستورية فى ايران ، وأبوه نفسه يقص عليه أنه كان من رسل الأحرار يوم أن ضرب المجلس

النيابى بالقنابل ، يلتقى الصبى بالشخصية الوحيدة الشريفة البيضاء فى حياته وفى روايتنا هــذه ، ويقف مبهوتا ، مبهوتا من نظافة المنزل ومن الكتب التى تملأ أرجاءه ومن نظافة الشاى الذى قدم له ثم من بشاشة الرجل ولطف حديثه ، ويتهيب الصبى قليلا ، ولا تلبث هيبته أن تزول ، ويشرح له الرجل أسـباب الحرب ، وتنقلب الرواية الى درس فى فلسفة التاريخ فى جزء من أشـد أجزائها املالا ، وفى النهاية يتنبأ الرجل للصبى بمستقبل مرموق ، ويهديه بعض الكتب ، وينصرف الى حال سبيله •

مع هذه الكتب ينسى الصبى حياته الحاضرة ، وينسى سكينة وعالمها ، ان هى الا شىء أرضى يباعد بينه وبين العالم السماوى الراقى الذى فتحه مرشـده الروحى أمام أنظـاره المتعطشة الى كل ما هو طاهر وجميل ، وهكذا أخذ الصبى يقضى سحابة نهاره وجزءا من ليله مع أمهـات الكتب التى بعثت النهضـة الايرانيـة فى أواخر القرن المـاضى : حاجى بابا الأصفهانى ، سياحتنامه مع ابراهيم بك ، ومع أمثال هـذه الكتب تفتحت عينا الصبى على ما فى بلده من فقر وجهل ومرض ، كانت أول كتب غير دراسية تقع فى يده ، وعن طريقها فهم الى أى مدى فاسدة هى ومزيفة ومضللة كتب الدراسة •

ولكن لم يقدر للصبى أن يعيش فى هذا العالم النظيف أطول فترة ممكنة ، لقد فتح عينيه لينظر حوله ، فهاله ما رأى ، كان أول ما رأى سكينة المسكينة ، ان البنت قد تغيرت ، تنفرد بنفسها كثيرا وتبكى ، اختفت البسمة من عينيها ومن وجهها ، وينتهز الفتى فرصة خلو المنزل الا منه ومنها ويفكر فى اصـلاح ما يرى أنه أفسـده ، لاشك أنه طاغية صغير أن يترك الفتاة مدلهة فى حبه دون أن يعيد البسمة الى شفتيها ، كان قد فكر وحزم أمره أنه سـوف يتزوج الفتـاة وأنه سوف يستقل بحيـاته ان عـارض أبواه ، لكن البنت

ويا لعجبه تنتهره حين يقترب منها ، يريد أن يتحسس صــدرها فتنأى به خائفــة ، ماذا بها ؟ لقد كانت تغريه دائمــا بأن يتحسس هــذا الصدر ، انه يحدثها فلا تجيب الا بالبكاء ، يعدها بالزواج فتجيب : ليتنى أتزوج القبر ، وحين يبكى لبكائهــا تأخذه بين أحضــانها لكن الفتى يحس كما لو أن الفتاة قد سمنت قليلا وارتفع بطنها .

ويحار الصبى ، لكن حيرته لا تدوم طويلا ، فها هو ذات ليلة يكتشف السر دون أن يقصــد ، سمع حوارا بين والديه بينما كان بين النوم واليقظة ، ان سكينة حامل وممن ؟ من « شريف الذاكرين » رن الاسم فى أذن الصبى وتمنى لو أن أذنه كذبت عليــه ، شريف الذاكرين ؟ ذلك الواعظ الذى كان يدخل المنزل ليقرأ سير آل البيت ومناقبهم والتى كانت أمه تراه تمثالا من التقوى والورع ؟ كانت أنفاسه معجزة وكان ريقه دواء ، مستحيل ، ويسمع أمه تحــاول أن تستنكر النبأ الا أن والده يؤكد لها ربما لا يحتمل الشــك ، لقد شكت له زوجة « شريف الذاكرين » ، وأنها قادته الى منزل مشبوه أطل من فرجة منه فرأى سكينة فى أحضان شريف ، ما الحل اذن ؟ لا حل الا أن يأتى شريف الذاكرين ويتزوج سكينة ، ولكن والده يرى أن تنفيذ هــذا الحل من الصعوبة بمكان ، لقد كانت سكينة على علاقة بحسن البقال قبل شريف الذاكرين ، وبين شريف والبقال عداء مستحكم من أجل سكينة ، وبالأمس هدد البقال سكينة بأنها ان تزوجت من غريمــه سوف يقتلها ويقتله ، وفجع الصبى أشــد الفجيعة مما سمعه ، لم تكن ليلى ولا شــيرين ولا زليخا ولم يكن وحده ، بل لم يكن له من نصيب منها الا الفتات ، ومع من ؟ شريف الذاكرين دون سواه ، ألهذا كانت سكينة تخرج كثيرا بدعوى زيارة الأئمــة والصــلاة ؟ ألهذا كانت تصوم كثيرا ؟ وانزاحت غمة أخرى من أمام عين الصبى .

ولم يطل الأمر كثيرا ، ذات يوم بينما كان عند الفجر بين النوم

واليقظة ، سمع ضجة وصخبا ، فى الفناء كان هنـاك جسد سكينة المزق الدامى تغطيه طراحة بيضاء ، قتلها حسن البقـال وبحث عن شريف الذاكرين ليقتله فلم يجده فأسرع الى المسجد وتحصـن حيث لا يناله قانون فى ذلك الزمان ، وفى اليوم التالى شاع أن شريف هو الآخر أسرع الى ضريح الامام فتحصن ، ضم المسجد القاتلين وقتلت الضحية وسقط الصبى مريضا .

لم يكن يسمع فى مرضـه وهو فى هذيان الحمى الا صـوت رفيق طفولته ، يراه فى هذيانه بوجهه الجميل يغنى :

طائر اللقالق محلق فى الفضاء فى قدمه جلاجل

ذهبنـا الى منزلـه فوجـدنا مأتمـه

وأفاق الصبى جسدا مهدما ليصـاب بصـدمته الكبرى التى قضت على عالم طفولته ، لقد بدأت القوات الروسية وقوات القوزاق فى الزحف على طهران لحمايـة محمد شاه قاجار من الأحـرار الذين كانوا يطالبون بالدستور والحـكم النيابى ، ان الروس على مرمى البصر من العاصمة ويوم يصلون ، سوف تسيل الدماء أنهارا ، وها هو والده يغادرهم هاربا بعد أن غادرتهم سكينة ، وها هو يبقى مع أمه وحيدا ، ودموعها لا تنفك تسيل على وجهها ، وها هو المنزل يتحول الى قبر مثل القبور العديدة التى تحيط به ، وذات يوم كان يسـير فى الشارع على غير هدى فرأى جمعا من الناس يتجهون الى مكان ما ، فسار معهم ، كان النـاس يحيطون بفصيلة من جنود القوزاق تسير شاكية السـلاح حول رجل عارى الرأس حافى القدمين مكبل اليدين ، وسرعان ما عرف فيه مرشـده القديم ، وسارت الفصيلة حتى وصلت الى المخفر ، كان الناس يسبون المتهم ، وكان يسـمع ألفاظا من قبيل الخائن والمجرم والعميل ، مستحيل ؟ لكن مرشـده الروحى كان يواجه كل شيء بابتسامة ، يا للغوغاء ، أليس فى سبيلهم

كان الرجل يكافح ؟ وعلى أبواب المخفر وقف قائدهم يسب الرجل ، والرجل صامت وفى النهاية عندما طفح به الكيل رد عليه قائلا :

« ماذا تعنى من هذه الكلمات ؟ افعل ما تستطيع ، وتأكد أنك ما دمت تحمل هـــذه الأسلحة فلن يحاسبك أحد ، فليس هنا أحد أصلا يستطيع أن يسائلك فيما بعد ، لم ير أحد حتى الآن أحــدا حسب حسابا للموتى أو خجل من الثاوين فى قبورهم أو خاف منهم ، هؤلاء جميعا موتى ، وهنا مقبرة ، ليس هنا فحسب بل فى أنحــاء وطننـــا كله ، مقبرة مشـــؤومة لا ينبغى أن يعيش فيهـــا الا البوم والضباع ، والآن وأنت فى وسط هذه المقبرة وبين هؤلاء الموتى ، قل كل ما بدالك وافعل كل ما تريد ، اخلع عنهم ملابسهم ، وقل لهم اننى أكسوكم ، ثم اضربهم بالسوط » •

ولم يطق القائد صبرا ، فأمر الفرقـــة أن تطلق الرصـــاص ، وانطلقت الرصاصات فى قلب الرجل ورأسه ، ودوى أزيزها فى رأس الصبى وأغمى عليه •

لم يكن فى اغمائه يرى الا وجه صـــديقه ، ولم يكن يســـمع الا صوته يترنم بالأغنية التى كانا يترنمان بها معا :

طائر اللقلق محلق فى الفضاء فى قدمه جلاجل
ذهبنـــــا الى منزلـــه فوجـــدنا ماتمـــه

هنا تنتهى الرواية ، ومن أسف أننى لم أعثر على جزئها الثانى ، ولم يعش المؤلف ليكتب جزءها الثالث ، الا أن الكثيرين من بعده كتبوه فى أعمال أخرى •

٢ ـ زيبا

محمد حجازى

ولد محمد حجازى معتمد الدولة سنة ١٨٩٠ ودرس العلوم السياسية فى باريس ، وارتبط منذ عودته من البعثة بالحياة الادارية تماما ، فرأس « هيئة تربية الأفكار » التى أسسها رضا شاه للتوجيه الجماعى لعقل الأمة الايرانية ، كما راس الاذاعة الايرانية فترة من الزمن ، ثم شغل مقعدا فى مجلس الشيوخ حتى وفاته ١٩٧٤ .

وهو كاتب تقليدى يميل اسلوبه الى الأخذ بالمدرسة القديمة مع ميل الى الرومانسية الفرنسية المنوهة فى عصور مرضها مع مزجها ببعض ملامح الشعر الفارسى الكلاسيكى . ولا عمل له يذكر الا هذه الرواية التى أقدمها ، والتى تتناول الفساد فى ايران من وجهة نظر كاتب عاش فى خضمه حتى النخاع ، وتعد فى هذا المجال من أهم ما كتب فى الفارسية المعاصرة بالرغم من تعدد مساوئها الفنية .

كنت قد عزمت بعد أن قرأت نصف هذه الرواية الطويلة (٥٣٧ صفحة) أن أكتب لها عنوانا جامعا هو « الفساد الادارى فى

ايران » ولكنى بعد أن أتممتها وجدت أن هـذا العنوان ليس جامعا ، فليس الفساد الذى حاول المؤلف أن يجعل منه الاطار الذى يحيط بروايته فسادا اداريا فحسب ، بل هو فساد سياسى وفساد خلقى وفساد نفسى وفساد ادارى وفساد اجتماعى بحيث يجد القارىء نفسه تائها وحائرا فى تشخيص هـذا الفساد . هل نشأ الفساد السياسى عن الفساد الادارى ؟ أم نشأ عن الفساد الأخلاقى ؟ أم أن كليهما نشأ عن الفساد النفسى ؟ هل أصل الفساد أخلاقى أم ادارى أم نفسى ؟ وذلك لأن الرواية واسعة حافلة بالشخوص والأحداث ألقى فيها المؤلف بكل ثقله وتجارب حياته فهى آخر رواية كتبها بعد عدد من الروايات كان أغلب أحداثها يدور فى حجرات النوم ، وكان الكاتب مطعونا فى وطنيته فربما أراد بهذه الوثيقة الطويلة الهامة أن يتتبع أخطبوط الفساد فى ايران ، أو ينفى عن نفسه صفة السلبية التى لصقت به فترة من الزمن أو صفة الولاء المقصر التى لايزال معاصروه حتى بعد وفاته يعيرونه بها ، هـذا وان كان الكاتب لم يستطع أن يتخلص أثناء معالجته لهذا الموضوع الجاد من الرومانسية الفانتازية التى لونت كل أعماله فجعل منبع الفساد امرأة بغيا تلعب من وراء الستار برجل دين فاسد سقط فى حبائلها فتحركه كما تريد وتجعل منه أداة لتنفيذ ما تبغى . وهو مندفع أول الأمر بتأثير حبه لها ، ثم مندفع بحكم العادة ، ثم مندفع بتأثير طموحه الذى لا يحد والذى أذكت تلك المرأة أواره ، ثم بحكم جبنه المتأصل أو مصيره الأسود الذى كان يلقى به نحو الهاوية ، ولست أشك أن الكاتب وهو الذى تلقى دروسه فى فرنسا وأجاد الفرنسية اجادة تامة قد قرأ ستندال ، بل أؤكد أنه قرأ رواية ستندال « الأحمر والأسود » خاصة فهناك تشابه عجيب حتى فى أدق التفاصيل بين شخصية بطل روايته وشخصية « جوليان » فى « الأحمر والأسود » .

ولاشك أن قارىء الكتاب سوف يفاجأ بنهاية الرواية كما فوجئت

عند قراءتها لأول مرة ، ذلك أن الراوى وهو بطل الرواية يخبرنا (فى حين أنه يخبر أيضا المدعى العام فالرواية كلها خطاب من متهم سياسى الى المدعى العام) يعلمنا هـذا البطل ـ الشيخ حسين فى بدايتها وحسين خان فى وسطها وحسين قياس الدولة فى نهايتها ـ آنه لم يقل الا قليـلا من كثير ، وأن كل ما قاله ليس الا مقدمة ، ولذلك شـك النقاد أن المؤلف فى سبيله الى تقديم جزء تال للرواية ، لكن المؤلف لم يقدم هذا الجزء ولعله أشفق من أن يتناول فيه أشخاصا لازالوا أحياء أو فى السلطة أو لعله رأى من الخير أن يعيش شيخوخته آمنا فى مجلس الشيوخ ، وأنه ليس من الحكمة أن ينقد عهدا كان واحدا من كبـار عمده وظل مخلصا له حتى النفس الأخير .

يقص البطـل فى البداية طفولته فى قرية « مزينـان » من قرى سبزوار حيث كان يعيش مع والده ووالدته وابنة عمه اليتيمة المسماة عليه « زينب » والطفل يخشى والده الا أنه يراه ينحنى ليقبل يد شيخ الجامع فيقرر أن يكون شيخا ، وبهذه الرغبة يصر اصرارا طفوليا على التعليم فلا يجد والده بدا من موافقتـه على هـذه الرغبـة ، وينسى الطفل عالمـه الطفولى وحكايات والدته عن الجن والشياطين وينغمس بكل حماسـه فى التعليم ، فلا يكتفى بأن يتم تعليمـه الدينى فى القرية وفى سبزوار بل يرحل الى العاصـمة طهران فى طلب العلم بالرغم من الحاح والده عليه بالعودة لادارة أرضـه وزراعتها وللزواج من ابنة عمه فيرسل خطابا مطولا الى والده فى فضـائل العلم والى ابنة عمه فى فضائل الصبر ثم يفتح عينيه على زحام المدينة الكبيرة « فمن السهل جدا فيها ألا ينتبه الانسان الى الآخرين » وفى مدة أسبوع واحد كان قد طاف بكل مدارس طهران واختـار أوسعها وأفخمهـا وبعد لأى استطاع أن يجد حجرة داخل المدرسـة ، ومن المدرسة يتعرف الى تاجر من سبزوار جاء بولده للعلم ، وعن طريق هذا الولد الذى كان

تحت رعاية الشيخ حسين تعرف الشيخ بزيبا التى حددت مصير حياته .

لأن الشيخ حسين كان مشهورا بزهده وتقواه ، أوصاه التاجر خيرا بولده ، وسرعان ما اكتشف الشيخ أن الشاب كثير التغيب عن المدرسة ، وأنه كثيرا ما يغير زيه الدينى بالزى الأوربى ، وأنه يعود من غيابه ورائحة العطر تفوح منه ، كان هذا الشاب على علاقة بزيبا التى زارت الشيخ فى صومعته ذات يوم فقلبت كل مفاهيمه عن الحياة ، كان نادرا ما يفكر فى حياته أو فى فقره المدقع أو فى سحنته الكئيبة ، فدفعته الى أن يقارن نفسه بالشاب المبتسم الأنيق وولدت فى نفسه شعورا بالحسد فنقل كل مخازيه الى والده فقرر أن يحمله معه الى سبزوار ، وعند الوداع يلتقى الشيخ بنفس المرأة أو على حد تعبيره « بنفس العطر » وهى تستحلف الشيخ أن يحول بين حبيبها والسفر وتبكى وتستعطف الا أن بكاءها لا يقابل الا بالسخرية من الحاضرين ، ويسافر الشاب بعد أن تكون بذرة الحسد قد صارت شجرة فى نفس الشيخ الذى عرفنا الكثير عن مضاء عزيمته وطموحه الذى لا يحد ، وتوسله الى ما يريد بكل الوسائل وحسده وحقده ومركبات النقص التى تملأ نفسه ، لقد نسى خطيبته القروية تماما ، وأين هى من تلك المرأة ؟ ان قريته مزينان لم تشم هذا العطر أبدا .

ويتصل حبل المودة بين الشيخ والمرأة فقد أرسلت اليه خادمتها ، انها تريد أن تشكره على تأثره ببكائها وتهدئته لخاطرها ولأن الشيخ لا يريد أن يجلس مع امرأة محرمة فاذا به من أول جلسة بعقد عليها عقد متعة ليحل له الجلوس فحسب ولأن الشيخ كان متحفظا ولأن زيبا أعجبت بقوته وفحولته ولأن المؤلف أيضا كان متعجلا اذا بالشيخ ينهار عند أول كأس ولا يفيق الا فى الصباح وهو فى أحضان زيبا وحين يلوم نفسه لا تجد المرأة من وسيلة الا أن تحمله حملا الى

الفراش ، وعلى هـذا المنوال تمضى أيام وليال وينتهز الشيخ فرصة ما فيسرع عائدا الى مدرسته ولكنه لا يستطيع أن يقضى فيها سحابة نهاره ، أى عالم هـذا ؟ وفى المساء يعود الى محبوبته فقد أحس بأن كل ما فى المدرسة غريب عليه ، ومنذ تلك الليلة نودع الطالب الدينى الشيخ حسين لنبدأ مع حسين جديد ، دون أمل فى أن يكون واعظـا كبيرا يصلى الناس خلفه •

تبدأ حياة الشيخ حسين الادارية بأن زيبـا تدبر له عملا فى وزارة ما تفهم فى آخر الرواية أنها وزارة الداخليـة ، وعن طريق واحد من عشاقها العديدين يطلق عليـه المؤلف هـذا اللقب الساخر « غامض الدولة » وتقدمه الى حسين على أنه ابن عمهـا • ويمضى حسين الى الوزارة ، لكنه يقف فى أروقتها خائفا ، انه خائف من الحـركة ومن الحديث ومن النـاس الذين يراهم رائحين وغادين يحملون الملفـات السميكة فى أيديهم ، خائف من العربات التى تقف على باب الوزارة ويقف الناس صامتين كأنهم فى انتظار صاعقة أو مخلوق نورانى يملأ العالم نورا ولا تسفر العربة فى النهاية الا عن مخلوق كبقية خلق الله من دم ولحم ويلبس قلنسوة وله شارب ويعود الى زيبا كالطفل التائه الذى عاد الى حضن أمه فتخبره أنها أعدت كل شىء وليس عليه الا أن يذهب فى اليوم التـالى الى الوزير ويذهب حسـين ويحسبه الوزير صحفيا فيقدم له المظروف المعتاد ثم يعرف حقيقته ويطرده من الوزارة ويعود خائبا الى زيبا يود أن يحزم ملابسه ويعود الى قريته ويطلب منها أن تصحبه ، فتسخر منه وتذكره بعجزه فى الابتعاد عنهـا ليلة واحدة فيرضخ ، وتعد زيبـا كل شىء ويبدأ لقاؤنا بميرزا حسينخان بدلا من الشيخ حسين ، لقد أصبح موظفا خطيرا يحسب له ألف حساب •

ان ميرزا حسين خان موزع بين أمرين لم يكن له بأحدهما سابق معرفة : انه الآن رئيس قلم الاحصـاء ولا يعلم عن الاحصاء شيئا

الا أنه من حصا يحصو حصوا • وهو خائف ومشفق من عمله الذى لا يعرف عنه شيئا ، وخائف ومشفق أيضا من منافسيه الذين لا يعرفهم، وهو مشفق من الأكاذيب التى يطلقها من عينه وهو أنه متعلم فى أوربا وأنه خير من يصلح لهذا العمل ، وهو تائه ينظر نظر المغشى عليه من الموت الى الأشباح التى تملأ حجرته وتقيسه طولا وعرضا : كأنها تريد أن تخلع عنه ملابسه لترى ما تحتها ، وهو ينظر بعين زائغة الى الخطوط الحمراء والزرقاء التى أتاه بها أحد مرؤوسيه لمراجعتها ، يرى فى هذه الخطوط أيامه السوداء المضطربة ، لكن الأمر لا يلبث أن يسير كما تسير الأمور فى هذا الجزء من العالم ، يجتمع حوله المتنافسون والدساسون والنمامون والمنافقون يثنون عليه ويعيبون على سلفه الذى كان من صفاته كذا وكذا وكيت وكيت ، وهو ينظر بعينيه فيصطفى واحدا منهم لمح فى عينيه الاخلاص ولمح أيضا ما هو أهم وهو المعرفة ببواطن العمل ، يصطفى « برويز خان » وهو لا يعلم أنه اختار منافسا خطيرا له فى قلب زيبا أو فى شهواتها التى لا تنتهى ، وأنه فى الميدان الآخر الذى دخله أيضا دون سابق تجربة لم يعد الفرد الصمد ، بل أصبح آلة تسيرها زيبا فى سبيل حبها لبرويز الذى تطور من رغبة حتى صار حبا عارما قاتلا سيطر على مصائر كل أبطال الرواية حتى زيبا نفسها ، لقد كان برويز هو المقابل الشريف الطاهر لكل أبطال الرواية الجاهلة الملوثة العمياء •

كان برويز يشرح أفكاره فى العمل لحسين خان ، وكان حسين خان يرددها بدوره فى الاجتماعات واللجان وأمام ذوى الأمر والنهى ، وكان فى نفس الوقت يسلب دون قصد منه كل ما فى حياة حسين خان •• كان يسلب زيبا ، ولأن زيبا مدحته أمام حسين خان يتحرك حقده القديم فيقصيه عن العمل ، لكنه يكتشف أن رئيسه الذى عينه ليس ابن عم زيبا بل عشيقها ، كما أن غامض الدولة هذا يعلم أنه ليس ابن خالة زيبا كما ادعت له ، وفى نفس الليلة يتشاجر مع زيبا،

انها تريد ان تتزوجه بعقد نكاح دائم لا متعة وهو يتهرب ، وهى ساخطه عليه لانه بدأ يتشاجر مع غامض الدولة على المكشوف ، ثم تطرده ، وحين يريد أن ينصرف تبكى وتنتهى الليلة بما تنتهى به كل الليالى •

يستمر حسين خان فى العمل ؛ شهران مرا وهو لم يتقاض مرتبه بعد ، وما يحدث كل يوم يهدد أمره بالافتضاح ، انه يريد أن يهرب من الهوة التى ألقى بنفسه فيها فمرة يأتى خبير أوربى الى مكتب الوزير فيستدعيه للترجمة ومرة يدعى الى اجتماع لرؤساء الادارات فى الوزارة لمناقشة سياستها لكن الله يسلم ويمضى الاجتماع دون كلمة جدية واحدة ويحمد الله على السلامة ، ان من مصلحتهم أن يستمر الاجتماع فهو زيادة فى أجورهم ، وهو من شدة خوفه ينسى زيبا ويستعين ببرويز ثانية ، ويفيض برويز فى الحديث عن الفساد وعن جهل رؤساء الادارات حتى بات حسين خان يظن أنه المقصود • ويذهب حسين باقتراحات برويز الى غامض الدولة لكن غامض الدولة يلومه « انه لم يصبح حصرما فكيف يريد أن يكون زبيبا » •

وفى مكتب الوزارة يسأله عن زيبا ، ويتحداه حسين خان فلا يسلك غامض الدولة الا أن يحدثه عن أصل زيبا ، انها بغى أصفهانية ، وهى أصلح لشيخ مثله ، ان تنازل عنها حسين للوزير ، فسوف يزوجه بنت أحد رؤساء الادارات ، ويضم الاحصاء للحسابات ويكون هو الرئيس الكلى لادارة المحاسبات وبرويز رئيس الاحصاء كل هذا فى سبيل أن يتخلى عن زيبا ؟ يا بلاش •

استطاع حسين خان بهذه الوسيلة أن يؤمن مستقبله أو هكذا ظن ، لقد وعد الوزير أن يتنازل عنها ، لكنه يعلم رغبتها فى برويز ، اذن فليقرب منها برويز فيستفيد منه فى العمل ويكيد للوزير الذى حرمه منها هذا بالرغم من أن الوزير نفذ كل ما وعده به ، زوجه من بنت « محرر الديوان » لكن حسين خان رأى الفتاة العذراء غير المجربة

كأسوأ ما يرى انسان أثاثه ، لقد كان يطمع بأن تحمل اليه الجواهر لكنها لم تحمل اليه شيئا مما كان يطمع فيه ، فكان أن هرب منهـا منذ أول ليلة الى أحضـان زيبـا • لكن زيبـا ما كانت لتصفو له ، انها لم تعد تريده ، ولم تعد تريد غامض الدولة الشيخ الذى لا نفع فيه ، ان حسين فى رأيها قروى انتهازى تستطيع كما عينته بغمزة من عينها أن تقصيه بغمزة أخرى ، انها لم تعد تريد سـوى برويز ، انها تلاحقه وتغريه بأنها تستطيع أن توصله كما أوصلت حسين خان مثله الأعلى ، ان حسين خان يعلم فلا يثور على زيبـا بل يثور على برويز يقول : « كان أول ما أحسست به أن أضرب برويز لكمتين على رأسه وأقول له : أيها الأحمق الذى لا عقل له وهل يهرب انسان من حظه ؟ اذن بأية وسيلة تريد أن تصعد سلم الترقى ولا ظهر لك ولا مال ؟ لمـاذا ترد اليد التى امتدت اليك من عالم الغيب بدلا من أن تقبلها » ؟ ان زيبـا تريد من حسين خان المقابل : عليه أن يحمـل برويز اليهـا حملا ، وحسين خان فى صراع مع نفسه تهيب به رجولته التى ديست فى شوارع طهران أن يتخلص من اسار زيبـا ، لكن أنى له هـذا ؟ لقد أصبح لا يطيق النظر فى وجه زوجته تلك التى داس فى سـبيل الزواج منها على كل حذره فارتشى علنا ، لم يبق له الا زيبـا ، انهـا حقيقة نار لكنها لا تحرق لأنه يحبها ، انه يذهب اليها فيجدها فى أحضان غامض الدولة فيتشاجران ويسقطان معا فى حوض المـاء •

ولا يسفر غامض الدولة عن رغبته فى الانتقام فى اليوم التالى ، انه يخبر حسين خان أن الوزارة فى سبيلها الى السقوط ، وأن عليهما أن يتعاونا معا ، لكنه يريد أن يلعب بنفس اللعبة « برويز » فى حين أن زيبـا قد استولت عليه على أنهـا أرملة غنيـة تمد يد المساعـدة له ولأسرته ، وهى تخدع ميرزا حسـين خان وتلعب معه لعبة التائبـة وتستنزف نقوده لتسلمها الى برويز ، وحسين لا يجد بدا من الارتشاء لكى يساعد زيبـا على التوبة ، ويعود بغنائمه الى زيبـا فتتلقاها منه

وهى تذرف دموع التوبة ، وحسين خان يستمرىء المنصب ، انه يفكر فى وسيلة يستند عليها ، فيشير عليه بعضهم أن ينضـم الى حزب من الأحزاب العديدة ليحتمى به ، وها هو حائر أمام أحد الذين يسيطرون على الأحزاب قاطبة ويحركونها بأيديهم ، اننا نسمع من هذا الوسيط فلسفة الأحزاب فى ايران « ولعله كان رأى حجـازى أيضا الذى هلل فيما بعد لالغاء الأحزاب » : « ليس المقصود من الاعتدال أن يسير الناس الهوينى مثل الشيوخ الذين يستندون على عصيهم ، وليس المقصود من الديموقراطية أو الثورة أن يكونوا كالشعلة المحرقة ، ان المعتدلين والديموقراطيين اسمان لفرقتين مختلفتى المصـالح ، وما أكثر المعتدلين الذين هم أكثر اندفاعا من الثوريين ، وما أكثر الديموقراطيين الذين يتحولون عند اللزوم الى معتدلين ، والمعتدلين الذين يسمون أنفسهم ديموقراطيين ، ان معظم المجاهدين والثوريين معتدلون ، ومئات من الأعيـان قد صاروا ديموقراطيين لحفظ مصـالحهم والوصـول الى مناصب عالية » ٠

استكمل حسين خان اذن كل شروط اللعبة ، لقد بدأ بمعـاونة غامض الدولة ٠ ينهب ما شاء له النهب ، ويرتشى كلما سنحت الفرصة، ويغير جلده كلمـا شاءت الظروف : « وتعلمت ضحـكة مصطنعة من اختـلاطى بالأعيـان ، كنت أغطى بهذه الضحـكة كلامهم الفارغ أو أحاديثى التى لا طعم لها ، وحينما لا أعـرف ما أقول أضحك ، وأحيانا وأنا أنصت الى من هم أكبر منى أرد بهذه الضحكة اذا ضحكوا ولو كان الأمر لا يتعلق بى » وسرعان ما أضـاف حسـين خان الى ميزاته العديدة حبه للقمـار وذلك خشية أن يقال عنه انه قروى يخاف على نقوده وربما واتاه الحظ وحصـل على المبلغ الذى يؤمن حياته مع زيبـا بعيدا عن تقلبات الزمن ٠

ان حسين خان لا يخاف الا من غامض الدولة وهو يستعين عليه

بميرزا باقر خان أحد رؤساء احدى الجمعيات السرية فى ايران ولا أدرى ما هى الفئة التى لم يسىء اليها المؤلف فى روايته هـذه ، ولمـاذا اختار اسم ميرزا باقر بالذات وربمـا كان يريد أن يسىء الى ذكرى باقر خان العظيم أحد قواد تبريز فى الحركة الدستورية ، لقد قـدم صورة ميرزا باقر كأحد زعماء عصابة المـافيا ، انه يأخذ من الخصوم ليحسبهم من بعض ، ويهدد بالقتل لأدنى سبب وآتفهه وها هو حسين خان يصف نفسه فى تلك الفترة قائلا : « لم يكن دائى واحدا أو اثنين بل كان كثيرا : حب الرياسـة وبلاء السياسة والتعلق بالمـال والجاه وحب النفس والانخداع بمخالطة الأغنياء وقلق الحب والشهوة وجنون القمار ، كل هذه الأشياء تجمعت حولى ككلاب حول جيفة ، وكل منها أخذت من وجودى جزءا ، أخذت تلعق فيه على حدة • أما الخوف من الله وسائر الملكات الطيبة فقد أصبحت كالأقرباء الذين يرون طفلهم غريقا فى اليم وهم على الشاطىء لا يملكون الا الصياح والعويل » •

وكل ما يتمناه حسين خان أن تسقط الوزارة حتى يستطيع أن يطلق امرأته دون أن يتعرض للأذى •

وبينما كان مشغولا فى هذه الأمور كانت زيبـا قد أعدت كل أمورها للزواج من برويز • ويعلم حسين خان عن طريق امرأة محجبة أخبرته بكل شىء بالتفصيل « وهـذا الأمر الشبيه بشخصية الدلالة يتكرر كثيرا فى الرواية » ويواجه زيبـا فلا تنكر بل تتحداه قائلة : « أنا التى جعلتك رجلا ، لقد أعطيتك مفتـاح الأمور ولو أعطيتنى عشرة أضعاف ما أعطيت لمـا وفيت جمـائلى » ان حسين خان يعد زيبـا بألا يقف فى طريقها لكنه يخبر برويز بل يود أن يرسله فى مهمة الى الجنوب ، الا أن التقرير يكتب وبدلا من أن يوقع غامض الدولة على ايفاد برويز ينتقم من حسين خان بأن يوفد موظفا آخر • ويصر برويز على اتمام الزواج ، فلا يجد حسين خان بدا من أن يدبر جلسة

آفيونية مع زيبــا ويرســل فى طلب برويز ليرى بعينى رأسه ما حاول أن يلمح له به أو يصرح فلا يصدق .

ينتهى حسين خان من برويز الذى أفاق من سذاجته فاقدا لكل شىء ، مهددا بقتل زيبــا وحسين وغامض الدولة « وكل هــذا العالم القذر الذى يعيش فيه » ، وغامض الدولة يلمح لحسين خان بالفصــل وزيبــا مريضة فى فراشــها لا تطيق رؤية أحد وبرويز يقرر فى خطة عصماء أنه سوف يرحل الى تبريز ويستهن البقالة « فهى أشرف ألف مرة من العمل الحكومى » ان حسين خان يسخر من امتهــان برويز للبقالة لكن زيبــا ترد عليه قائلة : « أليس البقال بأفضــل من الخادم ؟ ويرد عليها : أليس من ســوء الجزاء فى الدنيا أن يرتبط بك شخص مثل برويز ؟ وترد : أجل من الظلم أن يكون زوجى برويز ، ان زوجى يجب أن يكون أنت ، لن أتركك أبدا ، ينبغى أن أنتقم منك ، ينبغى أن أدفعك الى سرقة مائة ألف تومان أنفقها فى محــلات لاله زار ، وبعد عمر من اللصوصية والخيانة تكون محتاجا لعشائك ، ســوف أوصلك الى مناصب عالية ، وأمهد أمامك أســباب السرقة ، وأجر عليك من الوبــال ما يجعلك تندم على أعمالك فى اليوم ألف مرة » ولا يجيب حسين خان الا بقوله : « كونى معى وافعلى ما شئت » .

ويستمر الأمر على هــذا المنوال شهرين ، وتسقط الوزارة . ويسقط معها حســين ، وتفر زيبــا مع أحد زعماء قبــائل اللور الى همدان ، ويفر حسين الى قريتــه مزينان ليجد والده قد مات وأمه جنت وزينب هربت الى حيث لا يعلم أحد ، فلا يجد بدا من العودة الى طهران مع أمه وزينب التى قابلتهم فى الطريق وهى تحترف التسول وفوق ذلك حامل ، انه يعود ليجد زيبــا وزوجتــه تقيمان فى نفس المنزل ، وحين يسأل : هل بقى شىء من النقود التى تركها ؟ ترد زيبــا : لا يا عزيزى اننا ننفق من أتعــاب الليــالى التى أقضيهــا بلا نوم ، لا تخجل . وينتهى القسم الأول من الرواية .

نحن فى القسم الثانى مع حسين فلا هو ميرزا ، ولم يعد حتى شيخا ، انه يقيم مع هذا العدد من النسوة ، لكنه لم يعد حسين الساذج الذى قدم الى طهران لأول مرة ، انه لا يفكر الا فى نفسه وزيبا لا تفكر الا فى استغلاله لسرقة أموال عشيقها الأخير سالار مهيب لرستانى ، لقد ضاقت بقسوته وبخله وادعت أنها زوجة حسين خان « قياس الدولة » ولا ندرى من أى جب أخرجت هذا اللقب ، وأنها سوف تعود الى طهران فتطلق لكى تتزوجه ويودعها باكيا خاصة بعد أن تعففت عن جوهرة صغيرة أراد أن يهديها لها .

ويذهب حسين الى الوزارة ، ويقدم نفسه الى خلفه على أنه حسين قياس الدولة الذى كان غائبا عن طهران لادارة أملاكه ، لكن حسين يطرد من الوزارة شر طردة ، ويعود فيلتقى بميرزا باقر ، ويخبره ميرزا باقر بأيسر الطرق للحصول على اللقب وهو أن يدعى أنه مجاهد « أى عضو فى احدى الجمعيات السرية » ، وأن يدبر مبلغا من المال ليشترى به اللقب ، ولا يلبث أن ينفذ ما يريد ، ويحق لنا من الآن أن نسميه « حسين خان قياس الدولة » .

عرف حسين قياس الدولة أن الطريق أمام المجاهدين مفروش بالورود ، فلا مندوحة اذن من الانضمام الى احدى هذه الجمعيات العديدة التى تملأ طهران والتى تسيطر على الحكومات مهما كان اتجاهها . ويقوده ميرزا باقر مغمض العينين الى حيث يجتمع المجاهدون، ويصاب حسين خان بالرعب عندما يلمس سلاحا لأول مرة ، الا أن المعلومات التى ينقلها اليه ميرزا باقر تقوى من عزيمته ، ان منافسه فى الوزارة يعد قائمة بالاتهامات التى سوف توجه اليه عندما يقدم الى المحاكمة .

ويزج بنا المؤلف فى أوساط الجمعيات السرية ، ونفهم لأول مرة أن الرواية تدور زمن الانقلاب الدستورى ، حيث كان جنود القوزاق

يدقون شوارع طهران حماية للشاه القاجارى من الدستوريين • ولست أجد كاتبا ايرانيـا معاصرا شوه صورة المجاهدين كما فعل حجازى ، وكان بينهم وبينه ثأر ، انهم جميعا غلاظ شـداد يتحدثون الفارسـية بلهجة آدرية ، « ولعل هـذا بالفعل كان الجزاء الذى تستحقه تبريز ودورها العظيم فى الحركة الدستورية من المؤلف » وكلهم لا يتورعون عن أى شىء فى سبيل مطامحهم الشخصـية ، وكلهم يفرضون الاتاوات على الأغنياء بدعوى أنهم من أعداء الدستور ، وكلهم يخدعون السذج فيسرقون أموالهم وأعراضهم « أهكذا كانت بالفعل صـورة هؤلاء الذين تصـدوا لقوات روسيا القيصرية فى شوارع طهران وضربوا أروع نماذج التضحية والفداء ؟ ! »

وينفرط هذا الجزء من يد المؤلف ، ويريد أن يصور لنا كيف أراد حسين خان بمعونة المجاهدين أن يسرق الملف الذى يعد فيه أبو القاسم خان اتهاماته ، فيخترع أحداثا وهمية لا تحدث الا فى القصص الشعبى من مطاردات الى دخول المنازل تنكرا الى قصص حب وهميـة بين حسين خان وزوجة أبى القاسم هـذا ، الى لقاءات مفتعلة بين زيبـا وزوجـة أبى القاسـم خان ، الى مغامرات للمجاهـدين لا تقل عن مغامرات قطاع الطرق وعصابات المـافيا « وسمك عيار » ، الى طمع المجاهدين وميرزا باقر فى زيبـا واشتراكه فى المؤامرة التى تعد لسرقة أموال اللورى ويستطرد الكاتب وينسى أحيانا ما يتحدث عنه ويخلط بين الأسماء والأحداث حتى ليفكر القارىء بأن يترك الرواية وشأنها ويريح رأسه •

ولا يكفى الكاتب الطين الذى ألقاه على رؤوس المجاهدين فنراه يتناول الصحافـة الدسـتورية بشىء من الهجوم ويروى لنا كيف أن جماعـة ميرزا باقر فكرت فى اصـدار صحيفـة ونلتقى برجـل دين « آخوند » اسمه قديم السادات الذى يصوره فى صـورة شيطانية

قاصدا بالطبع أن يلقى ببعض طينه على الجناح الآخر القوى فى الحركة الدستورية وهو الجناح الدينى ، فقديم السادات يخدع شابا متهورا ويسلب نقوده ويتزوج أمه ، وحسين خان يستغل الصحيفة فى سلب الأموال من الناس لكى يحارب الخونـة وأعداء الدستور ، ويعقد ميرزا خان اجتماعا فى منزله يدعو اليه الوطنيين ويقف خطيبا ، كمـا يقف قديم السادات خطيبا ، وكذلك ميرزا باقر خطيبا وكلهم يتحدثون عن الاسـلام الذى ضاع والوطن الذى هو فى خطر والدور العظيم الذى سوف تلعبه المجلة المرتقبة فى اصـلاح كل هذه الأوضـاع ، وتنهال التبرعات .

خلال كل هذه الأحداث لم ينس ميرزا باقر رغبته فى زيبـا : وها هو ميرزا حسين يرى نفسه محاطا بالأعداء من كل جانب : ميرزا باقر وأبو القاسم خان الذى يعد ملف الاتهامات الذى لم يستطع ميرزا حسين الحصـول عليه قط ، رجل البوليس نايب رمضـان الذى كلفه باسترداد الملف فأصبح سيفا مسلطا على عنقه ، زوجته التى لم يستطع طلاقها ، أمه المجنونة ، زينب المدمرة تماما ، وفوق ذلك كله زيبـا . وبخطـة نفذها أوقع بين باقر وميرزا أبى القاسـم وكان هـذا يوم عاشـوراء ، ولا ينسى الكـاتب أن يصف لنا الاحتفـالات فى عـدة صفحات .

وتثنى زيبـا على تدبير ميرزا حسين لكنه مع ذلك خائف من انتقام ميرزا باقر ، انه يفكر فلا يجد وسيلة الا الانتحار ، لكن المجاهد الكبير يخشى من اطـلاق الرصـاص على نفسه ، فيتجه تفكيره الى الأفيون ، ويلتقى عند بائع الأفيون بالصحفى الثورى قديم السادات وهو يشترى حصته اليومية . ويجتمعان ويقص قديم السادات عليـه أسلوب استغلاله للشاب « مصطفى خان » الذى سوف تدار الجريدة من منزله وسوف يوقع كل ما يشتم منه الخطر . أما الهدف فهو اقصاء

وزير الداخلية وعلى ميرزا حسين أن يدفع وفى جواهر سالار المرتفبة وأموال والدة مصطفى خان التى يخطط قديم السادات للزواج منهـا خير العوض •

وطرأ تطور خطير آخر على ميرزا حسين ، انه لم يعد يحب زيبا ، انها أمامه كالقدر المحتوم ، انها وسيلته الى استعادة نفوذه ، ان حبه الحقيقى أصبح لزوجته مريم ، ان وفاءها يعذبه ، أما زينب فقد أتت بطفل الى الدنيا لا يعرف له أبا وهو يتمنى لها الموت ، الا أنه يضطر للعقد عليها ، ولكن كيف يرى وجه السعادة ؟ باقر وأبو القاسم اتفقا عليه ، والمحكمة ترسل له الاخطار تلو الاخطـار وزيبـا تخبر حامل الاخطار أنه فى خراسان وسيعود بعد عشرين يوما ، اذن أمامه عشرون يوما فقط •

وصدر العدد الأول من الجريدة ، لكن الضحية كان مصطفى ، لقد جاء اليه اسـتدعاء من وزارة الداخليـة : اما أن يثبت ما كتب واما أن يسجن • ويتجمع المجـاهدون حول مجلس أفيون ، وتدور مناقشات سياسية جديرة بالفعل بمجلس أفيون ، وتثور أم مصطفى ، ولكن ولدها يثور عليها فهى لا تفهم شيئا ولابد لشعلة الحرية أن تخرج أول ما تخرج من منزله ، ويتفق المجاهدون على مهاجمة وزير الداخلية نفسه ، وفى ابنته المتفرنجة ، وتنتشر المقالات انتشار النار فى الهشيم ، وتؤلف الأغـانى الشعبية حول ابنة وزير الداخلية التى يفيض بهـا الكيل فتنتحر • وبانتحار الفتاة يبدأ كل مجاهد فى تنفيذ ما اعتزم عليه حسين خان يكون جمعيـة من المجاهدين لحمايته من أنصـار باقر ، قديم السادات يحرك الأطماع فى قلب أم مصطفى ويتزوجها ، انها وهى المتزوجة مكرهة كما تدعى تضـع رقية لزوجهـا ليلة زفافه ، الا أن الرقية ترسل به الى سقر ، ذلك لأنها كانت مخلوطة بسم الفئران دون أن تدرى •

وتفتح وفاة قديم السادات أمام ميرزا حسين الخائف أبواب المجد ، اختفت كل العيوب الشيطانية لقديم السادات وحلت محلها محاسن الانسان المجاهد الذى ضحى بروحه فى سبيل مبادئه السياسية • انه يعلن أن قديم السادات ضحى بنفسه فى سبيل الأمة والدستور وأنه مات مسموما على يد أعدائه ، ان الذى قتل قديم السادات هو وزير الداخلية ، ويخطب ميرزا حسين والجثة فى الداخل تكاد تتعفن ويخطب والجنازة تسير ، وقد أحس أن فى حلقه مائة لسان كلما تعب لسان قام آخر ، وها هو مصطفى المسكين يجمع عددا من الشباب ويقسم فى الجنازة على الانتقام لقديم السادات وترتفع الهتافات « عاش قياس الدولة » ويعلن أمام الناس أنه سوف يقدم استجوابا لرئيس الوزراء ، ويقضى الليل مع جماعته فى التخطيط للانقلاب المنتظر •

ان حسين ميرزا قياس الدولة ليكاد يجن ، فالناس يقدمون له الأموال جزافا لانفاقها فى سبيل الحرية ، وأعداؤه يختفون الواحد بعد الآخر أمام هذا الاقبال العظيم ، ومعظم أعضاء جمعية باقر ميرزا يرون فيه الوطنى العظيم وينضمون اليه ، وبابه يدق بليل ليدخل مندوبو السفراء والعظماء يقدمون اليه الأموال ويخطبون وده وهو يلتقى برئيس الوزراء « لم يصف المؤلف ذلك بالتفصيل بل آرجأه الى الجزء التالى الذى لم يصدر » وبنواب الأمة • ويكون حسين خان حزب الأمة ، ويعد اللقاءات فى الميادين العامة ، ويتحلق حوله العاطلون، هل فكر حسين خان اذن أن يتخلص من زيبا ؟ أبدا ، كان يدرك أن الناس سوف ينفضون من حوله فجأة كما حدث أن اجتمعوا حوله فجأة ، ثم ان مجوهرات سالار مهيب لاتزال تداعب آماله •

صار ميرزا حسين خان نافد الصبر من حديثه الينا « أو الى المدعى العام » لقد صار بالفعل نافذ الأمر تتخاطفه الوزارات وكيلا

لها ، الا أنه كان يؤثر البعد عنها جميعا مكتفيا بنفوذه السرى على كل الوزارات ، لقد صار ميرزا حسين خان قياس الدولة مشغولا لا يعود الى المنزل الا فى المساء ، أما زيبا فكانت لاتزال مشغولة بأمر مجوهراتها ، وفى جزء طويل لا داعى له يخبرنا كيف فشلت فى الظفر بالجواهر ، وكيف أن رجال سالار حملوا مريم « زوجة حسين » معهم الى ديارهم ورحلوا . وهكذا تجن زيبا ، وتهتف باسم حبيبها ، ولا يجد حسين الذى كان يأمل فى حياة طيبة مع زوجته بدا من احتراف السياسة .

وبالرغم من هذا النجاح لم يكن ميرزا حسين سعيدا ، لقد اختفى أعداؤه ، وحصل على ملف اتهاماته وأحرقه بيده ، الا أنه ليس سعيدا ، ليس سعيدا لأنه سقط فى غل السياسة وأسرها ، انه يقول ولعله يعبر عن حجازى لا ميرزا حسين : « ذلك الذى جربته بنفسى أن السياسة تمنع عن الانسان التمتع بالعلم والفن والاحساس بالجمال ، انها تحد من أفق التفكير وسعة النظر ، وتذرو مع الرياح كل أمل فى الصداقة والطيبة والعدل وهى أصول الحياة ، وتملأ الدنيا بأسرها بالمكر والخداع ، وطاهر القلب حين يعمل بالسياسة يفسد قلبه ويضطرب ، ولكن ماذا كان ينبغى أن أفعل ، لقد كان قدرى أن أرتبط بالسياسة عمرى ، ولا أرى وجه السعادة » .

***

هذه هى رواية ميرزا حسين خان الذى اختار لها مؤلفها عنوان « زيبا » جريا على عادته فى اختيار أسماء النساء عناوين لأعماله واذا سألنا أنفسنا : لخدمة أى من الأهداف ولماذا صور محمد حجازى وثبة الشعب الايرانى هذا التصوير المزرى ؟ لا ندرى ، ان أغلب الأمم يبحث كتابها عن النقاط القليلة الضوء فى تاريخهم ويصورونها على آتم وجه ، اللهم الا اذا بليت بمن تكون له مصلحة

فى جر فترة ما الى زوايا النسيان حينذاك تكون الأعمال التى تشبه زيبـا حجازى ذات نفع لهم ، هناك حكام يحبون دائما ايهام شعوبهم أن التاريخ يبدأ بهم وأن كل ما قبلهم عبث وخواء ، ان التاريخ الحقيقى لفترة الدستور فى ايران حافل بالمثل العليا للتضحية والفداء ، وهو عصر نهضـة حقيقية فى الأدب والشعر والصحافة والخطابة ، وقـدم نماذج من الرجال أروع من أية صـورة تصورها رواية حتى وان كان هدفها المدح ، ولم يكن الهدف الذى قصـد اليه حجازى من تصوير فترة الحركة الدستورية فى ايران هذا التصوير المزرى .

اننا مهما جاهـدنا لنجد فى الرواية شخصـية واحـدة تستحق الاحترام لا نجد ، وكأن الكاتب عمد الى تقديم كل ما هو مشوه وغليظ وناب ، وكل شخصـيات الرواية باستثناء حسين خان وزيبـا ولدت كما هى لم نشهد لها أى نوع من التطور خـلال هـذه السـنوات الطويلة التى تعبر عنها الرواية ، والشخصيات التى يحاول أن يقدمها مثلا للطهر والاخلاص يقدمها فى الوقت نفسه مثلا للسذاجة والحمق « برويز ومصطفى » .

وبعض الحوادث لا تقل حـالة عن الشخصـيات ، منهـا تلك المطاردات التى تدور بالجملة فى شـوارع طهران والشخصيات التى تظهر لتؤدى مشهدا واحدا ثم تختفى كشخصـيات ألف ليلة وليلة ، وما يدور وراء الجدران والبراقع أسوأ مما يمكن أن يصدقه عقل ، وكثير من الأحداث فى الرواية لم يخدم خط سيرها ، بل أسـاء الى وحدتها اساءة بالغة وجعل الرواية فى هـذا الحجم مع أن المفروض أنها تكتب من الذاكرة ومن سجين للمدعى العام ، فكيف للراوى بهذه الذاكرة الحديـدية التى لا تزال تتذكر الحوار الطويـل والخطب العصـماء ودروس الفلسفـة والحضـارة المنقولة نقـلا من الكتب والمراجـع ؟

ولا يقل عن ذلك اساءة الى بناء الرواية تلك اللغة الفخمة الجزلة التى كتبت فيها . فلغة الذى تعلم فى المدارس الدينية هى هى لغة السوقى والوزير والمرأة التى لم تخرج من منزلها والطهرانى والريفى والخراسانى والذى ينتسب الى عشائر اللور ، وهلم جرا .

ومع ذلك تبقى القيمة الحقيقية للرواية فى أنها قدمت جانبا كبيرا من الحياة الادارية فى ايران كما قدمت صورة عامة للحالة السياسية فى ايران فى الربع الأول من القرن الحالى على لسان انسان عاش فى خضمها وخبرها عن قرب وان خانته الأمانة فى كثير من المواضع وهذه رؤيته الفنية على كل حال ، وتبقى بعض الصفحات القليلة الخالدة التى يصف فيها الحياة داخل الادارات الحكومية ، والتى يصف فيها كيف تتجمع مظاهرة وكيف تنفض .

ولقد حاول المؤلف فى بناء الرواية أن يستفيد من مدارس الرواية الحديثة ولكنه لم يكن موفقا فى صنعة التركيز النفسى ، وحاول أن يثير بعض الرموز عن طريق صنعة الأحلام ، الا أنها كانت مصطنعة واضحة الاصطناع وهو فى روايته الابن المخلص للمدرسة الرومانسية الفرنسية ، كل أبطاله مهما كانت طموحاتهم يتعذبون من الحب ، وكلهم يسقطون صرعى ومرضى عند أول مشكلة تصادفهم ، وكل شيوخه فاسقون ، وكل نسائه مستعدات للخيانة بشرط ألا يكتشف أمرهن وهذا التعميم فى سمات الشخصية يصدق على كل أبطاله .

أكان من الممكن بالفعل أن يقدم المؤلف جزءا ثانيا ؟ أشك فى ذلك ، بهذه الروح التى شرح بها العهد الدستورى على عظمته لايمكن أن يشرح العهد التالى والا انطبق عليه المثل الفارسى « أكل الملح وكسر المملحة » ، ولم يكن كسر المملحة فى ذلك العهد بالذى تؤمن عواقبه .

٣ ــ دار المجانين

سيد محمد على جمالزاده

ولد سيد محمد على جمالزاده فى أواخر القرن الماضى ، وكان والده سيد جمال الدين الأصفهانى واحدا من أبطال الحركة الدستورية ، ومات مسموما فى السجن وبدأ جمالزاده كفاحه السياسى منذ مستهل شبابه حيث اشترك مع القوميين الايرانيين فى برلين أثناء الحرب الأولى وبعدها ، كما اشترك فى اصدار الجريدة القومية « كاوه » فى برلين ، وارتبط بألمانيا معظم حياته ، ولم يعد الى ايران الا لماما وزائرا . وكان آخر منصب شغله هو رئيس منظمة العمل الدولية واستاذ الأدب الفارسى فى جامعة جنيف ، ولايزال يعيش فى جنيف بمد المجلات الأدبية الايرانية بمقالاته الأدبية ودراساته العديدة .

فجر محمد على جمالزاده ثورة فى كتابة القصة باصداره مجموعة « كان يا ما كان » سنة ١٩٢١ فاستعمل الصياغة الأوربية واللغة العامية الفارسية ، واضطرته الضجة التى احدثتها الى الصمت عشرين عاما . ولما عاد الى الكتابة كان مزيجا من الروائى القصاص والدارس الأدبى ، وكان يود لو يمد جسرا بين ماضى ايران الأدبى وحاضرها .

ومنذ عاود الكتابة أصدر عددا من الروايات هى : دار

المجانين ١٩٤٢ ، وقلتنس دبوان ١٩٤٦ وصحراء القيامة ١٩٤٧ وكتاب مجرى المـاء ١٩٤٨ ، وكل شيء عن منال ١٩٥٦ ، وعددا من المجموعات القصصية القصيرة : سيرة العم حسين ١٩٤٢ والمر والحلو ١٩٥٦ ، والقديم والجديد ١٩٥٩ ولا اله الا الله ١٩٦٠ .

وله دراسات عديدة يضيق المجال عن ذكرها ، وفي رواياته وأعماله القصصية كما سنرى يخلط بين الروائي والدارس ، وبين النثر والشعر ، وبالرغم من انه عاش طيلة حياته بعيدا عن ايران فان لغته سلسة سهلة حافلة بالمصطلحات العامية . وهو أيضا واضع قاموس رائد للمصطلحات الشعبيه الايرانيــة .

***

كيف يستطيع الانسان الحياة في مجتمع هذا شأنه ؟ من فساد اداري الى ضغط سـياسي الى ارهاب فكري ؟ يجيب المؤلف على هذا السؤال في هذه الرواية . حقيقة أن المؤلف لم يذكر كلمـة واحدة من هذه الكلمات ، لكنه مع ذلك أشار اليها في ثنايا روايته مما لا يترك مجالا للشك ، لقد جعل العالم دارا كبيرة للمجانين تضم بين جدرانها مجانين من كل صنف : مجانين الاضطهاد ومجـانين الحساسية المفرطة ، ومجانين الخيال العقيم الذي يصطدم بالواقع المر ومجـانين الثقافة . ولولا أن للرواية بطلا جامعا يقص الرواية على لسانه لا نفرط عقدها ، ولقلنا انها مجموعة من الصـور المتحركة التي لا يجمعها الا هذا البطل الذي يربط بين مصـائر أبطـالها . ومـع ذلك فان هـذا البطـل الذي يمسك بكل خيوط الرواية ، والذي يتحدث بلسان المؤلف هو الذي أبعد الروايـة عن الجو التقليدي ، فهو يتحـدث فيستفيض في الحديث ، ويحلل فيشطح في التحليـل . وقد جعـل جمالزاده معظم أبطاله مثقفين فصار في حل من أن يذكر على ألسنتهم مدارس التحليل النفسي المختلفة والفلسفات والأشـعار الصـوفية الفارسية المتنوعة ، وأصاب أبطاله غير المثقفين بالخرس ، فلم ينطقوا بحرف واحد طوال الرواية ، وانما ظلوا مجـال تحليل وتعليق من جانب الأبطال المثقفين طوال الرواية .

وبالرغم من ذلك فان الروايــة جديرة بالتقديم وذلك لروحهــا المرحة الفكهــة التى لا تخفى على القارىء بالرغم من جوهــا القاتم الشديد السواد الذى يشد الدمعة من العيون • فقد برع جمالزاده فى أن يقدم سخرية ســوداء يحس الانسان من خلال ضحكاته بما يشبه وخز الابر ، وهى جديرة بالتقديم لأنها تقدم جمالزاده الذى عاش طوال حياته فى شد وجذب بين الروائى والدارس فلا يحس الانسان فى روايته بروح الروائى الصرف أو الدارس الصرف ، ويرى بعضهم أن جمالزاده انما فعل ذلك لأنه كان يريد أن يقدم الأدب الفارسى القديم فى صورة عصرية ناسين أن جمالزاده عاش معظم حياته فى بيئة أدب ألمــانى ، وأن توماس مان وهيرمان هسه كانا يقيمان كل رواياتهما على دراسات أو ما يشبه الدراســات ، ولكتابات جمالزاده هــذه الحسنة وهى أنه يعيد الى الأذهان ذكرى أدباء الفرس العظــام حافظ والمولوى وسعدى •

وبالرغم من أن جمالزاده عاش كل حياته خارج ايران الا أنه فى كتاباته يمثل الشخصــية الايرانية خير تمثيــل فهو مرح فكه ساخر تساعده لغة شديدة الغنى بالمصطلحات الساخرة والتعبيرات الأدبيــة الرائعة فاستطاع من خلال استعمالها أن يوفق بين القــديم والجديد فبينما نلتقى مع بيت لسعدى أو حافظ نعود فنلتقى بتعبير مأخوذ من لغة العوام نقف أمامه طويلا ، ثم نضطر فى النهاية الى استعمال قاموسه الذى خصصه للمصطلحات العامية •

هناك ميزة أخرى لجمالزاده وهى أن ايران التى يصفها ليست ايران كما هى موجودة حاليا بل هى ايران بواكير القرن العشرين عندما تركهــا ، ولذلك فهو فى رأى : كاتب يعيش وراء عصره ؛ كمــا أن جمالزاده يتميز بميزة أخرى قليلا ما نصادفها فى غيره من الأدباء وهى أنه من ذلك الصنف من الكتــاب الذى يستطيع أن يرفع الحــائط

الوهمى بينه وبين القارىء ؛ فاذا به يحس أنه يجلس الى أحد يقص عليه فى سهولة ويسر ، فى مقهى أو فى منتدى أو عن طريق خطابات متبادلة .

***

هناك مقدمة للرواية وهذه المقدمة من خصائص الرواية الفارسية المعاصرة ، ربما لأن الكاتب يريد أن يوحى بجو من الواقعية على أساس أن الكتاب الفرس فهموا الواقعية على أنها الشىء الذى وقع أو حدث بالفعل . فاذا الكاتب فى زيارة لطهران يجلس فى سوق صناع الصفيح مع أحد أصدقاء والده ، وتأتى امرأة عجوز تعرض بعض الكتب للبيع (ومعظم مكتبات طهران القديمة تقع فى هذا السوق) وحين يشترى منها الكاتب بعض الكتب ولا تجد نقودا صغيرة تعطيه بقية حسابه تعطيه بعض الأوراق ، وتمر السنون ويفتح الكاتب هذه الأوراق فاذا بها مكتوبة بخط اليد فيقرأها ولا يريد أن يحرم الآخرين من هذا الكنز وتبدأ الرواية .

نبدأ فى الجزء الأول من دار المجانين الذى يقصه البطل على لسانه ، ويريد المؤلف فى البداية أن يزج بنا فى تيار الحياة الواسع بعيدا عن دار المجانين لنجد أن لكل انسان فى هذه الحياة اهتمامات تصل الى درجة الجنون تنبع من تلك الاهتمامات الصغيرة التى تنشأ فى قلب الانسان ، ثم تطغى على ما سواها وتسلمه بالفعل الى دار المجانين بينما ينعم سواه باهتماماته التى يراها البعض شيئا طبيعيا للغاية .

فى هذا القسم نصادف نماذج عديدة من شخصيات الحياة الايرانية فى ذلك العصر .

والراوى واسمه محمود يقص حياته منذ الطفولة حيث ماتت أمه

عند وضعه ، ونشأ فى كنف والد يجمع كل المتناقضات فهو على حد تعبير ولده « متدين عاص وفاسق عابد » انه يبكى فى الصلاة خشوعا ثم يجلس الى شرابه حتى الفجر ، أنه مثال الرجل الشرقى الذى يستطيع ببساطة وتنسيق أن يحيا حياتين ، فى النهاية يفلس الوالد وينتحر ويترك محمودا وحيدا فى الحياة الا من عم كان على طرف النقيض •

ان العم صورة من الصور الأدبية التى صادفتنا طويلا منذ أصبح هناك أدب وكتابة ، انه نموذج من نماذج البخل عند الجاحظ ، لم يكن « الا آلة دقيقة لجمع المال » وهو فى نفس الوقت مراء لا يترك فرصة تمر الا ذم فيها البخل والبخلاء • ويمرض العم ويذهب البطل طالب الطب لعيادته ، فيجده لا يريد أن يستدعى طبيبا • ويثور الفتى ، وتطول المناقشة بينه وبين عمه ، مناقشة جاحظية بين فضائل البخل وفضائل السخاء ، ان الشاب فى واد والعم فى واد آخر ، ذاك يحتج بالشعر وهذا يحتج بالحياة ، ان كل ما كتبه الكتاب والشعراء فى مدح الكرم محض هراء ، ان سينكا كتب كتابا فى مدح الفقر وهو يجلس الى منضدة من ذهب ، المهم أن المناقشة تنتهى بأن ترجو بلقيس ابنة الرجل ابن عمها أن ينهى المناقشة رحمة بالرجل المريض •

تأتى الزيارة بنتيجتين متناقضتين : الأولى احتقاره لعمه واحتقار عمه له فى نفس الوقت ، والثانية وقوعه فى حب بنت عمه من النظرة الأولى ، انه لم يسمع الا صوتها ، ولم ير منها الا عينيها الا أن ذلك كان فيه الكفاية للشاب المتعطش للحب ، ويظل ساهرا طوال الليل ينمق أبياتا من الشعر ، ويصحو من نومه المتقطع فيذهب الى ميرزا عبد الحميد وهو القائم بأعمال عمه ، وزوجته هى التى أرضعته وهو طفل بعد وفاة أمه وولده « رحيم » صديقه ومن نفس سنه وزميله فى الدراسة •

وبلقائنا برحيم نلتقى بأول المجانين الحقيقيين فى الروايـة • ان رحيم لا هم له فى الدنيا الا شيء واحد يشغل عليه فكره ليل نهـار وهو الأرقام ، ان غرامه بالعدد يقطع السبل أمام أى غرام آخر ، انه خليفة فضل الله الحروفى الذى عاش فى القرن الثامن الذى كان يرى فى الأعداد أسرارا ، وهو خليفة محمود النقطوى فى القرن التاسع الذى كتب رسائل عديدة فى أسرار الأرقام ، وهو لا يفتأ يحدث محمودا عن أسرار الأعداد بتخريجات تكاد تخرجه عن طوره •ان محمودا يرى أنه فى سبيله الى الجنون ان لم يكن قد جن بالفعل ، الا أن رحيم لا يرى شيئا من ذلك ، ان غرامه بالعدد « واحـد » غرام خالد يستطيع فى سبيله أن يضحى بكل غرام • كان محمود يهرب من رحيم الا أنه كان مضطرا لزيـارة أسرته لأنه كان يجد عندها السلوى ، ولا يكاد يخبر صديقه بسره حتى يلجـأ صاحبنا الى الأعـداد ، ان اسـم محمود بالأعداد مشؤوم واسم بلقيس هو الآخر مشؤوم ، اذن فلن يتم الأمر، ولا يجد محمود بدا من أن يلجـأ الى أم صـديقه ليهرب من رحيم وأعداده التى أنهت الموضوع دون أن يخطو فيه قدما •

يقدم لنا شخصية أم هـذا الصديق « سمينة مفرطة فى السمنة الى ما شاء الله أبرز صفاتهـا الكلام الكثير والسمع القليل ، واذا أضفت الى ذلك عبادة الأوهـام والخرافات فسوف تصل الى سحنة شاه باجى بلا زيارة أو نقصـان » وتسوق السيدة خطبة عصـماء فى فضائل المحبوبة لا تزيد محمودا الا ولعا تردفها بخطبة أخرى فى فضائله هو لتصـل فى النهاية انه ان وجد اثنان جديران ببعضهما بعضا فى الدنيا فهما محمود وبلقيس ولكن ما أن يعود الى المنزل حتى يعلم الخبر السيء : لقد شفى عمه ولم يعد هنـاك مبرر للزيارة وبعد أن يبل من مرضـه يعلم أنه سقط فى غيبوبة ثلاثة أيام وأن محبوبة القلب هى التى كانت تمرضـه • لقد عرف محمود أن ابنة عمه تحبه ولكن ماذا عن العم الذى يود زواجها لآخر ؟

تصف لنا شاه باجى هــذا الخطيب بكل نقيصــه ، ان « نور جشم نعيم التجار » وهــذا اسمه لا ميزة فيه الا أنه وارث والده . وهو لا أهل له ولا حسب ولا نسب ، وهو فى حاجة الى برذعة وليس الى امرأة . وهو جدير ببغايا « چاله سيلابى » حى الدعارة فى طهران وليس ببلقيس ، وهو جلف لو لعقت من قفاه سبعة كلاب لشبعت ، وقد خاف عليه والده من البغايا فأرسله الى باريس للدراســة ، ولمـا انقطعت أخباره ذهب لزيارته ، وبينما هما يسيران معا فى شــوارع باريس لفت نظر الرجل مبنى كبير فسأل ابنه عنه فعجز عن الجواب فلما سأل الشرطى المكلف بالحراســة علم أنه مبنى مدرسة التجارة الذى من المفروض أن ولده يتعلم فيه من ســنوات ، فجره من قفاه وعاد به الى طهران . ولا يجد محمود بدا من ارسال خطاب الى ابنــة عمه ، ولكنه كان القشة التى قصمت ظهر البعير فقد سقط فى يد عمه ليحول بينه وبين محبوبته الى الأبد .

ويخرج محمود فيقيم عند أحد أصدقائه عشرة أيام ثم يذهب الى رحيم فيجد جنون الأرقام قد تمكن منه ، انه يصرخ طالبا النجــدة لأن رقم الاثنين يهاجمه ويغطى جدران حجرته بأبيات من الشــعر الفارسى تمدح الواحــد وتذم الاثنين ، ليس الواحد الذى يمدحــه العارفون بل الواحد الرقم الذى يرى أنه منشأ العالم وأن كل ما فى العالم من شرور نابع من رقم الاثنين ، ولا تلبث علامات الجنون الى أن تظهر على رحيم بوضوح فتجحظ عيناه ويتقوس فمه ويرتعد ويسرع الى والدته ، لكنها لا تريد أن تحضر الطبيب الى ولدها .

ان الأطباء فى رأيها رسل عزرائيل ، ان برحيم مسا من الجن ، وليلة الجمعــة ان شاء الله يأتى العارفون بالأمور فيخرجون الجنى من جسد ولدها ، ولن يدخل الطبيب البيت الا على جثتها ، لقد أطفأ ولدها سيجارته فى صــدر أحد أطفال الجن . ويسرع محمود الى والد صديقه فى منزل عمه فيشكو الرجل من أن العم لا يترك له لحظة

يتنفس ، وحين يدخل محمود حجرته يجد بلقيس قد كتبت الحرفين الأولين من اسميهما على الجدران فيعتريه الحزن ويسرع الى صديقه الذى استضافه ، أجل ان الحل عنده ، فهو طبيب فى الأمراض العصبية وليحمله لعيادة رحيم •

حين يذهب الى صديقه يجده يعانى جنونا من نوع آخر ، انه يشعل موقد الكيروسين فى حجرته رغم شدة حرارة الجو ، فهذا الصوت يذكره بصوت الموج الذى يعشقه تماما وهو لا يملك من المال ما يمكنه من الحياة الى جوار الشاطىء ، والطبيب يعترف ببساطة أن ذلك نوع من الجنون : « وفى هذا العالم يوجد عند كل انسان نوع من الجنون ، فليس فى مقدور كل انسان أن يحيا كما يهوى ، وليس فى مقدور أى انسان أو معظم الناس على الأقل أن يسيطر على رغبته المجنونة فى أى شىء ، ان العثور بشىء ما يبدأ فى الانسان دون أن يحس ويأتى الوقت الذى يرى نفسه فيه منقادا اليه ، لا يرى حوله أحدا ولا ما يسميه الناس بالتقاليد العقلية ، أن يفعل ما يراه موافقا لميله دون أن يهتم بأن يعتبره الناس مجنونا ، انه يبدأ باللامبالاة • والجنون مثل العقل هبة من هبات الله ، وفى نفس الوقت الذى يعبر فيه الانسان دائرة العقل ويضع قدمه فى وادى الجنون ، يفقد الارادة ، ويتحرر من قيود الخوف والتدبير والتردد والاستدلال والأوهام التى تكبل أيدينا وأقدامنا ــ نحن العقلاء وتصيبنا بالعجز الكلى » •

يذهب الطبيب وهذا شأنه لعيادة رحيم ، ويحدثه عن الأرقام ويتسلل الى دائرة اهتمامه ، ان رحيم يصاب بنوبة الجنون فى حضور الطبيب ، ويشخصه الطبيب بأنه جنون الاضطهاد ، ويقيد رحيم بالأغلال ويساق الى دار المجانين •

هكذا ينتهى الجزء الأول من الرواية بهذه السخرية المرة ، ان

الطبيب الذى ساق رحيم الى الدار لا يقل عنه جنونا • تسرع أم رحيم الى الدار ضاربة كل من تلقاه ، ويبتسم الجميع ، ليس من المستبعد اذن أن يكون مجنونا وله مثل هــذه الأم ، وتمنع من زيارته ولا يكون هنــاك الا محمود يأخذ على عاتقه هــذه المهمــة ، لكى يقترب من المجانين ويقترب من مصيره فى الوقت نفسه •

انتهى اذن هذا الجزء من الرواية ، وقد علمنا أن من هم خارج أســوار دار المجانين ليسوا بأقل جنونا ممن هم فى داخلها • فهم عبدة المــال وعبدة الشهوة وعبدة الأوهــام والخرافات ، والذين تمزقهم متناقضات الحياة فلا يجدون بدا من أن تشرد عقولهم هنا وهنــاك فيفكرون فى ألف موضــوع ويحبون دون سبب ، ويبغضون أيضــا دون سبب ، وفى النهاية نفاجأ بأن واحدا فقط هو الذى سيق الى الدار لأنه مال الى شىء لم يتعارف عليه الناس ولأنه لم يحتفظ بهذا الميل لنفســه ، وتبلغ السخرية قمتهــا حين يكون الطبيب هو الآخر مجنونا ، ومن أمثال هــذا الطبيب سنلتقى فيما بعد بالكثير ، الا أنهم يفلحون فى اقامة هــذه الموازنة المطلوبة بين داخلهم وخارجهم •

صدرت هذه الرواية لأول مرة فى ايران سنة ١٩٤٢ ، وهى أول رواية لجمالزاده بعد فترة الصمت ولكنى أشك فى أنهــا كتبت قبل نشرها بفترة طويلة ، ولم تكن الظروف تسمح بنشرها الا فى هــذا التاريخ ، وقبلها كتب هدايت البومة العمياء فتحدث عن ايران كمقبرة للأفكار ، ولم تنشر الرواية الا ســنة ١٩٤٢ مع أن الثابت أنه كتبها فى الثلاثينات وطبعها فى عدد صغير جدا من النسخ فى بومباى ، أيكون جمالزاده قد هدف الى الحديث عن ايران كدار كبيرة للمجــانين فى تلك السنوات التى كان من المستحيل للبومة العمياء أو دار المجانين أن يطبعا فى ايران ؟

***

عن طريق عيادة رحيم يتعرف الراوى الى عدد آخر من المجانين :
الأول شاب من أهل سبزوار اسـمه روح الله • كان روح الله يشتغل حلاجا ، ومنذ عدة شـهور جاء الى طهران ماشيا وقوسه فى يده ، واستمر يتسكع فى شوارع العاصمة ، وكلما صادف سحابة فى السماء ظنها قطعة قطن وطفق يحلجها • ولمـا استمر على هذه الحـال دون طعام أودعوه دار المجانين ، لم يكن لروح الله فى مقره الأخير من شاغل الا حلج السحب ، ثم يقعى فى ركن يصلح قوسـه ، ويترنم بأغنيـة شعبية • لم يسفر المؤلف عن السبب فى سر جنون روح الله ، الا أنه لا يخفى على أذهاننا ، أن روح الله عامل مسكين يعتمد فى كسب رزقه على عمل يده ، ولعل الصناعة صادفت سبزوار فكسد عمله ، فقدم الى طهران ، الا أن الأمر لم يكن أفضـل • وفى النهايـة أدرك أنه يعيش فى عصر غير عصره ففقد عقله •

أما المجنون الثانى الذى يتعرف اليه الراوى فكان من كبـار الملاك ، اجتاح سيل عرم أملاكه فقضى عليها وقضى على أسرته ، ونجا هو بمعجزة ففقد عقله • انه يجلس طوال اليوم القرفصـاء يمسـك بدفاتره ويحاسب عماله العديدين القائمين على ضياعه ، وكل من يمر به يظنه من هؤلاء العمـال فيخاطبه من طرف أنفه ، ويسبه مذكرا اياه بماضيه أيام كان جائعا عاريا وكيف انتشله من الفقر والجوع وأعطاه عملا وقوتا ودارا وعقارا فى احدى قراه ، ومن ثم أطلق عليه القائمون بأمر الدار لقب « أرباب » وهو اللقب الذى يخـاطب به العمـال والفلاحون فى ايران أصحاب العمل أو كبار الملاك •

والشخصية الثالثة التى نلتقى بها مع محمود فى المستشفى كانت ذات أثر كبير عليه ، انها ليست من أهم شخصيات الرواية فحسب ، بل من أهم شخصيات الأدب الفارسى الحقيقية ، وهـذه التورية الصارخة لا تخفى على انسان قرأ لهذا الأديب ، والراوى ولنقل ان المؤلف يرمز

اليه باسم هو أقرب الى التصريح ، ومن يكون هدايتعليخان الا الأديب العظيم الراحل صــادق هدايت « ١٩٠٣ ــ ١٩٥١ » • يلتقى الراوى به فى دار المجانين ، شابا فى الثانية أو الثالثة والثلاثين من عمره من أسرة كبيرة ، لكنه أصيب بالجنون من كثرة قراءاته والأبحاث التى قام بها ، وهو لا يغادر فراشــه ويسمى فى دار المجانين « مسيو » ويصف الراوى الشخصية بصفات تنطبق جسديا على هدايت العظيم ، أما أقواله ومعتقداته فهى فقرات من مؤلفات هدايت ينقلها جمالزاده كما هى ويضعها بين الأقواس ، بل ويطلق عليه اسم أشهر أعمــاله « بوف كور أى البومة العمياء » (انظر الترجمة العربية لها لكاتب هذه السطورة هيئة الكتاب ١٩٧٦) •

لقد تعلم هدايتعليخان فى أوربا ، لكنــه عشق هنــاك نموذجا مما تعرض له الثيــاب وأحضره معه من أوربا « من أحداث قصــة الأراجوز لهدايت » (انظر قصص من الأدب الفارسى المعــاصر تأليف صادق هدايت ترجمة كاتب هذه السطور هيئة الكتــاب ١٩٧٥) • وبعد أن فقد أهله الأمل فيه أودعوه دار المجانين ، ولكنه ذات يوم رأى مجنونا يخرج أمعاءه ويعبث بها « أحداث قصة ثلاث قطرات من الدم » ، فخرج من المستشفى ، ولكى يعالجه أهله خطبوا له فتــاة من أسرة محترمة ، ويزف اليها ثم يطلقها ، وبعدها يجد فتاة تشبهها فيحملها الى منزله ويقتلها ، ويدفنها فى جبانة الشاه عبد العظيم ويجد زهرية رازية أثناء الحفر عليها صورة الفتاة « أحداث رواية البومة العمياء » فتزداد حالته سوءا ويعود الى دار المجانين •

كل هذه الأحداث التى سمعها الراوى عن مسيو تثير رغبته فى التعرف اليه ، فيتقرب اليه • وبعد فترة تتوطد العلاقة بينهما ، ان مسيو حسن الحديث ، لكنه يخرج عن طوره ان ذكر انسان كلمــة واحدة عن مدرســة الأدب القديم ، ان كل أقوال مسيو فى الرواية

منقولة من أعمال هدايت • ومسيو مصاب بجنون من نوع خاص هو جنون « خدمة المجتمع » ، انه يكتب ولكنه لا يريد لأحد أن يقرأ ما يكتب ، انه يكتب لخياله « قصة البومة العمياء » • وهو يسلم محمود بعض أعماله ليقرأها فى المنزل ، فهو نفسه لا صبر له على قراءاتها ويأخذها محمود ويقرأها « كلها مقتطفات من أعمال هدايت »•

استمر محمود فى قراءة هذه الأوراق طيلة أسبوعين نسى الدنيا خلالها ، وحين انتهى كتب خطابا الى بلقيس سلمه الى شاه باجى ثم أسرع الى المستشفى ، لم يستطع أن يخرج رحيم عن هذيانه ، فأسرع الى مسيو ، وحاول أن يناقشه حول لغته وافتقارها الى قواعد النحو ، الا أن مسيو يسخر من كل قاعدة ، ان القرآن نزل قبل أن تنزل قواعد النحو وعظماء الأدب الفارسى لم يكن لهم شأن بكل هذه التقعرات التى تسمى « النحو » •

ويعود محمود الى المنزل فيجد صديقه الطبيب فى سبيله الى الرحيل ، انه لم يعد يطيق الابتعاد عن البحر ، انه سوف يغيب ثلاثة شهور دفع ايجارها مقدما • ويبقى محمود وحيدا مع مكتبة الطبيب وكلها فى الأمراض العصبية ، فيبدأ القراءة ، ويوما بعد يوم تشده حياة المجانين ، انه معجب بتجردهم وغيبوبتهم عن كل ما فى العالم ، وماذا فى العالم ؟ حبه اليائس لبلقيس أم عناد أبيها الذى يريد أن يبيعها بيع السائمة ؟ ، ان محمودا مأخوذ بجماع نفسه الى عالم الجنون ، ان الدنيا لم تعد فى نظره الا دارا كبيرة للمجانين وأعقل من فيها هم الذين داخل الأسوار بالفعل •

ويذهب محمود لزيارة مسيو ، فلم يعد يستريح فى الحديث الى أحد الا اليه • ويحدثه عن الكتاب ، فاذا بمسيو يعلم كل شىء عن الكتاب وعن مؤلفه ، انه يعجب أشد العجب كيف أن محمودا لايزال

يشك فى أن العقل عقال بالفعل ؟ وأن السعادة كل السعادة فى الجنون ، ان مسيو يحـاول أن يقنع محمودا بأن السـعادة فى الجنون والعقل هباء ، أليست السعادة هى أن يتعلق قلب المرء بوهم يسرع فى أثره ؟

لقد سبق المجانين العقلاء فى هـذا المجال بمراحل ، هـذا عن الدنيا فما بالك بسعادة الآخرة أليس أكثر أهل الجنـة البله ؟ وألم يعد المسيح البلهاء بملكوت السماء ، وأليس المجانين هم الذين يمنعون الناس لأنه لا خير هناك الا وهو ممزوج بشر ؟ أليس الايمان هو أن يسلم الانسـان نفسـه لله وهو مغمض العينين ؟ وهـل كان العباقرة والمصلحون من المجانين ؟ لا جدال ، أليست العبقرية على كل حـال ضربا من الجنون ؟ ألم يقل ديدرو « ما أقرب الجنون الى العبقرية » ؟ دعنا من الغرب ، ألم يقل الصـوفى سـهل التسترى « الدنيـا دار المرضى والناس فيها مجانين » ؟ وفى النهاية يغرى مسيو محمودا بأنه من الخير له أن يجن ، ولم يكن يعلم أن الفكرة تداعب محمودا منذ زمـن .

كانت هذه المناقشات تدفع محمودا الى التفكير فى أحواله ليل نهار ، حتى شاه باجى التى أفقدتها المصائب شحمها ولحمها كانت تنظر الى عينيه فتلمح فيهما بريقا غريبا ، انها تمنيه الأمانى لكنه بات يرى وجوده وعدمه فى الدنيا سـواء ، ويفكر فى أحواله فلا يجد فرجـة واحدة من أمل ، ويستعيد مصائب حياته ، انه بات يخاف من كل شىء، لم يعد يصلح لعمل لأنه يخاف القانون « أتكون هذه البداية الحقيقية للجنون ، انه لا يأمل فى شىء فماذا لو تظاهر بالجنون ؟ لن يكتشف أحد الأمر ، لقد كان أبوه مصابا بنوع من الصرع ، وهناك أنواع من الجنون قرأ عنها مناسبة له تماما ، ليست من النوع الخطر الذى قد يؤدى الى عواقب لا تحمد عقباها .

بدأ محمود فى التظـاهر بالجنون ، لقد أصبح الآن محمـود

الغزنوى فاتح الهند ، وعلم الخادم بهرام أن يطيعه ويجهز أسباب الرحلة الى الهند والا أمر به فألقى تحت أقدام الفيلة ، وهو يقوم ببعض الألاعيب ، انه يوصى الباعة بأن يأتوا ببعض البضائع الى المنزل فاذا أحضروها سخر منهم وأنكر طلبه لأى شىء ، وهو يكتب خطابا لمدير دار المجانين يوصيه شرا بمسيو ، وخطابا الى ميرزا عبد الحميد يوصبه فيه بشر الأمور بعمه وبنعيم التجار • وفى النهاية يذهب الى البوليس ، ومنه الى دار المجانين •

نال محمود ما تمنى ؛ فى اليوم الأول لم يخرج من حجرته بل انشغل بشاهدة رفيقه المفلس السعيد ، وهو نوروز خان ، انه شديد السرور يتصور أنه يعيش فى جنة الخلد ، كل رجل عنده فى عظمة سليمان ، وكل امرأة فى جمال بلقيس ، وهو يجلس بالساعات فى حديقة المستشفى يتحدث الى الطيور والقطط ، وقد اقتنى بصلة يرى فيها أعظم جوهرة من جواهر العالم ويرى أن الطبق الصفيح الذى يقدم له فيه الطعام هو كأس جمشيد التى يرى الناظر فيها كل مناظر العالم ، وهو يتحدث عن نفسه كأنه فى قوة رستم وفى غنى قارون • الخلاصة أن نوروز خان كان يرى أنه ليس فى الامكان أبدع مما كان •

***

لنر اذن كيف التقى محمود برفاقه المجانين مجنونا مثلهم بعد أن كان يلتقى بهم كزائر أو رفيق ، انه يقضى أوقاته تحت شجرة الرمان فى الحديقة محدقا فى السماء ، لكن شتان بين مجنون بالفعل ومجنون بالهواية ، ان المجانين أنفسهم لا يصدقون ، انه يشكر الله أن تجرد من كل شىء وفرغ لنفسه ، الا أن أشد ما يؤرقه أن يكتشف تصنعه فيطرد من الفردوس الذى وصل اليه بعد لأى • ويلتقى به رحيم أسوأ ما يكون اللقاء ، انه لم يدخل الدار الا ليكون جاسوسا للرقم

« اثنين » اللعين . أما روح الله حلاج السحاب فقد هجر أغنيته المرحة . وأخذ حزن عميق يسكن أعماق عينيه وأخذ يزمزم بأغنية تتحدث عن الغربة والخيبة والفشل وحين التقى بأرباب قام فيه صارخا أكثر من ذى قبل ، ان الجميع يتلقاه ، وكأنما فطن الى اللعبة التى لعبها .

ويفكر محمود فى مسيو ، هو الوحيد الذى سيقوده الى عالم الجنون ، ان محمودا لايزال فى فن الجنون من صغار « الأبدال » بينما مسيو من الأقطاب الأوتاد ، لكنه يخشى من لقاء مسيو فيرجىء اللقاء ، ويزيد من نوبات الاغماء التى يتعسفها تعسفا . وقليلا قليلا يحس أنه ثبت أقدامه فى دار المجانين ولم يعد يخشى أن يشك أحد فيه ، أما مسيو فليس عليه الا أن يبتعد عنه ، انه الوحيد الذى يعلم سره ، لكن مسيو لا يتركه للراحة التى شملته ولداخله الذى بدأ يفتش فيه ، ولمذكراته التى بدأ يكتبها ، انه يوقظه من النوم ذات ليلة ساخرا من سمنته ومن صحته التى تقدمت على جو الدار ، ويوصيه بأن يكف عن التظاهر بالجنون فتلك هى اللعبة التى لعباها سويا ، الا أن محمودا يحاول أن يبتعد عنه ، يدعى كل ما ينفر مسيو ، ولا سيما أنه يكتب شعرا زاخرا بالصنعة البديعية . وفى النهاية يهجم على مسيو ممسكا به من مكان حساس ، تكون النتيجة أن ينقل الى قسم المجانين الخطرين .

ثم نواصل قراءتنا لمذكرات محمود التى صارت أساس الرواية ، وهى الآن بلا تاريخ « لأنه فقد احساسه بالزمن تماما » انه يسخر من فكرة الأيام ، ولم يعد يعرفها الا بيوم الجمعة الذى تزورهم فيه شاه باجى ، فتنظر طويلا فى عينيه وتتعجب من وجوده فى المكان وهو أكثر عقلا من أى عاقل ، فلا يجيب الا ببعض التصرفات التى تحدث

من المجانين بالفعل ، ثم تدمع عيناه حين يرى أى حزن يسببه لها بتصرفاته هذه •

ويبدأ الضيق يتسرب الى محمود فلا يجد بدا من مصادقة مسيو ثانية ، ويخبر مسيو محمودا أن كبير الأطباء فى سبيله الى فقدان عقله بالفعل ، ان الطبيب أخبر مسيو أنه أصبح يضيق بالحديث الى الناس العاديين ، فاذا تعجب محمود قال له مسيو : ان التثاؤب يعدى فما بالك بالجنون ؟ • والأيام تمضى بمحمود ، لم يعد فى الدار ما يثير اهتمامه اللهم الا المناقشات التى يدخل فيها مع مسيو ، ان محمودا يقضى ليلة العيد فى الدعاء فاذا بمسيو يسفه ما يفعل ، ان الله قدر الأمور فى سابق علمه ، فماذا يفيد الدعاء ، ثم ان دعاء الناس متناقض فكيف يتم أن يستجاب دعاء الخير لأحد بينما قد يكون فيه شر لآخر • ومع ذلك ينشغل محمود بالدعاء وبمشاركة « المفلس السعيد » سروره ، ان المعرض الدولى فى أمريكا أرسل فى طلب جواهره ، ولكنه لا يجد وسيلة النقل التى تكفى كل هذه الجواهر وحين يرى محمود الدار تضاء بالشموع يحس بحزن حقيقى ، انه يحس كما لو أنه قد مات وأوقدت هذه الشموع على جثته •

يأتيه مسيو كى يريه مفاجأته ، وخلف شجرة يقفان ويشاهدان جنون مدير الدار وهو جنون من نوع خاص ، ان المدير يتخيل كما لو أن نساء العالم أصبحن محبوبات له ، انه يأتى بزجاجته وكأسين كل ليلة ويجلس تحت الشجرة ، ويخاطب محبوبات الخيال بأرق الألفاظ ويساقيهن ، وينتقل من واحدة الى أخرى « وكأنه ورث حريم السلطان كما يقول مسيو » ان مسيو شامت ، لكن محمودا حزين حزنا شديدا يردد بيتا من الشعر يجرى مجرى الأمثال :

كل ما يفسد يداوى بالملح   يا ويلنا ان فسد الملح

ولم يعد عند محمود بعدها ما يخطه فى يومياته ، ثم يضيق فيلقى

بأوراقه كلها فوق الدولاب ، ولا ندرى بعدها من أين أتى الكاتب بما أكمل به الرواية ؟ لقد آن الأوان لأن يغادر محمود الدار ، لقد توفى العم فجـأة وفرغت له بلقيس وكل ثروتها ، وها هى ترسـل اليه تتعجله الخروج ، ولكن متى كان دخول الحمام كالخروج منه ؟

انه يود لو خرج بحريته ولو تسلل من الدار خارجا كما تسلل اليها داخلا ، لكنه ولأول مرة يكتشف أن للدار بابا ضخما وحارسا فظا وسورا عاليا لو ألقى بنفسه من فوقه لدق عنقه لا محالة ، وينظر فلا يجد فى الطريق الا سكيرا يشكو هموم قلبه بأبيات من الشعر ، فاذا ما بدأ يساعده ، انتابته نوبة قىء تركه بعدها وفرغ لحاله ويذهب الى مسيو يقص عليه الأمر فيسخر الأخير منه ، انه تظاهر بالزهد حتى اذا وصلت الى خياشيمه رائحة الشواء لم يستطع صبرا الى الصباح ، كان ينبغى أن يصبر قليلا فلا يفاجىء المدير هكذا برغبته فى الخروج فاذا واصل محمود الشـكوى ، سخر منه مسيو قائـلا « ان العاقل الحقيقى لا يلقى نفسه أبدا بين المجانين » . ويفاجأ محمود بأن مسيو صلب كتابا على الجدار ، فاذا أبدى عجبه أخبره مسيو أنه تعب كثيرا من الكتاب فلم يجد بدا من عقابه هكذا .

***

تبدأ مرحلة جديدة من حياة محمود فى دار المجانين ، وكأنمـا السعادة التى كانت قد تيسرت له خارج الدار كانت مصحوبة بحوادث داخل الدار زادت من رعبه ومن شقائه ، انه قبل أن يذهب الى المدير فى الصباح يرى بعينيه « المفلس السعيد » وهو يجود بالروح ، لقد ظل يناجى الطيور طوال الليل حتى الفجر فى البرد فأصيب بنزلة برد قضت عليه . ويدخل محمود حجرة المدير ثانية ، ويحدثه المدير كما ينبغى لمدير أن يحدث مريضـا ، ويخرج محمود عن طوره انه يرجو الطبيب أن يختبره فى ما لا يجتمع فى بشر قط ، يخبره أنه ينظم الشعر

ويكتب القصة والمقال يطلب منه أن يسمعه قصائد عويصة عن ظهر قلب ، يطلب منه أنه مستعد لأن يعد له الشهور والأيام والأعوام ، أن يحلل له جسد انسان الى غير ذلك من الأشياء التى تثبت لنا لا للطبيب فحسب أن محمودا قد جن بالفعل • ويصرفه الطبيب بحجة الاستعداد لدفن« المفلس السعيد » ويستشيط محمود غضبا فيمضى الى كل من فى الدار من العقلاء الى المرضين والبستانى والطباخ يسألهم ويستحلفهم بكل عزيز وغال : هل هو مجنون بالفعل فلا يسمع الا مصمصة الشفاه وعبارات من قبيل « حاشا الله » و « استغفر الله » و « من يقول هذا » فلا يجد بدا أن يسرع الى المدير ثانية •

ويواجهه المدير بكل عجرفة وعنجهية ، انه لا ينظر اليه ويسب من فى الدار أولئك الذين يتركون مجنونا يفسد عليه خلوته • ولا يصدق محمود ولا يتحمل ولا يتخيل أن هذا المدير الذى رأى من جنونه ما رأى يعامله هذه المعاملة ، فيواجه المدير بما يعرفه عنه ، فيثور ويسب ويلعن ويستنجد بكل من فى الدار ليبعدوا هذا المجنون عنه •

يبدأ محمود يشك فى أنه مجنون بالفعل ، ويتذكر الكلمات التى نقلها اليه مسيو عن الطبيب أن الجنون لا أصل وله ولا فرع ، ويخاطب نفسه قائلا : يا غافل القلب قد تكون مجنونا بالفعل وأنت لا تدرى ، لكن المجنون الحقيقى لا يدرى أنه مجنون ؟ لم يبق أمامه اذن الا أن يسير فى الطرقات وهو يدق على صدره ، انه يستطيع أن يصبر قليلا ، لكن بلقيس تتعجله بعد أن تحلق حولها الذئاب عندما رأوها وحيدة وذات ثروة ، لم يبق له اذن الا أن يهدد بالانتحار ، فيأمر المدير بنقله الى قسم المجانين الخطرين •

ويرى محمود نفسه فى حجرة هى أشبه بالسجن لا يربطها بالعالم

الخارجى الا كوة صغيرة ، النهار لا يصل اليها ، أما الليالى فحدث عنها ولا حرج ، كانت تسليته الوحيدة أن يسمع أصوات الحمائم وهديلها على السقف المواجه ، فى اليوم التالى عندما تزوره شاه باجى شاتمة فى زبانيته الجدد يقسم لها بكل مرتخص وغال أنه ليس مجنونا ويطلب منها أوراقا وقلما ، فتحضرها وتدخلها له بعد أن ترشو الحارس ، وتنصرف لكن بعد أن تطلب منه الصبر حتى تجد مخرجا وبعد أن يطلب منها ألا تخبر بلقيس بشىء عن سر شقائه . ويأتى اليه مسيو ليحدثه من خلال الكوة ، انه شامت به غير حزين عليه ، ولاشك أن الاقامة الجديدة سوف لا تجعله يفكر بالمرة فى خيانة العالم الذى انتمى اليه ، ويهدد محمود بالانتحار : الا أن مسيو عندما يفرغ مصباحك لن تحتاج الى الانتحار .

يقضى محمود أياما ثقيلة فى السجن ، يشغل نفسه بقراءة التذكارات الشعرية والنثرية التى كتبها من سكنوا الحجرة قبله ويستعرض خلالها جمالزاده محفوظه من شعر الشكوى الفارسى ويفكر فى أن يرفع عريضة الى المسئولين ، لكن من يصدق ؟ ان عليه أن يكتب أحداث حياته كلها ، وفى هذه الحالة من الذى سوف يقرأها عليه اذن وأن يلخصها ، ومسيو يأتى اليه بين الآن والآخر الى الكوة فيحدثه عن مشروعاته ثم يختفى فجأة ولا يعوده بعدها . ويعلم أنه انتحر ، « كانت هذه هى بالفعل نهاية صادق هدايت وبعد ثمان سنوات من صدور الرواية » وفقد محمود الأمل تماما ، وكان قبلها قد فقد الأمل فى بلقيس التى رآها الجميع وحيدة ثرية فالتفوا حولها وكل منهم يدعى حقا فى تركة المرحوم .

وفى النهاية يلتقى محمود بمذكراته ليبثها أن والد صديقه رحيم قد مات وأن أمه قد انقطعت عنه ، أجل لم يعد له من أمل الا أن ينقل الى قسم المجانين الهادئين ولم يعد يثق فى شىء اسمه الحرية انه « يخاف أن تكون الحرية أيضا ومثل كثير من الأشياء الأخرى

ناتجة عن فكر الانسان الخرب الذى يفكر فى المستحيل » • وتنتهى الروايـة •

***

ولا أدرى بعد أن قدمت الروايـة هل نسميها رواية أم نسميها دراسة ؟ هى رواية لأن فيها شخصيات وفيها أحداث ، وهى دراسـة أيضا لأن فيها مناقشات حينا جادة وحينا هازلة وفيها منقول كثير من الأدب الفـارسى الـكلاسى ، لكن فيهـا الى جـانب ذلك التتبـع للتطور الداخلى لدى الشخصيات ونموها ، وفيها أيضا شخصـية مسيو وهى ليست الا دراسة لأدب صادق هدايت • ولننظر الى بطل الرواية ، انه بطل رواية انسانى بكل ما تعنيه الكلمـة ، الا أن تتبع الراوى أو الكاتب لحياتـه يوحى الينا بأنه أراد أن يقدم شخصـية نموذجية لانسان فى سبيله فعلا الى الجنون ، لقد نشأ فى أحضـان أب يجمع كل المتناقضات ، ولمـا انتقل الى عمه اذا بهوة المتناقضات تتسع • ان البطل وهو يقنع نفسه بادعاء الجنون ينظر الى أحواله المـادية المتدهورة ، أجل اننا أمام رواية دراسـية ، رواية اذا نظرنا الى شخصية محمود ، ودراسة اذا نظرنا الى شخصية مسيو •

ويثور سؤال آخر : هـل الرواية ساخرة فكاهيـة كما يحلو لمؤرخى الأدب الفارسى وصفها ؟ الواقع أننا اذا تركنا حوار جمالزاده الساخر وبعض المواقف المضحكة المتناثرة هنا وهنـاك نجد أنفسنا أمام رواية ترجيدية من الطراز الأول ، بل أن بعض المواقف الضاحكة هى التى تثير الدموع وراء ضحكاتنا • أليس مما يثير الحزن أن نجد شابا واسـع الثقافة يفضـل الجنون ويقيم فى دار المجانين بدلا من أن يخرج الى الحياة الواسعة ينتفع بعلمه وينفع به ؟ وأليس مما يثير الحزن طبيب الأمراض العصبية الذى يترك مرضاه ليسرع اثر هوس أو مرض ألم به ؟ وذلك الطبيب الآخر الذى أوكل اليه علاج المجانين

وهو فى الحقيقة أكثر جنونا منهم ؟ وذلك العامل المسكين ألا يثير فينا حلجه للسحاب شيئا من الحزن ؟

ثم : ألا يدور هذا السؤال فى أذهاننا : ما هى الأسباب الحقيقية وراء مرض هؤلاء ؟ لابد أن سببا ما وراء انصراف رحيم الى الأعداد، أليس من الممكن أن يكون ذلك قد ألم به من انشغال والده عنه الى العناية بحساب مخدومه ؟ وانصراف المدير الى مغازلة معشوقات خياليات دليل بلا شك على فقدانه لجانب الحب الحقيقى فى حياته وما أعمق سخرية جمالزاده حين جعل مدير المستشفى مجنونا فالراعى من طينة الرعية ، وما أشدها من لحظة حزن حين نردد مع الراوى بيت الشعر الذى ردده فى هذا المجال :

كل ما يفسد يداوى بالملح يا ويلتنا ان فسد الملح

وفضلا عن ذلك نلاحظ روحا عامة من آثار الضغط الفكرى وجو الاختناق الروحى الذى ساد ايران فى تلك الفترة وما بعدها ، ان جمالزاده الذى ربى فى بيت زعيم لم يترك قضايا أمته على البعد، بل أن اقامته الدائمة فى الخارج من المواقف التى تثير أسئلة عديدة ورفضه الساخر أكثر من مرة لمنصب الوزارة حين عرض عليه ، الا أن الكاتب بالرغم من ذلك هادىء النبرة لا نحس عنده تلك الحدة التى نحسها عند غيره من الكتاب الايرانيين ، ولعل ذلك من تجاربه الطويلة وتبنيه فى فترة مبكرة من حياته لفكرة الاصلاح المرحلى التى بشر بها فى كتابات عديدة .

ولاشك أن قراءات الكاتب فى الآداب الأوروبية قد ظهر أثره واضحا فى هذا العمل ، وقد ذكر رواية الأبله لديستيوفسكى فى ثنايا روايته فلا جدال أنه اطلع عليها ، وواضح تأثيرها فى شخصية محمود ، وأبله ديستيوفسكى لا يحس الانسان بجنونه المطبق الا حينما يبلغ به الاضطهاد مداه .

أما العمل الآخر الذى لا أشك أن الكاتب قد اطلع عليه وان لم يذكر ذلك فى روايته فهو قصة « العنبر رقم ٦ » لأنطون تشيكوف ، فأرباب ليس الا موسى اليهودى الذى أتت النار على دكانه فجن ، والرجل المغرم بالنياشين ليس الا « المفلس السعيد » بشحمه ولحمه، والعلاقة بين مسيو ومحمود تذكرنا بالعلاقة بين أندريه أندريتش وبافيل بافيلوفتش ، وأندريه جن بالفعل فى رأى المجتمع عندما شهد لبافيل المريض نزيل العنبر أنه أوسع ثقافة من كل من قابلوه فى حياته والجو العام لدار المجانين يذكرنا بالجو العام لعنبر رقم ٦ لأنطون تشيكوف .

وفى النهاية تبقى لجمالزاده روحه المستفيضة ذات الجانب الصوفى وسخريته الشرقية البحتة ، وربطه بين الآداب القديمة والحديثة وروح الراوى الذى يرفع الكلفة بينه وبين القارىء ، كل ذلك يجعلنا بالفعل نحس بالروح الايرانية فى الرواية ، هذا الى جوار المصطلحات والتعبيرات الشعبية التى يوردها لا فى الحوار فحسب بل وفى الوصف أيضا .

٤ ـ التنجستانى

صـادق جـوبك

ولد صادق جوبك فى بوشهر فى الجنوب الابرانى سـنة ١٩١٦ وبعد انمام مراحل تعلبمه الأولى فى شيراز ، رحل الى طهران حيث أتم دراســته فى الكلية الأمريكية ، وكان معلوما انه كان تحت رعـاية صادق هداين فى بداية حياته الأدبية ، وهو كاتب قصــة قصيرة من الطراز الأول ، ظهر فى المحيط الأدبى بمجموعتيه : مسرح العرائس ١٩٤٥ والقرد الذى مات صاحبه ١٩٥٠ . وبعض قصصه القصير ترجم الى اللغات الأوربيـــة ، يعد جـوبك الآن طليعة الكتــاب الايرانيين . له أيضــا :

اليوم الأول فى القبر والصــدقه الأخـيرة وهما مجموعتــان من القصص ، وله من الروايات غير التنجستانى حجر الصبر وقد آثارت ضجة عند اصــدارها لغرابة لغتها وموضوعها ويعد جوبك ممن تأثروا بالأدب الأمريكى الروائى المعاصر ، خاصــة أعمال وليم فوكنر وجون شتاينبك وفى تمجيده لبطولة الانسان وهو الميدان الأول للرواية التى بين أيدينا يذكرنا بروائع همينجواى التى يدق فيها كثيرا على هــذا الموضــوع .

لعل القارىء مل حياة طهران وأبطال طهران وقادة طهران واهتماماتهم، ولعله ضاق ذرعا من نساء طهران وألاعيبهن وكيدهن ، ولعله قد تاق مثلى الى الحياة فى ظلال قرية نائية من قرى الجنوب الايرانى ، والى لقاء أناس من لحم ودم ذوى اهتمامات عادية وأفكار عادية وحياة عادية لا تشوبها حمى مرض الرياسة ولا ألاعيب دهاقين السياسة ، اذا كان الأمر كذلك بالفعل ، فانى أقدم له هذه الرواية من روايات المدرسة الحديثة فى ايران رواية « التنجستانى » أى الشخص الذى يعيش أو ينتسب الى منطقة تنجستان من ولايات الجنوب الايرانى ، تلك الولاية النائية التى لعبت دورا كبيرا فى الحركة الوطنية الايرانية خاصة فى القتال الذى شنه أهلها ببنادقهم القديمة ضد الانجليز فى الحرب الأولى .

هذه رواية شكل وليست رواية مضمون . ان أحداث الرواية بالرغم من حجم الرواية (٣٢٠ صفحة) قليلة جدا من الممكن أن نلخصها فى صفحة أو صفحتين ونستريح ، الا أن المؤلف جعل من هذه الحادثة أساسا لكتابة رواية محبوكة الأطراف ، مالئا اياها بالرموز ، محللا ما وراء الحادثة وما بعدها موحيا بأكثر مما تعنيه الحادثة ، كل هذا دون أن يقدم لنا مقدمة ، ودون أن يسوق الخطب ودروس الفلسفة على ألسنة الأبطال أو أبيات الشعر ، وبعد أن تنتهى من قراءة الرواية لا نملك الا أن نفكر : الى ماذا يرمز بطلها ؟ والى ماذا نرمز بقية الأبطال ؟

ان الرواية كلها قائمة على حدث حدث بالفعل ، أصبح من التراث الشعبى فى الجنوب الايرانى ، قصها كاتب آخر فى قصة قصيرة لا تزيد صفحاتها على العشرة ، شاب بسيط نصب عليه بعض أهل المدينة وسلبوا أمواله ، ولما فشل فى استردادها منهم بالحسنى والقانون قتلهم جميعا . اننا أمام جريمة وأمام مطاردات بوليسية ،

وأمام مجرم هارب يمسك علينا أنفاسنا ، ونحن نتابعه فى طريق هروبه ، الا أننا رغم ذلك لسنا بصدد قصة بوليسية تقليدية ، ولسنا أمام جريمة عادية نهز رؤوسنا بعد قراءتها مرددين القول الذى بلى « الجريمة لا تفيد » بل نحس أن بعض ما يسمى جرائم تطهيرا للمجتمع واعلاء لشأن الانسان الذى كرمه الله وخلقه على صورته ونفخ فيه من روحه .

ثم اننا لا نملك أنفسنا من أن نعيد قراءة هذه الرواية أكثر من مرة ، مرة لنتتبع صورها الانسانية العظيمة ونماذجها البشرية التى تخرج الينا من بين السطور ، ومرة لكى ندقق فى الفاظها الموحية الغريبة التى أحس الكاتب بغرابتها فأثبتها فى كشاف فى آخر الرواية ، ومرة لكى نعايش البطل فى سخطه وغضبه ثم فى شفائه لغلبل نفسه ثم وهو مطارد من الشرطة تحيط به قلوب الناس وتتلقفه أذرعهم الحانية بحب وعطف ، ومرة أخرى لكى نستمتع بهذا الحوار العظيم الطبيعى الذى أجراه المؤلف على لسان أبطاله ، وكأنه سجله من أفواههم مباشرة فيدخل قلوبنا مباشرة عاريا من الوشى عاريا من التقعر والفلسفة كاشفا رغم قصره عن بعض جوانب الشخصية وتطوراتها وماضيها ومكوناتها . كل هذا دون أن يتدخل الكاتب بشخصه فكأنه امتزج بموضوع روايته وشخوصها حتى بات واحدا منهم .

***

فى افتتاحية الرواية نجد أنفسنا فى يوم شديد القيظ من أيام رمضان الكريم ، نحس من خلال الأشجار الساكنة والطيور الصامتة والطريق الخالى بهذه الحرارة وهذا السكون ولا نجد بدا من أن نلجأ مع « محمد » بطل الرواية الى ظل شجرة ، ها هو محمد يجلس تحت شجرة قد التصق قميصه بجسده ، فيخلعه ويعصره وينشره بجواره ويجلس بصدره الغزير الشعر غارقا فى أفكاره ، وعن طريق

المونولوج الداخـلى المستخدم بنجاح تام نعرف الكثير عن محمد وعن الشجرة فى صور متداعية لا تأخذ صورة الاعترافات كما تعودنا فى الروايات السابقة ، ان الشجرة تقع فى ميناء « بوشهر » أحد موانىء الجنوب الايرانى ، ومحمد ليس من أهـل الميناء وانما هو من أهالى قرية « دواس » التى تبعد عن المدينة بحوالى سبعة كيلو مترات وهو صاحب دكان لبيع الأرز فى المدينـة • وهو يقطع هـذا الطريق على قدميه فى طريقه ذهابا الى دكانه وايابا الى قريته ، ولكنه لأمر ما عـاد مبكرا عن ذى قبل •

ان ثور احدى أرامل القرية قد انطلق هائجا ، ولا يستطيع أحد الامساك به ، بل انه جرح غلاما حاول ذلك • وها هو ذا بين النخيل يعيث فسادا فى القرية ، وها هو ذا محمد فى جلسته يفكر فى هـذا الأمر ، انه يود لو يسرع الى القرية لكن الحرارة الشديدة لا تساعده، انه ينتقل فى وحدته هـذه من موضوع الى آخر ، من الثور الهائج ، الى الشجرة المباركة التى يجلس تحتها والتى نعلم ذلك من كثرة الخرق المعلقة عليها والأساطير التى نسجت حولها ، انها مسـكونة بالجن • وهو نفسه شاهد مرة عرسـا للجن فيها ، لكنه لا يخـاف ، انه ينذر بينه وبين نفسه لو استرد نقوده التى سلبت منه ، تلك التى جمعها بكده وسعيه ، لو تم الأمر واستردها ، « دستة » من الشمع لهـذه الشجرة •

ومن هنا نعلم أن محمدا قد وقع عليه ظلم ما ، ولكن أى ظلم ؟ وممن ؟ لا ندرى ، وها هو ذا ينهض من جلسته ولا يلبث أن يصـل • الى سبزآباد ، حيث يقع المبنى الذى يسكن فيه الانجليز ، ينظر الى الراية التى ترفرف فوق المبنى ويتعجب ، بعد سنوات من الكفـاح لازال الأمر كما هو ، لو قام قائده « رئيس على » من قبره مـاذا يقول ؟ ثم يتذكر أيام كان هو نفسه يعمل مع الانجليز حدادا ، كم

كانت أياما رغم سوئها سعيدة ، كان خفيفا كريح الشمال لا أهــل ولا ولد ولا هموم ولا أعباء ، ثم يفرغ من أحلامه ويواصــل طريقه ويقف أمام دكان حميه « حاجي محمد » فيجد انجليزيين يبتاعان وينظر اليهما شذرا ، ونفهم من حواره مع خاله أن محمدا ساخط على حميه وهو خاله أيضا . كيف يتعامــل مع الانجليز ونقودهم كلهــا ملوثة بالخمر ولا بركة فيها ، وأيضا فى شهر رمضان ، انه ساخط عليهم ، فكل شيء لهم ، وهو فخور لأنه عندما قام « رئيس على » لقتالهم اشترك معه وقتل ببندقيته الكثيرين منهم ، ويذكره خاله بالنقود التى اكتسبها منهم ، فينكأ عند محمد جرحــا لا يندمل ، ويلقى الضــوء على جانب آخر من جوانب الظلم الذى وقع على محمد ، لقد كسب منهم ألفى « تومان » أعطاهما لامام الجمعة فقرأ عليهما دعاء التحليل وأخذ لنفسه ثلاثمائة ، أما البقية فقد تكاتف بعض الناس على خداعه وأخذوها بحجة استثمارها ، وأنكروها تماما .

وها نحن مع محمد على مشارف قريتــه ببيوتها المصنوعة من ســعف النخيل والحصر ، ويتوقف عند مقبرة القريــة حيث يستوقفه نشيج امرأة تبكى على قبر وهى تعدد محاسن فقيدها « يورد الكاتب بعض النماذج » . ولا يمشى محمد قبل أن يواسى المرأة لكنها تزداد بكاء ، ان صــوته يشبه صوت فقيدها ، ويأخذ محمد بيدها ويقف على المقبرة ، ويفكر فى الموت ، اذا كانت هــذه النهاية فلماذا يظلم الناس بعضهم بعضا ؟ انه يتذكر أعداءه فيقف على المقبرة سابا لاعنا مقسما على انتقام يتحدثعنه الناس ويكتب فى القصص ، والا ما كان من صلب والده ، لكنه يهدأ عندما يرى كلبا يلهث من الحر ، فيحادثه ويلاطفه كأنه انسان : « لقد ضاق قلبى بكل هؤلاء الناس ؟ وددت لو كنت مثلك ، انكم لا تنصبون الحيل لبعضكم ، لو تعلم ما فعله بى « كريم حاج حمزة » كل ما معى من نقود ســلبها . النقود التى

شقيت فى سبيلها عشرين سنة « ثم يقطع قضمة من الكعك الذى حمله لأولاده ويرمى بها الى الكلب قائلا : « كل أيها الحيوان ، انك مستحق بالفعل مثل أطفالى » ويأخذه معه الى منزله •

تتعرف الى منزل محمد ، انه مدهون بالملاط فهو يحسب من منازل الأعيان ، ونلتقى بزوجته « شهرو » وهى تعد طعام الافطار وبينهما حديث حب ، تحاول أن تثنيه عن عملية اصطياد الثور ، الا أنه لا يستمع اليها ، من للأرملة المسكينة صاحبته ؟ ثم هبى نفسك فى مكانها ، انها تطلب منه ان يحمل بندقيته معه احتياطا ، لكنه لا يرضى ، اذا مات الثور فكأنه لم يفعل شيئا ، من أين تتعيش اذن صاحبته المسكينة ؟ وعندما قاربت الشمس المغيب ، كان محمد يسحب الثور الهائج خارجا به من بين النخيل ، بعد موقف يعد من أعظم ما صور فى الأدب الفارسى المعاصر •

أرأيت أيها القارىء الكريم كيف صور الكاتب بطل الرواية وكيف قدمه لنا ، كيف ألقى الضوء على بعض حياته الماضية واحتفظ ببعضها الآخر ليقدمه عندما تستدعى متطلبات الرواية ؟ كيف صور شخصية محمد وجوانبها عن طريق المواقف لا عن طريق السرد ؟ علمنا اذن أن محمدا شهم وشجاع وبسيط ونصير للضعفاء والمظلومين وعرفنا أنه انسان محبوب ، فهل يا ترى نستطيع بعدها حين نلتقى بمحمد القاتل أن ندينه ونحكم عليه ؟ لنتابع الرواية اذن لنرى كيف تحكم علينا منطقية الأحداث ؟

***

ويدخل محمد فى دور الاعداد لجريمته أو انتقامه كما يسميه ، ومن المعهود فى مثل هذه الظروف أن يخفى من يزمع أمرا كهذا سره حتى عن أقرب الناس اليه ، لكن ما بال محمد ؟ ان الظلم الذى حاق به بلغ من شدة وقعه على نفسه أن يتحدث به حتى الى الموتى

والكلاب فهل يكف عن الحديث الى من يهمهم الأمر ؟ انه يطرق باب منزل خاله وحميه بليل ، ويفزع الخال لدخول محمد عليه فى هذه الحالة ، ان الهموم تبدو عليه بصورة أشد رغم الابتسامه الدائمة المرتسمة على وجهه ، انه يلقى بعزمه لخاله دون مقدمات : « يجب أن أقتل الأربعة : كريم حاج حمزة والشيخ أبا تراب وآقا على كجل ومحمد كنده رجب هكذا جميعا » • وتدور مناقشة بين الشيخ والشاب ، يذكره بيوم القيامة • لكن محمدا يعرف يوم القيامة جيدا ، والله أيضا أمر بقطع أيدى اللصوص وعندما يكون اللص شيخا يؤم الناس فى الصلاة فالقتل أوجب • انه يستودع خاله زوجته وأولاده ، وهل دبر محمد لكل أمره ؟ أجل : ان الأمر أمر الله ، وما دام الله يريد ذلك فليكن ، ولكن لم كل هذا العناء ؟ ليس الأمر أمر النقود ، هكذا يرد ، صحيح أنه اكتسبها من خدمة الانجليز ، وصحيح أنه يعيش ، الا أن استهانة اللصوص به وسخريتهم منه فوق أى اعتبار ، حتى الشيخ زور وحكم بالظلم ، وانسان حقير مثل محمد كنده رجب يتلو عليه الأشعار فى غفلة القرويين ، والناس يسخرون منه ، ويضحكون من خلف ظهره ، ليس هناك من شىء يعلو كرامة الانسان وشرفه • فاذا سأله خاله : والأطفال ؟ أجاب : انه يفعل ذلك من أجل أطفاله ، أجل ينبغى أن يربى الانسان أطفاله ، لكن ليس بلا كرامة ، بعدها لن يستطيع أحد أن يمد يده اليهم بظلم ، انه لا يستطيع أن يرفع رأسه أمام أهالى بوشهر ، فكيف سيتحمل أطفاله هذا الذل ؟ كل ما يتبقى منه لأطفاله وزوجته ، فان تزوجت آل كل شىء الى الأطفال ، ويودع خاله ويعود الى كوخه •

نجد أنفسنا بعد ذلك فى كوخ محمد ، ويا لها من ليلة شهدها هذا الكوخ الذى كان هادئا ساكنا ، طفلاه نائمان ، لكنه لا يغمض له جفن ، انه يصرخ ويهذى دون انقطاع ، ويقوم فينظر فى السماء الى نجوم « الدب الأكبر » انه يسميها الاخوة السبعة لأنها لا تفترق ،

ويقارنها ببلطته ، ويخرج خنجره ثم بندقيته ويقوم بتنظيفها ويخــاطب زوجته قائلا : هل رأيت بندقية بهذا الجمــال قبل الآن ؟ والمرأة قلقة على زوجها ؟ خائفة وملتاعة ، تحس أن شيئا ما لا قبل لحياتهم الآمنة به ســوف يحدث ، ما له ولهذه الأشياء التى نسيها منذ زمن ؟ لقد آن لأسلحته أن تخرج من مرقدها ، ان أمام محمد سفرا طويلا ربما الى البحرين أو قطر أو زنجبار ، وتجهش المرأة بالبكاء انه ضاق منهــا ومن حياته معها ، الا أنه يصرح لها بأنه ينبغى أن يصفى حسابه • لقد باع الدكان وباع الدار ، ان لم يعد فى الغد عليها أن تحمل الأطفال وتذهب الى منزل والدها ، وان هرب عليها أن تستعد لذلك ، لقد اشــترى قاربا ربطه الى الشاطىء ، وعليها أن تحمل اليه ما يلزم وتنتظره فى المساء ، لا نكوص عما عزم ولا عودة ، ويسود الكوخ هدوء شامل ، انها نائمة على جنبها تفكر ، صــورة محمد تغيب عن خيالها قليــلا قليلا ، وتبكى على الأمل الكبير والعمر القصير ، ان محمدا يواسيها وعيناه لا تريمان عن النجوم ، ينظر الى أكواخ القرية ويخاطبها قائلا : « نحن أهــل تنجستان دائمــا مظلومون ، كل هــذا كلام فارغ ، ألا ينبغى أن يظهر انسان يمحو كل هــذا الظلم من أساسه ؟ ويخلعه من جذوره ؟ لو لم أوجد أنا كل رجال تنجستان سوف يكونون آباء لأطفالك ، ولقد حدثت والدك ، وظله عليك ، اننى مثل الحسين بن على أذهب لأنال حقى ، وليس دمى أغلى من دمه » انه لو لم يفعل لتاه مجنونا فى الصحراء وتحدثه عن حبها له وأن العــالم كله لا يعدل شعرة واحدة من شعره ••• ثم لا تبقى نجمة واحدة فى السماء •

أرأيت هذه الصورة التى يعرضها الكاتب دون زيف أو تزويق ؟ ثم أرأيت تطور حديث الزوج والزوجة من التلميح الى التعريض الى التصريح الى الاقناع ؟ ثم أرأيت فوق ذلك كيف نجح الكاتب فى مزج الصور الطبيعية بالصور النفسية لنرى أننا أمام صــورة من صــور

الحياة نقلها الكاتب بصـــدق فنى رائع قل أن يتوفر فى كاتب ايرانى معـــاصر ؟

***

ثم نلتقى بمحمد فى الفجر يسير فى شوارع « بوشهر » يرتدى ملابس الحراس وهو يتقلد أسلحته ، كان كل من يراه يظن أنه امتهن الحراسة ، وهكذا كان يجيب ، وانك لا تصلح لبيع الأرز ، هـــكذا كان يجاب ، اشترى محمد ملابسه ، وطلب أن تصلح لباسا وكفنا فى الوقت نفسه ، وها هو يتبادل الأحاديث مع الباعة والسابلة ، كلهم يسألونه عن وجهته ، وبعضهم يسأله عن قضيته وماذا تم فيها ، وهو لا يجيب الا بقوله : وماذا يفعل الثعلب بين براثن الأســـد ؟ ولا يدرى أحد من الثعلب ومن الأسد ، ويطيل أحـــد الباعة فى الحـــديث انه يوصيه أن يسلم أمره فيهم لله ، ويجيب محمد ساخرا : أجل ولحضرة عباس ، ويمضى متأففا ، كأن الناس جميعا يتعجلونه ، أحدهم يوصيه بأن يرفع شكواه الى أحمد شاه (١٩١٩ ــ ١٩٢٤) فيجيب ساخرا : ان أحمد شاه لا يعلم هل تتبع بوشهر بلاد العرب أو بلاد العجم .

ويمضى محمد فى طريقـــه ، انه يريد أن ينتهى من هـــذا الأمر بأسرع ما يمـــكن ، لقد ضـــجر من كل شىء ، وها هو يصـــل الى ضحيته الأولى : كريم حاجى حمزة وعلى باب دكانه يلقى السلام ، ويرد الرجل بسلام فاتر متبوع ببصقة ، وكأنمـــا يريد أن يعجل فى أجله ، وها هو يعبر عن ضيقه برؤية وجه محمد فى الصباح . ولاشك أن هـــذا تعبير الحلم السيىء الذى رآه ليلة الأمس ، ويقيس محمد المكان بعينيه ، لعله روع بمنظر الرجل الذى سيصير كومة من اللحم بعد لحظات ، ولعل جانبا من رحمته الطبيعية قد تحرك فيه وثناه لحظة عن اتمام هذا الأمر ، فاذا به يطلب من الرجل مبلغا من النقود لأنـــه مســـافر ، وها هو الرجـــل يعامـــل محمدا كأنه شـــحاذ ، فلا يحس

الا بماسورة البندقية تحت ابطه ثم تنطلق الرصاصة وينتهى كل شىء • لم تثر فينا تلك الشخصـية التى ظهرت لدقائق الا النفور لقد منحه محمد الفرصـة الأخـيرة الا أن الرجل تركهـا تفلت منه وأسرع الى مصيره ، ان القارىء ليحس أن الرجـل هو الجـانى وأن محمدا هو المجنى عليه •

وبعد سقوط الضحية الأولى ترتفع الأصوات من السوق : لقد نال محمد التنجستانى ثأره أخيرا ، وترتفع الأصـوات : سلمت يداه • ولم يبق أمام محمد الا أن يواصل انتقامه ، ان قتل واحد مثل قتل أربعة على كل حال •

ويمضى محمـد الى ضحيتـه التالية : الشيخ أبى تراب • ان الشيخ فى منزله يجلس الى منضدة عليها بعض الأوراق والأقـلام ، ولا يكاد ينظر الى محمد حتى يحس أنه ينظر الى الموت مجسدا ، فقد الشيخ لسانه وبيانه الذى طالمـا خدع به الناس وسلبهم أموالهم ، مات الشيخ قبل أن يموت ، وتدوى الطلقة ، ويخرج محمد وفى اثره امرأتان : تقيده احداهمـا من الخلف وتمسـكه الأخرى من مكان حسـاس ، فلا يجد بدا من ضربهما معا بالبلطـة ، ويخرج من الدار فتبصره قطة تفر مذعورة ، وينظر محمد الى هيئتـه المخضـبة بالدم فيخاف من نفسه ، ويخرج الى الطريق مهددا كل من يتبعه بأنه سوف يجر الوبال على نفسه ، الا أن الناس لا يهمهم الا الحديث عن القتيل الذى جاء الى بوشهر منذ عام واحد فقط أثرى خلاله ثراء فاحشا ، ان محمدا يتحول قليلا قليلا الى بطل شعبى ويطلق الناس عليه اسـم « شير محمد » أى محمد الشجاع أو الأسد •

ويذهب محمد الى الضحية الثالثة : محمد كنده رجب ، أحقرهم فى نظر محمد ، وأكثرهم بذاءة ، انه يجلس مع انسان آخر يصرفـه

بهدوء ، ويصمت رجب وهو يرى الموت يحوم فوق رأسه ، لقد رأى الموت أكثر من مرة ، وعاصر طاعون بوشهر ، لكنه لم ير الموت قريبا منه الى ذلك الحد ، كان يريد أن يشتم محمدا ، لكن فمه انفتح وانطبق دون أن يخرج منه صـوت ، وها هو يرتعد ، ولا يجد محمد ازاء هذا الجبن الا أن يفرغ فى صـدره أربع رصاصـات ثم يمضى الى حال سـبيله •

لقد زاد تجمع الناس ، لكن ليكن ما يكون ، من تبعه سيكون دمه رواء لحصى الشارع ، لم يبق من العصافير الجبانة الا عصـفور واحد ، وها هو يدق الباب ويرتفع صوت من الداخل : من ؟ فيجيب : خادمكم محمد وترد امرأة : عد غدا ان السـيد متعب فيقول قولى للسيد اننى أحضرت ما طلب من نقود ، ويسمع الرجل فيقول لها : قولى له أن يصعد ، لا يسأل المرأة عن الطريق الى الحجرة ، انه يعرفها جيدا ، كم تذلل فيها وكم تضرع وكم التمس ، بذل كل شىء فى سبيله الى النهاية ، بعدها سوف يرحب حتى بالموت ، كان آقـا على مضطجعا يقرأ المثنوى ، فلما دخـل عليه اعتدل فى جلسته ، كان هنـاك ذباب بملأ الحجرة ، سأله بلهفة : كم أحضرت فأجاب محمد : ما يكفيك تماما وأفرغ رصاصـة • « وابتلع الهول الحجـرة ، وتضرجت جثث الذباب الساقط فى المصـيدة بالدم ووقعت المروحة من يد الرجـل ، وانقلب كتاب المثنوى ، وأغمى على المرأة فوقع من يدها كوب الشراب وصار بددا فى الحجرة » •

وخرج محمد ، ان الشارع خال الا من جماعة قليلة من النـاس ينظر اليهم محمد ضاحكا ، وعلى البعد يسمع أصوات الناس سلمت يداك يا شير محمد • كانت الشوارع تتحدث عن بطولة محمد ، كان الجميع يعرفون الا الشرطة ، وعلى رأس الحـارة يستوقفه جندیان ، يهشان له ويبشان سائلين : هل نويت أن تعمل شرطيا يا أخ : سمعنا أن

جناية قتل وقعت فى السـوق ، فيرد دون أن تتحرك شعرة منه : أجل نشاجر رجلان فقتل أحدهما الآخر • انتهى الأمر اذن ، لم يحرك واحد من الضحايا ذرة من عطفنا عليه كان كل منهم فى اللحظات التى ظهر فيها مثيرا للنفور ، مستحقا للقتل ، وكأنهم كانوا جميعا مصرين على الذهاب الى الجحيم دون أن يتخففوا قليلا من ذنوبهم •

***

نعود الى « شهرو » زوجة محمد ، ها هى عائدة من السـاحل بعد أن نقلت الى القارب ما أوصاها محمد بنقله ، وبعد أن دفنت فى الرمال ما أوصاها بدفنه ، دخلت كوخها وأغلقته على نفسها وجلست ، كل شىء باهت ومشلول ، مات كل شىء بذهاب محمد ، أصبح الكوخ خاليا ، نقلت كل ما يستحق النقل الى القارب ، فقط لو عـاد محمد حيا كانت تريد أن تصرخ : أيهـا الناس مات محمد فتعالوا نتح ، انها تعانق بخيالها كل ما كان لمحمد ، لم تكن تدرى ماذا تصـنع ، من العسير أن تواصـل حياتها العادية ، انها تحس أنها فى نزل ، ليس المنزل نها بيع المنزل وبيعت المـاعز وعما قليل يأتى صاحبها لاستلامها ، نم تعد حتى تطيق النظر الى وجوه أطفالهـا ، فقد أصبحت تحس فى وجوههم سحنة اليتامى •و يأتى الرجـل ويسوق المـاعز : انه يثنى على ذكاء محمد الذى باع كل شىء ليستثمر أمـواله فى المدينـة ، والأولاد لا يصدقون •

عند الظهر تسمع شهرو سنابك الخيل تتوجه الى كوخها ، وعلى باب الكوخ يترجل جنديان ، أحدهما آذرى ينظر اليها ويسـأل عن زوجها ، وتعلم شهرو لأول مرة أنه قتل ستة أشخاص وهرب ، وتنزل الكلمـة على قلبها بردا وسـلاما ، ويقسم الجندى الآذرى أنه سيعثر عليه حتى وان كان نجمـة فى السماء • ولأول مرة فى يومها تحس شهرو بالجوع ، انها تقوم فتعد الخبز بهمـة ، وذهب الجندى الآذرى

الى العمدة ، بينما جلس الجندى الآخر الذى نكتشف أنه تنجستانى من خلال تبادله الحديث مع الزوجـة ومن تعاطفه معها ، انه هو نفسه معجب بمحمد ، انه لن يرفع عليه بندقيتــه أبدا وليكن ما يــكون • اما الجندى الآذرى فهو مصر على تفتيش الأكواخ واحدا واحدا ، والعمدة يثنيه ، لا فائدة فيما يفعل الا أنه ســوف يثير الناس عليه ، انه يمر مع العمــدة على الأكواخ بينما يجلس الجنــدى التنجستانى يتجاذب أطراف الحديث مع طفل محمد ، ولا يلبث الجندى الآذرى أن يصل ، وتحذره شهرو من محمد ، من الخير له أن يقلع عن فكرة القبض عليه ، وهو مصر ، يطلب من الجندى التنجستانى أن يتبعه للبحث بين النخيل ، لكن الجندى يتقاعس ، من العسير أن يقبض شخصان فقط على محمد ، عليهما أن ينتظرا حتى تصــل قوة من المدينة ، وجلس الجنديان ، وظل الأهالى يتجمعون حول كوخه ، بينما يقسم العمدة بأغلظ الأيمان أن محمدا لا يمكن أن يعود الى القرية ، والا من الذى سمع عن قاتل قتل ستة أشخاص ، ثم عاد واختبأ فى منزله ؟

***

حينما أنهى محمد مهمته كان يعرف مقصــده تماما : كان عليه أن يختفى حتى المساء ، ثم يمضى الى حال سبيله ، ولا مكان أصلح لهذا الاختفاء الا دكان ذلك البقال الرومى « أساتور » الذى تربطــه به صداقة قديمة • ويذهب الى البقال فى دكانه ، وينكر البقال هيئة محمد الذى يعترف له بكل شيء ، وفى حروف قليلة يعرض عليه خطته ، ان أجاره فيها والا سار لتوه ، ويرد الرجل : الى أين والشــوارع مملوءة بالجنود ؟ • لكن الدكان ليس بالمكان المنــاسب للاختفــاء ، ان محمدا يقف وراء ســتار ؛ وما من حــديث على أفواه المشــترين الا ما فعله محمد ، والرجل يفيض معهم فى الحديث حتى بات محمد يشك أنه فى سبيل تسليمه ، وحين يخلو الدكان من المشترين بعود اليه، عليه أن يمضى الى الحجرة العلوية للدكان ، لكن ليس بعد أن يرسل

صبيه فى عمل ما فالصبى لا يؤمن • وقد يفلت من فمه ما يؤدى الى القبض على محمد •

يتكور محمد فى الحجرة الصغيرة وسلاحه الى جانبه ، ان الحجرة لا تمنحه حرية التنفس لو فتح الباب فسوف يظفر بقدر من الهواء ، ولكن صبى « أساتور » سوف يعرف مكانه ، جلس القرفصاء ووضع ركبته بين قدميه ، أخذ العرق يخزه وكأن نحلة دخلت بين ملابسه ، خيل اليه أن زمناً طويلا قد مر على فعلته ، بدأت صورة زوجته وأطفاله تنمحى من خاطره ، انه لايزال يتذكر منظر الكوب المكسور على الأرض ، والشراب المراق المخلوط بالدم ، والقطة التى فرت هلعا من منظره وهو ملوث بالدم ، أخذت أمواج سوداء كأمواج البحر تحيط برأسه ، وهو فى السفينة برسوبوليس ، والسفينة كثمرة القثاء تغوص فى موج البحر وتطفو ، وهو يمسك بدفتها بكل قواه خشية أن تنقلب منه ، ثم رأى نفسه فى منزل الشيخ أبى تراب وقد طعن بخنجر مدبب أخرجه من جسده ، وأخذ يعدو والدم يتدفق منه ، ثم رأى نفسه ثانية فى البحر ، زوجته وطفلاه متعلقون بطوق تتلاعب به الأمواج ، وفى حجرة القبطان كان هناك ضبع نائم ، وكان كريم حاجى حمزة ينام فى أحضان الضبع والدم يسيل منه ، ثم رأى رجلا انجليزيا جاء يشترى من « أساتور » وهو وراء الستار ، لقد رأى أساتور يشير الى الستار ، وها هو يطلق الرصاص على أساتور والانجليزى ، وطوفان من الأمواج يحيط بالسفينة ، ثم تستقر فى قاع البحر ، كان قاع البحر مضيئا كأنما أشعلت فيه آلاف الشموع والأعشاب كاليراعات ، ثم يرى جنود الحكومة يحيطون به وأربعة من الذئاب تحيط بشهرو والأطفال ، وهو لا يجد اليهم سبيلا ، ثم ركل الصناديق بقدمه وفتح عينيه ، ليجد نفسه وجها لوجه أمام « اسماعيل » صبى « أساتور » •

يقف اسماعيل وقد جحظت عيناه ، ويقف محمد فى مواجهته

مهددا بسلاحه ، ثم يضــع السلاح الى جواره ويجر الفتى الى الحجرة ويضربه حتى ينهار الفتى ، فيوسده بيديه ويخرج فيحضر له كوب ماء ، فلم يلبث أن عاد الى وعيه ، لقد سمع صوتا فى الحجرة فظن أن لصــا تسلل اليها ، ويسأل محمد : وهل تعرفنى فيجيب الفتى : لعلك أنت الذى يقولون عنه ! ـ اذن أنــا هو • ان اسماعيل يتقبل الأمر وكأنه شرف ما بعده شرف أن يشترك فى اخفاء محمد ، بل يشير عليه أنه من الخير ألا يعرف سيده ، فهو ليس مسلما وقد لا يحفظ السر ، ويشير على محمد بخطة للهرب مضحكة ، ويدله على ما يدور فى المدينة، ان الناس كلهم فى صفه ، والحكومة لا تملك الا عشرين جنديا نصفهم من تنجستان • ان الفتى ينصرف ليعد طعاما لمحمد ، ويخبره محمد أنه يستطيع أن يهرب وحده ، والويل له ان فكر فى خيانته •

فاذا انتقلنا الى الفصــل التالى وجدنا أنفســنا لازلنا فى منزل أساتور ، الخــادم يحتال ليأخذ أكبر كمية من الطعام وهو يفكر فى محمد ، والبقــال يفكر فى نفس الشيء ، وكلاهمــا يظن أن الآخــر لا يعرف ، ومحمد قابع فى مكانه يحس ويسمع والاطمئنان يغمره ، الا أن الأحــلام السوداء التى رآها فى هذيانه لازالت تؤرقــه • ويبدأ اليأس يدب الى نفسه ويحدثها قائلا « لقد نفذت ما أردت فالى الجحيم بكل ما عدا ذلك ان أربعين ســنة من الكرامة خير من مائة سنة من الذل » • وحين تخف الأقدام يصعد اليه « أساتور » ويضــع له الطعام ، ويخبره أن الليل قادم وأنه سيخبره فى حينه ، ولكن من أسف أن الليلة مقمرة •

ويرتد محمد ثانيــة الى ذكرياته ، الى الأيام التى تعرف فيهــا الى أساتور ، لم يكن يظن يومها أن يوما ســوف يأتى ويكون على ما هو عليه الآن ، أكل دونما شهية ولعبت بطنه ، وأحس أنه يريد أن يقضى حاجة ، وينزل السلالم ثم يعود بسرعة ، ويأتى اســماعيل هو الآخر

ببعض الطعام ، ويعرض على محمد أن يهرب معه فان اثنين لن يثيرا الشك فيشكره محمد ويربت على كتفه ، انه يود لو يترك المكان فى التو واللحظـة ، لقد تعب من الانتظـار المر ، وتظهر الفئران فى المخزن فيلقى اليها ببعض الطعام ، ويبتسم ان فى بوشهر فئرانا تتحدى القطط وتحاربها ، ويفكر حينما يكون الانسان ميتا فى القبر سـوف تفعل الفئران بلحمه هكذا ، وحينذاك لن يستطيع المقاومة • ويأتى الليل ويصرف أساتور خادمه بعد اصرار من الخـادم على أن يبيت فى المنزل ويصعد الى محمد لقد جاء الليل اذن ، ويودع محمد أساتور بين دموع الأخير وينزل الى الزقاق •

أرأيت فى هـذين الفصلين كيف وازن الكاتب بين الأحـداث الخارجية والصور الداخليةالتى كانت تترى على ذهن محمد ؟ أرأيت كيف سيطر على العلاقة بين الخـادم والسيد وكلاهما لا يدرى أن الآخر يعلم بوجود محمد ، ويريد أن يخفى عليه الأمر ؟ أرأيت كيف استخدم صنعة الحلم استخداما يخدم سير الرواية ولا يسىء اليها ؟ فاذا بنا نعلم من أحلام محمد كثيرا من أحـداث حياته المـاضية التى ألقت الضوء على كثير مما خفى علينا ؟

***

ميناء بوشـهر ساكن صامت ، كأن كل من فيه موتى ، سـكن الناس وهجعوا فى بيوتهم بعد أحداث هـذا اليوم الحافل • محمد يسير وحده فى الشارع ، المكان غاص بالجنود ، فيحاول ألا يمر من أمام القنصلية البريطـانية ، ويلمح جنديا يريد أن يحشو بندقيتـه ، من أين أتوا بهؤلاء الجنود الأحداث ؟ ويشتبك فى عراك صامت معه ويكيل له الضربات ثم يأخذ بندقيتـه ويمضى « بسـلاحين يمكن أن يكون رجلين » ويمضى فى طريقه الى البحر ويتبعه جنـدبان ، انه لا يريد أن يشتبك معهما ، ان أحدهما يأمر أن يلقى بسـلاحه ، ولكن

هل يلقى الرجل بسلاحه ؟ ويطلق عليه الجندى الرصاص ولكن بعد أن يكون قد ألقى بنفسه فى المـاء •

ويعود بنا الكاتب الى قرية محمد ، حيث جلس القرويون حول كوخ محمد فى ضـوء القمر • كان الجندى التنجستانى يغالب النوم ، بينما كان الجندى الآخر خائفا بدأ يحس بالغربة أمام العيون الغاضبة التى تحيط به : ان الجندى التنجستانى يحـاول أن يقنعه بالانسحاب من هـذه العمليـة ، وليس عليه أن يخشى المـأمور • فلاشـك أن المـأمور نائم الآن بعد أن سكر كعادته ، على الجندى الآذرى أن يخاف من أهل تنجستان خاصة فى الليل ، فان الله وحـده يعلم ماذا يدبرون الآن ، ولا يقر للجندى الآذرى قرار •

ولنعد الى محمد • ألقى محمد بنفسه فى المـاء ، وها هو يغالب الأمواج يتخلص من البندقية التى سلبها والتى تقيد حريته ، ويسبح وسط المـاء فهو قرب الساحل الضحل الذى لا يصلح للسباحة ، انه يسخط على القمر الذى جعله يضـع رأسه تحت المـاء لا يرفعهـا ، وهو خائف من قوارب الصيادين التى ربما تأتى لصيد السـمك ، وخائف من وحوش البحر التى ربما تشتبك معه ، ولا تلبث أن تشتبك معه احداها بالفعل فيترك خنجره فى أحدها ويمضى يغالب الأمواج وتخور قواه ، ويفقد الأمل فى نجاته ، الا أن موجة قويـة تأتى اليه فتحمله ويجد نفسه قريبـا من الشاطىء فيدب فيه الأمـل ويبدأ فى السـباحة •

كانت شهرو تجلس صامتة أمام الكوخ ، نام الأطفـال وظلت ساهرة تنقل نظراتها بين أهـل القرية وجنود الحـكومة ، انها تتمنى ألا يكون أحد من أهل قريتها موجودا ، انها تعلم أنهم جاءوا لمساعدة محمد لكنها بدأت تقلق ، ، انها تذكر كل مزايا محمد وكأنهـا تقدم التماسا الى الله أن ينجيه ، ثم لا يلبث أن يصـل ستة من الجنود على

رأسهم المـأمور نفسه ، انه ساخط يسب ويشتم وفـوق ذلك فهو ثمل ، يتعرض لعرض شهرو فتخمش وجهه وتضربه ، ويعلو صـوتها من داخل الكوخ فيتجمع أهـل القرية ، وينظر الجنود الى بعضـهم بعضا برعب ، ويأتى العمدة فيناقش المـأمور ، من المستحيل آن يأتى محمد الى القرية بعد ما فعل ، ثم يظهر محمد خلفهم جميعا ، ويهددهم جميعـا فيلقون بأسلحتهم ، ولا يخضـع المـأمور للتهديد ، ويلقى الجنود التنجستانيون بأسلحتهم ، ويتقدم شاب من أهل القرية فيجمعها ويلقيها تحت أقدام محمد ، ويغمى على المـأمور ، وتخرج شهرو من الكوخ تحمل أطفالها ، ويمضى محمد وأسرته نحو البحر ، والجنود يتبعونه بأبصارهم ، وأهل القرية خلفهم ، وتركب الأسرة القارب ، والقرية كلها تلوح خلفهم داعية « يحفظهم الله » •

***

وتنتهى الرواية • رواية محمد الذى كان مظلوما فى أول الرواية ثائرا فى وسطها • بطلا لا يشق له غبـار فى نهايتهـا ، ان محمدا الذى حارب الظلم وحارب الطغاة وحارب جنود الحكومة ثم وحوش البحر وخرج من كل هـذه الحروب سالما معافى ليذكر بأبطال الشاهنامه ، يذكرنا برستم واسفنديار ، لقد أخذ چوبك الحادثة ، وحاول أن يكتب عملا مليئا بالرموز • يمجد البطولة بينما لم يقص مواطنـه الكاتب رسول برويزى القصـة فى أكثر من خمس عشرة صفحـة لم يلبس محمدا فيها أيا من هذه الرموز ، لقد أراد چوبك أن يقول ، ان محمدا كان بطـلا شعبيا وكان مناضـلا ، ولم يكن مجرما ونجح فى ذلك بالفعـل •

لقد كتب الكاتب تحت عنوان الرواية « رواية فارسية » فهل نحن أمام رواية فارسية بالفعل ؟ الواقع أننا لا نلتقى خـلال الرواية الا بكل ما هو ايرانى لغة وشخوصا وأحداثا بحيث تصـدق صفة الكاتب التى أحبها لروايته بالفعل •

ولم يبق ما يقال الا أن المؤلف استفاد كثيرا من مدارس الرواية المعاصرة ، وصوره واضحة بكل أبعادها ، والرواية من أصلح الروايات للاخراج السينمائى وكنت حين قرأتها منذ عشر سنوات تمنيت أن تخرج للسينما ، فلما شاهدتها فيلما ايرانيا أسفت للرواية التى جردت من رموزها وشوهت معالمها ولم نعد تخرج عن أفلام المغامرات العادية التى ما انفكت السينما سواء فى مصر أو ايران تدور حولها •

٥ ـ زوج السيدة آهو

على محمد افغانى

ظهر افغانى الى الوجود الأدبى الايرانى بروايته الضخمة « زوج السيدة آهو » التى اثارت ضجة أدبية فى ايران والعالم ، وبالرغم من ذلك ليس بين ايدينا ما يعين فى التعرف الى حياة الكاتب الأدبية أو الفعلية ، وفى احدى زياراتى الى ايران حاولت لقاء افغانى ، الا اننى فوجئت بأنه لا يلتقى بأحد ؛ وانه يقوم بأعمال تجارية لا صلة لها بالأدب ، ومن أسف ان كل من كتبوا عن الرواية لم يكتبوا شيئا عن الكاتب .

صدرت للكاتب روايتان بعدها : السعداء فى وادى قره سو ، واللفت فاكهة الجنة ، وهما دون مستوى « زوج السيد آهو » بمراحل.

هذا العمل الأدبى الذى أقدمه عرف أول ما عرف من خلال البلاغات الأدبية والنقدية المتتالية ـ اذا جاز هذا التعبير ـ وليس من خلال نصه الأدبى ، والواقع أن النقاد فى البداية صمتوا عن الرواية تماما ، حتى اذا حركتهم الجماهير التى كانت فى حاجة الى نص أدبى

يحرك مشاعرها بعد فترة من القحط والجدب ، طفق النقاد بحماس شديد يتناولون جوانب الرواية بالمدح والاشادة •

والواقع أن حماس النقاد كان صادرا من اعجاب لا تشوبه شائبة بالرواية وبالرواية فحسب ، فلم يكن كاتبها من أصحاب الأسماء اللامعة فى عالم الأدب والصحافة ، بل لم يكن له اسم على الاطلاق ، ولم يكن من أصحاب المناصب الذين يتقرب الناس اليهم مهما كان الغثاء الذى يكتبونه ، لم يكن الدارسون والنقاد يعرفون شيئا عنه ، وهل هـذا هو أول عمل أدبى له ، أم أنه نشر شيئا قبل ذلك بالفعل ، والواقع أن الكاتب الذى ولد بهذا الحجم « رواية فى حوالى ٩٠٠ صفحة لأول مرة فى تاريخ الرواية الفارسية ولعلها آخر مرة أيضا » جدير بأن يثير كل هذه الأسئلة •

والنقد الذى يصل الى حد المبالغة والحماس الذى يصل الى حد الاحالة قد يضران بالكاتب ، اذ يقبل القارىء على الرواية وقد وقر فى نفسه أنه بسبيل عمل كامل أو قريب من الكمـال ، ومن ثم تباينت الآراء بين الصف الأول من النقاد ، والصف الثـانى الذى أقبل على الرواية مفتوح العين والذهن لا يغادر كبيرة ولا صغيرة الا أحصاها •

ففريق صعد بالكاتب والرواية الى السماء السابعة ، فهو فى رأى نجف دريابندى : « كاتب حاد النظرة لا يدرك أدق أحاسيس البشر فحسب ، بل ويدرك أحاسيس الحيوانات أيضا ، الى جوار أنه لا يقسم الناس كعادة الكتاب الرومانسيين الى خير وشرير ، وانما يبقى الانسان انسانا مهما ارتكب من جرائم « وهو فى رأى آخر » مـلأ فراغا فى الرواية الفارسية كان موجودا بالرغم من ظهور رواية عيناها لبزرج علوى (لم أعثر على الرواية المذكورة أخيرا لأسباب لا داعى لذكرها)• ويواصل سيروس برهام : ان الرواية تعد دائرة معارف اجتماعيـة

واسعة للعادات الاجتماعية والمجتمع الايرانى • انها ليست رواية مدينة أو رواية أسرة ولكنها رواية حياة ، والمشاكل التى تواجه أبطالها ليست مشاكل فردية ، والأبطال عاديون جدا لا يبدو عليهم أثر الصنعة قد تقابلهم فى الشارع وقد تتعرف اليهم فى جيرانك ، والى جوار ذلك فالرواية نموذج واقعى وتحليل عظيم لقدر المرأة فى ايران . كل ذلك عبر عنه الكاتب بقوة ناشئة عن التأمل الشخصى والتجربة ، وذلك بلغة عظيمة وبأسلوب كلاسيكى قديم يذكر القارىء بروايات بلزاك وستندال وديكنز وتولستوى • أما الدكتور محمد على اسلامى ندوشن فقد ركز اهتمامه على لغة الكاتب : « ان الرواية هى أعظم الروايات التى كتبت فى اللغة الفارسية ، فمن أول صفحة فى الرواية الى آخر صفحة فيها نلتقى بالمصطلحات الشعبية ، ويصف الأحداث فى لغة جميلة لا ينفد جمالها ، وذلك فيما يبدو لأن الكاتب أعد نفسه بذخيرة جيدة من المصطلحات قبل أن يبدأ رحلة الرواية الطويلة ، أجل اننا اذا استثنينا هدايت العظيم فلن نجد مثيلا لأفغانى فى استخدام العامية فى اثراء الفصحى بتعبيرات جديدة جميلة وجذابة فى نفس الوقت الى اللغة الفارسية ، وفوق ذلك فنظرة الكاتب مثل نظرة العقاب ، وليست الرواية هامة من الناحية الأدبية فحسب ، ولكنها هامة أيضا من الناحيتين التاريخية والاجتماعية ، انها تشعرنا أنه لا ينبغى علينا أن نفقد الأمل فى ايران ، أجل ففى لحظة غير متوقعة ستحدث أشياء مثيرة للدهشة •

ولم تلبث الرواية أن اختيرت ككتاب سنة ١٣٤٠ هـ•ش• (١٩٦٠ م) من قبل جمعية الكتاب فى ايران ، ثم تعدت شهرة الرواية الحدود فاعتبرها بيتر آفرى أستاذ الأدب الفارسى فى جامعة كمبردج نداء أدبيا جديدا موجها من ايران الى العالم ، واعتبرها كميسروف عضو الأكاديمية السوفيتية احدى روايات ثلاث تعبر عن ايران المعاصرة خير تعبير •

علمنا اذن أن الرواية على اتساعها وطول نفسها تعد الانتــاج الأول لشاب لم ينشر له قبلها حرف واحد ، وبالتــالى فسوف تصادفنا فى الرواية بعض الهنات التى لن تقلل من شأنها ، وأهم هــذه الهنات بلاشك أن الكاتب كان ينسى فى بعض الأحيان أنه يتحدث على لسان أبطال حظهم ضئيل من الثقافة أو معدوم ، فكان يجرى على ألسنتهم محاضرات عميقة فى الأدب والفلسفة ومدارس الفكر الشرقى والفكر الغربى مما قلل الى حد كبير من عمق النزعة الواقعية فى الرواية كما لاحظ الأستاذ حسان كمشاد فى كتابه « النثر الفنى فى الأدب الفارسى المعاصر » ، ومع ذلك احتفظ الأستاذ كمشاد للمؤلف بدور المؤرخ الاجتماعى العظيم لفترة تعد من أعقد فترات التاريخ الايرانى المعاصر ، وهى فترة ما بين الحربين ، وذلك بأستاذية وفن ودون الوقوع فى الأخطاء التى وقع فيها أصحاب المدرســة القديمة فى الرواية الفارسية المعــاصرة •

يبقى بعد ذلك انطباع القارىء العادى بالرواية ــ ولأدخل فى زمرة هؤلاء القراء العاديين ــ فنحن أمام عظيم بلاشــك ، عظيم فى تناوله للأحداث اليومية العادية التى قد تقع للانسان العادى فلا يحس بها ولا تستوقفه ، وعظيم فى أخذه بناصية الأحداث وعدم انفراط خيطها من يده واحتفاظه بالتشويق الواجب للرواية من بدايتها الى نهايتها ، هــذا اذا استثنينا الصفحات الأولى التى تعد تمهيدا للرواية وان كان تمهيدا يخدم الحدث ولا يخل به • وهو عمل عظيم فى لغته وفى تعبيراته التى لا يمســك بأطرافها الا من تعمق باللغة الفارســية العامية ، تلك العظمة التى انتبه اليها المرحوم محمد معين فجعل الرواية أحد مصــادر قاموسه العظيم الذى وضعه للغة الفارسية ، وعظيم أيضا فى اضفاء أحاسيس فياضــة من شعور الكاتب على الأحــداث العادية ، وعظيم فى استغلاله للأحداث التاريخية فى خدمة الروايــة ، وعظيم من ناحية اللمسات الانسانية التى تصادف من القارىء الوجدان

والشعور ، ومن ناحية التحليــلات النفسية التى تصادف من القارىء العقل والتفكير ، وسوف يحس كل من عاش فى منزل يحتوى على زوجتين لرجل واحد أن الكاتب قد اقترب من نقاط دقيقة قد يغفل عن ادراكها من عاش هــذه الحياة ــ أما عن عيوب الرواية فسوف أتعرض لها خلال عرضى للرواية .

***

نحن فى مدينة كرمانشاه فى ظهر يوم من أيام شتاء ١٣١٣ هـ.ش. (١٩٣٨ م) ، الشمس تجاهد لازالة ثلوج الليلة المــاضية والمدينــة تحيا يوما عاديا من أيام الشتاء ، المهنة ينصرفون الى أعمالهم والتلاميذ الى مدارسهم . ويقف بنا الكاتب أمام دكان خباز ، وبعد أن يصف الدكان وجو الدكان نلتقى ببطل روايتنا « سيد ميران » نتعرف الى سيد ميران من خــلال حديثه مع بعض زملائه فى المهنة ومن خــلال هذا الحديث نعرف الكثير عن سيد ميران ، نعرف أنه نقيب الخبازين، وأنه كان من المقرر عقد اجتماع للنقابة الا أنه أرجىء لمــا بعد العيد لأن شهر رمضــان ليس من الأوقات المناسبة لهذا الاجتماع بالرغم من أن هذا الاجتماع على جانب كبير من الأهمية فالنقابة أمام قرارات اتخذتها الحكومة لا عهد لهم بها من تقسيم لحصص الحبوب وتحديد الأسعار وما الى ذلك . وينصرف الزميل لنلتقى بشخصية أخرى من شخصيات الرواية ولمــاذا لا نقول انها أهم الشخصيات جميعا ؟

اننا لم نعرف شيئا عن هــذه الشخصية حتى الآن ، الا أنهــا امرأة تلتف بعباءة بيضــاء ، ولم نعرف منها الا أطراف أصابعها التى مدتها لأخذ الخبز من سيد ميران ، وان كنا نشك كثيرا أنها قدمت لشراء الخبز فقط ، ان بعض التصرفات الصغيرة تجعلنا نرفع حاجبينا دهشة مثل سيد ميران بالرغم من أنه سيد « لقب يعطى فى ايران لمن ينتسبون الى آل البيت النبوى الكريم » ورغم أنه صائم ورغم أن

أخلاقه بشهادة كل من يتعاملون معه لا تشوبها شائبــة ، وتنصرف المرأة ، ولنتحدث عنها من الآن بالاسم الذى سنعرفه فيما بعد « هما » ويفرغ سيد ميران أو مشهدى سرابى لاجترار أفكاره عن المرأة عموما وعن لابسة العباءة البيضـــاء خصوصا ، وندرك من خـــلال تتبعنا لأفكاره بأنه لم يكتف بحفظ الأجزاء الظاهرة من زينتها فحسب ، بل يتخيل فيما بينه وبين نفسه ما فى المرأة من جمال خفى لم يره ولم نره نحـــن •

وتأتى نفس المرأة فى اليوم التالى الى دكان سيد ميران وهى تحمل طفلا ، ولأمر ما ينطلق الطفل بالبكاء والعويل ، عويلا يخرج حنـــان سيد ميران من عقاله ، فاذا به يداعب الطفل ويرسل فى طلب الحلوى له ويسألها عن الطفل • ويتصل حبل الحديث ، حديث نعلم منه الكثير عن « همـــا » ، فاذا بها منفصـــلة عن زوجها ، قد حرمها من رؤيـــة أطفالها ويا لها من أيام قاسية تعيشها • وتحدثه عن حياتها المـــاضية مع ذلك الزوج القاسى ولم تترك صفة من الصفات السيئة الا وألصقتها به ، وخـــلال حديثها لا تنسى بين الآن والآخر أن تصلح من وضـــع عباءتها لتكشف من جوانب جمالها وأن تدلل الطفل بلهجـــة فى غاية الرقة تحرك كوامن الرجل ، ثم تتحدث عن الزوج القاسى الذى أجهضها فى شـــهرها الرابع وعن أفكاره بشأن المرأة ، ورغم أنها لا تختلف عن أفكار سيد ميران نفسه الا أنه يتعاطف مع المرأة • وتشير الى جمالها الذى لم يسبب لها حسن الحظ وســيد ميران يعزف معها على نفس الوتر ، ويقترح عليها أن تبحث عن زوج جديد ، وهى تنكر وتنكر ، وسيد ميران مشتت الذهن لا يعرف ان كان قد آخـــذ من المشـــترى الأخير ثمن الخبز أم لم يأخذه وتنصرف « همـــا » • مثل هذا الحديث بين امرأة محجبة ورجل داخل دكان يبدو مستغربا الا أننا حين تتقدم فى الرواية لا تتعجب من أى سلوك منها •

فاذا انصرف سيد ميران من عمله وانصرفنا معه الى المنزل تعرفنا معه الى أسرته حيث يقدمها لنا الكاتب فى جلسة عادية لا زيف فيها : آهو زوجته وكلارا « ومعناها بالكردية عين » كبرى أخواتها ، ثم « بهرام » فى التاسعة من عمره ويزن فى السادسة ومهدى وهو فى السنتين من عمره أو يقل عن ذلك ، نجد أنفسنا فى الجو العائلى لأسرة سيد ميران ، الزوجة آهو تمنع أصغر الأولاد من مشاكسة أبيه أثناء الصلاة وبحنانها المعهود فالطفل هو قرة عين الأسرة خاصة وقد أصيب بمرض لم يشف منه الا بعد يأس ، وينتهى سيد ميران من صلاته ، ويتحدث مع زوجته حديثا عاديا ، انه يريد أن يخرج لكنها تخبره أنهم فى انتظار ضيوف ، ومع ذلك تحس آهو أن شيئا ما غير معهود فى سلوك زوجها . فهو لا يهش للصغير كعادته ، لكنها لا تنكر شيئا وتلتمس له عذرا من متاعبه فى العمل ، وتقوم فتعد الطعام ، وتجتمع الأسرة حول الطعام فى تلك الساعة التى لا تعدلها ساعة فى هنائها .

نعم : ان توفيق الرجل فى عمله ، وحسن تدبير المرأة داخل منزلها أقاما تناسبا عظيما فى المنزل ، كما كان الرجل دقيقا فى عمله ودودا سخيا عطوفا ، كانت المرأة داخل المنزل تفيض على جيرانها الفقراء ببعض ما أنعم الله عليهم به . وكما تتعرف الى الأسرة تتعرف الى هؤلاء الجيران الفقراء الذين يستأجرون بعض حجرات منزل سيد ميران الواسع ، تتعرف الى المرأة « نقره » وزوجها « كل محمد » العاطل ومع ذلك يغيب عن المنزل لمدة شهور تاركا زوجته دون مئونة ، وتتعرف الى « ننه بى بى » وابنتها « رعنا » اللتين تقيمان فى المنزل وتساعدان آهو فى بعض شئونها .

فى هذا الفصل تتعرف الى بعض جوانب حياة « سيد ميران » مثل زيارته لمشهد ، وبعض مشاريعه القادمة بشأن شراء حديقة وبناء

طابق آخر فى المنزل ونغوص فى ذهن سيد ميران وهو ينظر الى أسرته راضيا ومتذكرا ماضـيه : من كان يظن أنه حين لقائه بتلك المرأة آهو أن الزمن يخبىء له كل هـذه السعادة ؟ فى تلك الأيام كان يعمـل فى حدائق كرمانشاه المسماة « سراب » بستانيا فى الصيف وعاملا فى الطواحين شتاء ، ولم يكن يرى عارا فى بيع الفواكه فى الطرق ، كان فى الخامسة والثلاثين وقد بدأ الشيب يدب فى رأسه من تجارب الحياة المرة ، وكانت هى الأخرى يتيمة تعيش مع خالتها وزوج خالتها حياة قاسية ، نعم رحبت بالزواج به وهى التى وجهته الى العمـل خبازا ، وهى التى فتحت معه الدكان ، كان رأس المـال « طستا وصاجا » استعارتهما من خالتهـا ، كانت تقوم على أمر الدكان بينما كان هـو يسعى فى جلب الحبوب ، كلاهما كان ينام فى الدكان « لم تكن النقود التى يكتسبانها نقودا ، لكنها كانت عصـارة روح هذين الزوجين خاصة آهو » أجل : لو لم تكن آهو لكانت حياتهما الآن مثل حياة جيرانهم : نقره وزوجها أو خورشيد وزوجها الذى لا يعمل الا فيما ندر ، ويعتمد فى عيشـه على حماتـه العجوز التى تغزل الصـوف هذه الأسرة وابنهم « محمد حسين المصاب بقراع لا شفاء منه » تكون صورة من الشقاء الى جوار صورة أسرة سيد ميران السعيدة ، لكن ألم يذق سيد ميران الشقاء ؟ أجل ذاق مرارة الشقاء ، الشركة فى العمل والاستئجار فى المنازل ، والنظرات المتعالية ممن هم أعلى منه ، واستطاع بعد ذلك أن يثبت مركز آهو بشراء منزل لها وأن يثبت وضعـه فى السوق بزيارة الامام فى مشهد ، وأن يثبتا من مركزيهما معا بمشاركة الناس فى حزنهم وفرحهم ، لم يبق الا أن آهو تريد أيضـا زيارة مشهد وهذا أمر متيسر ، استطاعا أن يأخذا المكانة فى المجتمع ، هو فى الرجال وهى فى النساء ، انها الآن سيدة بكل معانى الكلمـة كأنها لم تحمل طستا ولم تنم فى دكان ! انها حياة مثالية جديرة بالرضا ، لا مجـال فيها للتطلع .

وتتعرف أيضـا الى بعض أصـدقاء الأسرة وأهمهم ميرزانبى القطاطرى وزوجته هاجر ، هما فى زيارة الى منزل سيد ميران ، هاجر تداعب آهو حول ما كونته من ثروة من خلف ظهر سيد ميران وترد آهو « بأن الكافر يظن الناس كلهم على دينـه » فميرزا نبى يعمـل بالتهريب والاحتكار وزوجته تساعده فى ذلك ، وينتقل سيد ميران الى الحديث عن مشاهداته فى مشهد ، وتتعرف أيضا الى « كربلائى عباس » وزوجته « ناز برى » من أصـدقاء الأسرة الذين يقيمون فى نفس المنزل . وينتهى هذان الفصـلان دون أن يقدما لنا جديدا من الأحـداث .

هذان الفصلان يقدمان لنا البيئة التى ستجرى فيها أحـداث الرواية وشخصيات الرواية ، سماتها الخلقية والجسدية ، وهذا يدل على أن الكاتب لم يخلص من هـذه العادة وهى عادة تقديم الروايـة تقديما مسرحيا ، انه لم يقدم لنا الشخصيات من خـلال الأحـداث كما فعل چوبك ، بل اعتمد على السرد ، وكثيرا ما كان يلتقط الخيط ويتدخل بشخصه معلقا أو مفسرا مما جعل بعض النقاد يظن أنه أجرى على لسان الأبطـال ما لا يتناسب معهم وانما كنا سنصادف هـذه النقيصة كثيرا فيما بعد . نحن الآن مستعدون لندخل فى الرواية وتتابع أحداثها ، حياة سيد ميران الهادئة التى وصلت الى بر الأمان ، تتعرض قرب الشاطىء الى عاصفة تلقى بها فى أعماق اليم ، ولم تكن هـذه العاصفة الا : « همـا » .

***

لم يكن حديث سيد ميران الطويل مع هما فى الدكان بلا نتيجة اننا نلمح من حديثه العادى ومن تصرفاته الصغيرة أن شيئا ما لايزال لا يدريه قد دخل حياته وفى ذلك المساء بينما كان سيد ميران عائـدا من منزل صديقه لمحها ، أجل رغم مشاكله ميز تلك المشية ، وبدخل

بنا الكاتب فى حديث عن تعدد الزوجات فلا يجد مبررا الا أن الرسول الكريم كان يميل الى النساء ومن ثم فهذه أيضـا خصلة فى نسله ، ولن تتعجب من هـذا الموقف من الكاتب اذا صادفنا فيما بعد مواقف أشد سخفا واحالة . ان سيد ميران المسكين لا يفكر فى « همـا » كامرأة جميلة ، لكنه يفكر فى شقائها وتعاستها ، وهو يتبعها حتى يعرف منزلها ، ثم يتحدث اليها وترى أنه بالفعل شقى لشقائها ، انها حقيقة مطلقة لكنها تعيش فى منزل مشبوه ، وهى تفكر فى الانتحـار لأنهـا لا تستطيع أن ترى أطفالها ، ان هنـاك من يدفعها الى امتهان الرقص بالرغم منها ، كل هـذا الحوار يدور فى الطريق ، يعدها سيد ميران أنه سوف يعود اليها فى اليوم التـالى ، انه سـوف يستخرجها من هذه البؤرة وهو جدير حقا بذلك الدور ، دور المنقذ ، لكن مـاذا ستفعل ان خرجت من المنزل ؟ ستبقى أيضـا مشكلتها بلا حل ، لكن هذه المشكلة فى رأى سيد ميران ليست جديرة بالمناقشة ، ان الطريق الى زوجها لم يغلق بعد ، ولا تجد « همـا » ازاء كل هذه الشهامة الا أن تقارن بين هـذا الملاك الكريم سيد ميران وزوجهـا السابق حاجى بنا ، ولا يجد سيد ميران الا التفكير فى هـذا الوجه الطفولى المعذب الذى ستره واياه رداء الليل ، وتحدثه عن الرجل الذى هو بصدد التباحث معه من أجلهـا ، وتحذره منه ، انه سينفق كثيرا فى سبيل اتمام هـذا الأمر ، ولكن : أليس تحرير امرأة من ذل رق يساوى نفقات الذهاب الى مشهد ؟ ان الفن الذى ستقوم به لا ينظر اليه بعين الرضـا فى ايران ، ويتجرأ الكاتب فيسـوق على سيد ميران رأيه فى الفنون عامـة ، ويتجرأ أكثر فيسـند رأى سيد ميران هـذا الى الاسلام ، ولا ندرى من أى كتاب أو سنة اشتقه أو من أى مجتهد سـمعه ؟ « وهمـا » تدق على الوتر الحسـاس ، ان حسين خـان الطبال ـ وهو اسم الرجل الذى يدفعها الى امتهان الرقص يدفعها الى ما هو أشـد وأنكى : الأفيون والشراب ، انه يضن بها على أن ينظر

اليها أحد ، وتنسى همـا حذرها ، ان والديها اشترياها من الغجر وهى
تحب الرقص طوال عمرها ، الا أنهـا تتوق الى الحيـاة الطـاهرة
الكريمة • ان « همـا » تلقى الطعم لسمكة عمياء سرعان ما تبتلعه :
ان هـذا الملاك الحـارس سيد ميران يثور ثورة مضربة : هل يظن
حسين خان هـذا أن المملكة بلا صاحب ؟ أو أنها بلا قانون ؟ سوف
تسمع جوابه الواضح فى الغد ، وتنتهى هـذه المناقشة التى جرت فى
الطريق فى مدينة كرمانشاه الصغيرة ومع ذلك استغرقت من الكاتب
أكثر من عشر صفحات ، انها تترك سـيد ميران ناضجا تماما وجاهزا
للأكل ، انه يفكر : عجيبة هـذه الدنيا ! لمـاذا يكون جمال المرأة
سببا فى شقائها ؟ انها مثل الدابة التى ترعى المرع تنتج أحلى اللبن ،
كم سيكون الزوج الثانى لهذه المرأة سعيدا ، انه لا يحس بأى تردد
فى أن يزج نفسه فى أوساط الطبالين والراقصـات فى سبيل هـذه
المهمة المقدسة ، انه يشعر بشعور الشهداء والقديسين ، مسيح على
الصليب ، انه جالس فى فراشـه يدخن السيجارة تلو السيجارة ، وفى
اليوم التالى يكون فى منزل حسين الطبال •

يقابله حسين خان وهو يشك فى أمره ، كيف يكون موفدا من
قبل زوجها وهى طالق ثلاثا ، وتأتى « همـا » وهى تدعى الخجل ،
كيف ذلك ؟ ما دام قد طلقها فلمـاذا يريدها ، انها تريد أولادهـا
وبعدها يأتى ويتفاهم مع حسين خان ، لم يكن حسين خان موجودا ،
وبذهب سيد ميران اليه فى دكانه ، انه الرجل الذى يملك زمام أمور
« همـا » ، كيف ؟ ! لا ندرى ، انه أبرع وأكثر خبثا مما كان يظن
سيد ميران ان « همـا » فى رأيه لم تخلق لرجل واحد ، ليس من الخير
أن يذوى هـذا الجمال بين جدران أربعة ، ويتحدث حسين خـان
الطبال عن الفن حديثا شاعريا مليئا بالأمثلة من الأدب العالمى ولكن
« ما علينا » ، انه يلمح لسيد ميران أن سيد لا يسعى الا من أجـل
نفسه ، وهى ليست لائقة به ، انها لائقة فقط بعشيقها « البرز » الذى

لا يدرى أحد من أى مكان أتى ، وسيد ميران ينكر على حسين خان الفهم الذى يرمى اليه ، مهما كانت « همـا » بالنسبة له فهى ليست أهم من سعادة منزله وأطفاله ، عليه اذن أن يدبر الأمر مع حاجى بنا زوج « همـا » السابق وبعدها يستطيع أن يأتى الى حسين خان •

فى الموعد التالى يذهب سيد ميران الى منزل حسين خان ، كان الأخير يدرب تلاميذه ، ويجلس سـيد ميران فى انتظاره ، تنسـاب الألحـان الى أذنيه فتحمله الى عوالم أخرى ، لقد أعد للأمر عدتـه ، حمل من النقود ما يكفى دفع النفقات التى أنفقها حسين خان على « همـا » ، كما حمل لها صندوقا من الملابس ، كانت « همـا » هى التى تتدرب على الرقص بحركات خلعت قلب الرجل خلعا ، هل قال لها حسين خان انه قادم ؟ وألا يعتبر ما تفعل نقضـا للعهد ؟ انه يشاهد الرقص ويغرق فى أفكار عميقة ، لا ندرى للكاتب أم لسيد ميران ، وفى النهاية يعتبر خروج « همـا »من هـذا المنزل خسارة ما بعدها خسارة • ان الرقص فى وجود « همـا » قدر لا مفر منه ، لقد كان الرجل صادقا فى الصباح •

ولكن : هكذا قال سيد ميران بلسانه ، وربما كان تحت وطـأة الحالة الشعورية التى كان عليها فى منزل حسين خان • أما الأيـام التالية فاننا نشهد تطورا فى شعور سيد ميران الداخلى ، لقد تركها حقا لكنه ينتظرها فى دكانه كل يوم ولا تأتى ، ما هـذا ؟ هل هى تتلاعب به ؟ أم أن أحدا غير رأيها ، مر أسبوع على زيارته الأخـيرة لمنزل حسين خان تلك الزيارة التى خرج منها بلا نتيجة ثم ما ان رأى حسين خان فى الطريق ذاهبا الى الطبيب حتى أسرع الى المنزل للقاء « همـا » ، ولقيته بوجه متجهم ، لمـاذا غضب من رقصها فى ذلك اليوم لقد كانت ترقص لتودع الرقص ، ان حسـين خـان لم يمرض الا لأنها صممت على مغادرة المنزل ، وهـكذا سرعان ما اتفقت مع

سيد ميران على أن يستضيفها فى منزله مع زوجته وأولاده حتى يرى ما هو راء بشأنها ، عليه أن ينتظرها فى منزله وتأتى على أنها مستجيرة به بعد طلاقها وسوف يلحق بها طفلاها ، لكن سيد ميران على طول ما انتظر لم تهل « هما » بطلعتها ، انه يحس فى أعماق قلبه بالشوق اليها والقلق من أجلها ، ويحس بجرح عميق على أنها قابلت سلوكه هذا بالجحود من جانبها ، ماذا بها ؟ أهى مريضة ؟ بالتأكيد لا ، لابد أن شيئا ما قد حدث ، لقد كانت مصممة تماما على الخروج من ذلك المنزل ، لابد أن يذهب متخفيا ليرى ماذا فى الأمر ، ليس من الخير أن يراه أحد يتردد على هذا المكان ، ثم يتردد ، ثم يطلب من نفسه الصبر ، أجل الصبر ، الى أين سيذهب ؟ والى أين ستصير أموره ؟ تمنى من صميم قلبه ألا يكون قد قابل المرأة وألا يكون قد تعرف عليها ، فى الأيام الأولى كان قد أنفق عليها الكثير ، لكن لا يهم « افعل الخير وارميه فى البحر » ، ويزداد الصراع حدة فى نفس سيد ميران ، يحدث نفسه : أنت شيخ يا سيد ميران لو كنت قد تزوجت فى سن مبكرة لكان أحفادك الآن يتحلقون حولك ، ولكن ألا يجعل العشق قلب العجوز شابا ، وضح الخفاء وصارح سيد ميران نفسه بحقيقة الأمر لأول مرة •

فى الطريق يقابلها سيد ميران فيسرع اليها بلهفة ظاهرة ، ولكنها ليست وحيدة ، انها مع زوجة حسين خان ، كلتاهما لا تجد ثمن دواء المريض ويسرع سيد ميران فيشترى الدواء ، ويلحق بـ « هما » وتفهم زوجة حسين خان الأمر فتوصى « هما » بالتعجيل بالذهاب ، ان مثل هذه الفرصة لا تلوح فى العمر مرتين ، ان سيد ميران ينتظر « هما » ويغرق ثانية فى أفكاره وتردده : أكانت تعيش وحيدة حقا فى الدار ؟ • لا يهم ، ان الحب يظهرها له فى أحسن تقويم ، فاذا جاءت « هما » وسألها عن سر غيابها ، أجابته : كيف تذهب معه الى منزله ، وماذا يقول الناس فى هذا الوضع غير الطبيعى ؟ ويحاول

سيد ميران أن يهون عليها الأمر ، ولكن « همـا » خائفة ومشفقة ، وسيد ميران مندفع ومندفع حتى تأتى سيرة الزواج على لسانه عفوا ، وتلتقط « هما » الخيط ، ماذا تفعل لو أن زوجته لم ترض بوجودها ؟ لا ، انها كالحمل الوديع « وهمـا » تعلم ذلك الجانب الذى علمنـاه نحن جميعا فى سيد ميران : عدم تقديره للأمور وطيبته الزائدة عن الحد ، انها تضرب على النغمة الأخرى ، من الخير لها أن تموت ، ان زوجها الأول وقد أخذها من أهلها عاملها هذه المعاملة ، فكيف بزوجها الثانى الذى سـوف ينتشلها من هـذه البؤرة ؟ انها لا تستطيع أن تعتدى على أسرة سيد ميران وعلى زوجته وأطفالها والاسم الذى كونه فى سنين ، الا أنها بعد ذلك كله فى يده عليه أن يصنع بها ما يشاء ، ويحس سيد ميران بغرور الرجولة فيبتسم ، ويعرض عليها أن يعقد عليها عقد نكاح للمتعة « ويثير الكاتب نقاشـا حول المتعة ذكر من خلاله كل آراء المحبذين وآراء المعارضـين مما يضيق المجـال عن ذكره » ويرفع سيد ميران رأسه بعد تفكير عميق متسائلا عن مصـير زوجته وأطفاله ، لكن ما لها ولزوجته وأطفاله ، انهـا لم تتحدث عنه لا تلميحا ولا تصريحا انها فى حاجة الى « ظل رجل » لكن دون أن يكون ذلك على أنقاض بيت آخر لكنهـا سـتكون خادمة لزوجتـه وأطفـاله .

ويقاوم سيد ميران ولكن أية مقاومة ؟ ان صـوته يتهدج وكأنه غلام فى السادسة عشرة من عمره ، وتسوق « همـا » الدلال وهو منوم ، فتضربه الضربة تلو الضربة وكأنه ملاكم وجد خصمه يخور أمامه ، كانت صيدا فى نظر سيد ميران لكنها كانت أمهر من الصياد . فى النهاية يطلب أن تنتظر يومين ، سوف يفكر فى حل آخر من أجلها ، لكن أى يومين ؟ لقد خرج سيد ميران وهو مصمم على أخذ « همـا » الى منزله ، مهما تحمل فى سبيل ذلك ومهما قال الناس .

ثم نجد أنفسنا فى منزل سيد ميران مع آهو وجيرانها ، حيث تشكو نقره من ولدها وتكاسله فى العمل فتنبرى آهو وتلقنها درسا طويلا فى كيفية تربية الأولاد لا تستطيع دكتورة فى التربية أن تلقيه « وآمنا بعده بالطبع أن الكاتب يفهم فى التربية » وفى هـذا الجو العادى جدا تبدو « همـا » فى الأفق ، يدخل بها سيد ميران وهو مطأطىء الرأس ويقدمها الى زوجته على أنها امرأة طلقت وطردت من منزلها فلجـأت الى المسجد حيث عهد له الامام بها ، ان هنـاك حجرة خالية ينبغى أن تجهز لها على الفور ، ان آهو تشـعر بالقلق ، أى مسجد وأى امام ؟ ترى هل رأى وجهها من خلف الحجاب ، أجل لابد أن يوضح زوجها الأمر وفى نفس الليلة ، وحين تسأل زوجهـا يتهرب من الجواب قائلا انه ليس من الذوق أن يسألها ، ثم حين تصر على السؤال مذكرة اياه بالجيران ، يخبرها ببساطة أنه سيسعى الى اصلاح ذات البين بينها وبين زوجها وهو ما لم يكن سيد ميران يفكر فيه بالمرة ، كما أنه لم يكن قد اتخذ قرارا قاطعا بشأن وجود « همـا » فى المنزل الا أنه سيمتع نظره بهذا الجمال .

تستمر اقامة « همـا » فى منزل سيد ميران أسبوعين . أعصـابه تزداد سوءا يوما بعد يوم ولا يدرى من أين يبدأ ، كانت « همـا » قد ثبتت وجودها فى المنزل ، وكانت تتعامل مع الأسرة والجيران وكأنها تعرفهم منذ سنين ، وفى نفس الوقت بدأ سيد ميران يمازحها فى المنزل وبدأت « همـا » تسأله بوضـوح وصراحة ، ماذا ينوى بشأنهـا بالتحديد ، ولكن ماذا كان ينوى بشأنها بعد أن نبت حبها فى قلبـه كالبذرة الحرام وأخذ يمتد بجذوره يوما بعد يوم ، انه يتساءل دائما بينه وبين نفسه : أية امرأة هـذه المرأة ؟ كيف استطاعت أن تستحوذ على كيانه فى هـذه الفترة ؟ احساسان أخذا يتجاذبان سيد ميران وهو بينهما كالقشة : حبـه لـ « همـا » وخوفه على « آهو » والأولاد ومكانته فى المجتمع ، ولكن تصرفات سيد ميران رغم الصراع الذى

كان يعانيه كانت ترجح كفة حبه لـ « همـا » دائما انه يعود الى المنزل فى فترات متقطعة من اليوم ويتعلل للبقاء فيه أكبر وقت ممكن ويفتح مناقشات طويلة تأخذ فيها « همـا » صفه دائما أما « همـا » فقد باتت ترى الثمرة ناضجة لقد حاول سيد ميران أن يقبلها ذات يوم ، لكن هل يكون مصيرها أن تتزوج على شريكة ، منذ صغرها وهى تسمع أن الشريكة كالجذام والسرطان انها لا تريد هـذا النوع من الحياة ؛ لكن مـاذا تفعل وقد سدت فى وجوهها أبواب العودة الى زوجها الى الأبد ، وحرمها أيضا من أطفالها ، لم يعد أمامها الا الاعتداء على حق المرأة المسكينة المضيافة آهو وتسرق منها زوجهـا ، وها هى تخرج صور أطفالها وتنظر اليها وتبكى ؛ وها هى آهو تسرع اليها مواسية حانية تربت عليها وتبشرها بالأزواج والعشاق يرتمون تحت أقدامهـا ، وهنا فقط تتمنى « همـا » لو أنها وجدت زوجـا غير سيد ميران ، الا أنها لا تنسى أن تصلح من زينتها قبل أن تذهب الى مائدة الغذاء .

وتمر الأيام ، لا يبدو على « همـا » أنها تريد أن تغادر المنزل ، ولا خبر هنـاك عن أقاربها التى قالت انها أرسلت فى طلبهم ، بل هى تتحدث عن قريتها الكردية حديث الساخر الذى لا يود أن يراهـا فضلا عن أن يعيش فيها ، أما آهو فكان شـكها يزداد : ان هـذا الوضع غير طبيعى ، لايمكن لضيفتها أن تستمر على هـذا المنوال الى الأبد ؛ لو فقط تقنع بالجلوس فى حجرتها كأية ضيفة وطعامها يحمل اليها ، ان الحيـاة فى الأسرة خرجت عن مجراها الطبيعى ، زوجهـا ينام فى حجرة وحده وأطفالها معها و « همـا » فى حجرة ، ان الشـك يزداد فى قلبها ، مرة تجد خصلة من شعر غريب فى حجرة زوجهـا ، ومرة يحدثها « ميران » الصغير بما لا يستطيع من هم فى سـنه أن يختلقوه ، الا أن المرأة لا تنفرد بسيد ميران أبدا ، انها تنادى طفـلا للجلوس معها كلما كانت وحيدة ، أكانت تتهرب من زوجها كارهـة

أو مذكية نار الهوى فيه ؟ كم أصبح الرجل كريما ومضيافا وبشوشا فى تلك الأيام ، حتى الأطفال ينفقون النقود ذات اليمين وذات اليسار ، حتى مصروف المنزل تدخلت فيه « همـا » ان آهو تفاتح زوجها ، لمـاذا لم يأت أقرباؤها ؟ ولا يملك سيد ميران الا أن يرد من بين دخان سيجارته : ربما كان هؤلاء الأقرباء خرافة ، وتفكر آهو : ان الأمر لا يهم سواها ، وعليها أن تكشف النقاب عنه •

تزور آهو منزل « همـا » القديم ، أخطأته مرة ووجدته مرة ثانية ، هى أخت زوجهـا التى سـوف تكشف النقاب عن المـاضى القديم ، ان أخت زوجها تهاجمها بعنف ، أحقا انها تبكى من أجـل أولادها ؟ لمـاذا لم تحافظ على شرفها وسمعتها اذن بعد أن غادرت منزلها ؟ بل لمـاذا هربت من زوجها فى الأصـل فى سبيل شاب أشقر أزرق العينين ؟ليس من الخير أن ترى أطفالها ، ماذا تستطيع أن تقول لهم ؟ لابد لآهو أن تخبر زوجها • وتعود آهو وتفاتحه ، وتثير فى نفسه الخوف ، انه لا يدرى ماذا تدبر له المرأة ، هو المتدين الطيب القلب ، ان المرأة تخرج كثيرا ولا يدرى أحد الى أين ، ولا يجيب سيد ميران الا بتقطيبة ، لقد سألها مرة الى أين تذهب فأجابت أنهـا تبحث عن حجرة لأنهـا سئمت العيش فى بيوت الغربـاء ، حتى اذا اشتدت آهو فى التكير لا يملك الا أن ينـادى « همـا » ويسألها فتنبرى له آهو متحدثة بما توصلت اليه من معلومات ، انها تخاف أن ترتفع بطنها وهى فى منزلهم ، ويصـدم سيد ميران ، لم يكن يتوقع كل هـذا من وقار زوجته ، وتأتى « همـا » ، وأمام الزوجـة أخذت فى مطاردة الفريسة ، والرجل فى حال غير الحـال ، لم تكن « آهو » تظن أن الرجل متيم الى هـذا الحد ، ثم تضرب الرجـل الضربـة القاضية ، انها مستعدة للعودة الى زوجها على الا تتدخل أخت الزوج فى حياتها•

فى اليوم التالى حبسنهم الثلوج عن الخروج ، وكان من الواضح

أن الحرب أعلنت فى البيت ، ان آهو تستدرج « همـا » فى الحديث ، فلا تحصـل منها على شىء وتحـاول أن تحرك فى سيد ميران البقية الباقية من نخوته وتخوفه من الجيران فلا يرد الا أن الجيران جهلة وأغبياء ومن صفاتهم كذا وكذا وكيت وكيت ، فاذا ذكرتـه بأن له ابنة ، أفصح عن كل أغراضـه دفعة واحدة ، انه أيضا ضائق بنظرات الناس على المقهى ، ولابد من وضـع ما للمرأة فى منزله : متعـة ، مصيبة ، داهية ، أى شىء ، لابد من تصحيح الوضـع ، ان شرفه فوق كل شىء . وترسل « آهو » تستدعى « همـا » من غرفتهـا للغداء ، وضح الخفاء ، ما كنت تخشى منه قد حدث ولا داعى لانعزالها فى حجرتهـا .

ولكن أيةليلة نابغية باتتها الأسرة ؟ آهو فى مرقدها كلمـات سيد ميران تتضخم أمـام عينيها ، وسـيد ميران يغوص فى أحـلامه السيئة ، « وهما » فى حجرتها تحس فى قلبها بردا وسـلاما ، لقد أصبحت قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفها ، وفى الصباح تحـاول آهو أن تصلح ما أفسدته وأن تطمئن سيد ميران وقد ظنت أن موقف الخوف فحسب هو الذى سـوف يدفعه الى تصرف ما ، لكن سيد ميران مكفهر يرى أن مرآة حياتهما قد أصيبت بخدش ، وأن الكلمات التى تفوه بها بالأمس فى سورة غضبه هى خير ما يعبر به عن حقيقة نفسه وهى الحقيقة بعينها ولا زيف فيها ، وها هو يفاتح زوجته فى الأمر ببساطة : ماذا ستخسر اذا جعل من « همـا » زوجة متعة له ؟ انها سيدة المنزل بلا منازع ، وهل يمكن أن تشـك فى سيد ميران بعد كل هـذا العمر ؟ أى عشق من الممكن أن يحس به ؟ لابد أن حياة المنزل الرتيبة قد أثرت فى أعصابها سـوف يأخذها بعد العيد « عيد الأضحى » الى خراسان لزيارة الامام فى مشهد ، انهـا سوف تلاحظ الأطفال فى غيبتهما ، فاذا اتهمته أن عشق المرأة قد أخذ منه عقله وأنها ليست ساذجة الى هـذا الحد ، والا فلماذا اشترى لها كل

هذه الأشياء قبل مجيئها ، هاج سيد ميران وثار ، انها لم تعرف زوجها بعد كل هــذه السنوات •

وكان صباح ، وكانت ظهيرة ، عاد سيد ميران ، وأخذ « همــا » وخرج بينما كانت آهو فى الحمــام ، حتى اذا عادا من الخــارج انصرفت « همــا » مسرعة الى حجرتها ، وجلس سيد ميران أمام آهو مطأطىء الرأس ، لم تسأله حتى عن مدة العقد المؤقت « عقد المتعة » ثم دعت له بأن يوفقه الله فى حياته الجديدة ، وألقت اليه بحزمة المفاتيح ليختار لـ « تحفته الجديدة » ما يشاء من حجرات المنزل ، قائــلة : قم واذهب الى تحفتك التى أعيتك بالتفكير كل هذه الفترة ، وها هى الأسرة تتحلق حول غداء حزين ، سيد ميران و « همــا » لا يرفعان رأسيهما ، وآهو تقدح بالشرر ، وفى الليل انصرف سيد ميران الى فراشه الجديد ، وتتحلق الجارات حول آهو يواسينها مستنكرات ، متعة ؟ لا ان سيد ميران لا يفعل ذلك ، واذا حملت فى الغد ؟ ولكن الشىء الذى لم تعرفه آهو حتى ظهر اليوم التــالى ، أن زوجها لم يعقد على « همــا » عقد متعة ، بل عقد عليهــا عقدا شرعيا دائمــا وأصبحت زوجة مثل آهو تماما ، مثل آهو ؟ لقد تمنت آهو فيما بعد من صميم قلبها أن تكون عند زوجها عشر معشار « همــا » •

***

« تأتى على الانسان بعض الأوقات لا يحب فيها أحدا ولا يريد أن يحبه أحد ، يكون ضائقــا من كل شىء ومن كل انســان ، يكون ضائقا حتى من وجوده ، لا يميل الى العمل ولا يشتهى الطعــام ويرغب من كل قلبه فى أن ينتحى جانبا ، ويركز بصره فى نقطة ثابتة ، أو أن يلقى بوجهه الدامع على وسادة ولا يفكر فى شىء » وهــكذا كانت آهو ، لم يكن على شفتيها سوى كلمــات الرغبة فى الانتحار ، وكان سيد ميران يعرف رقة زوجته ، كان يعرف أنها حية ولكنها ترى موتها

بعينيها ، وأن الأمر ليس بسيطا أو سهلا بالنسبة لها ، ولكنه كان يتحين الفرص للحديث اليها وتهدئة خاطرها ، فى تلك الأيام كانت حياته تسر كما هى ، ينام فى حجرته وتنام « هما » فى حجرتها وتنام « آهو » فى حجرة ثالثة ، وها هو يدخل الحجرة ذات صباح على آهو ، يحدثها فى أمور عادية عن المنزل والأولاد ، ويعطى الأولاد مصروفاتهم بيذخ ، حتى اذا خلت الحجرة الا منه ومن آهو ، شرعت فى البكاء ، فاذا حاول أن يبرر فعلته بأنه اشترى شرف امرأة مسكينة ، صفعته بأنه يكذب عليها ، ولا تلبث طبيعة سيد ميران أن تعود اليه ، هاج وثار : هل فعل خلاف ما يجيز الشرع ؟ وهل انطبقت السماء على الأرض ؟ ثم يتركها لبكائها ويمضى . الا أن سيد ميران مع ذلك لم يكن مستريحا الى « هما » ، لم تكن طعاما سائغا لا يخلو من المر ، هناك بالتأكيد من معارفه من يعرف ماضيها ، صبيه « عبدل » الذى حمل بعض هداياه الى منزل « حسين خان » ، وهو أيضا ضائق من الجارات اللائى تحلقن حول آهو يواسينها ويشتمن فى منافستها التى قابلت الاحسان بالاساءة ، فاذا انصرفت الجارات ، أفاقت آهو قليلا من الصدمة أجل : انها شهوة وتنتهى ، ومن حسن الحظ أن مؤخر الصداق قليل ، عليها فقط أن تعمل حتى تقصى « هما » عن منزلها قبل أن تحمل من زوجها . لكن أى تحرك ، انها مهما تحركت لا تتحرك الا فى محيطها ، وماذا يجدى ذلك ؟

انها تشكو لجارها العجوز « كربلائى عباس » فيستمع اليها ويواسيها ، ويعدها بأنه سيعمل كل ما فى وسعه لاقناع سيد ميران أن هذا الأمر وبال عليه ، ثم لا يلبث أن يقول انه لا هو ولا سواه يملكون شيئا لسيد ميران ، انه قادر ، والشرع حلل له ذلك ما دام قادرا ، أى انسان من هؤلاء المستأجرين الفقراء يستطيع أن يرفع عينيه فى وجه سيد ميران ؟ ان الجارات يقاطعن « هما » وماذا فى ذلك ؟ ولا تجد آهو بدا من الذهاب الى ميرزا نبى ، ويجمع الأخير

الأسرة فى ضيافته ، الرجل والمرأتين ، ثم يتبادل الرجـلان الحديث فلا نلمح أية بادرة تشير الى أن الرجل يريد أن ينهى الأمر وفق ما تريد آهو ، ان أقصى ما يريد أن يفعله هو أن يتعاون مع صديقه على حمل المرأة حملا على قبول الأمر الواقع ، ليست هـذه أول مرة تحدث وليست أيضا آخر مرة تحدث ، وها هى « همـا » ترتمى على أقدام آهو ترجوها العفو والغفران وأن تقبلها خادمة لها ، ويعود الجميع من الضيافة ، وقد قبلت آهو الأمر الواقع مرغمـة ، لأنهـا لا تجد بديلا ، الا أنها فى قرارة نفسها مصممة على القتال فى سبيل حقهـا الى آخر لحظـة .

ان سيد ميران فى تلك الأيام الأولى لا يرفض لآهو طلبا ، بل ويحط من قدر « همـا » أمامها ، أجـل : انها ليست الا خادمة أتى بها لكى ترفع الحمل قليلا من على كاهلها ، ويقسم بينهما الليـالى : الليـالى الزوجية للسيدة الصغيرة ، والليالى الفردية للسيدة الكبيرة ، والليلة الباقية يكون الزوج حرا فى اختيار احدى السيدتين . وتبدأ « هما » فى التفانى فى عملها فى المنزل ، وتصلى ، وان كانت آهو تقسم أنهـا كانت تخطىء فى الصـلاة ، ثم يأتى مساء كانت « همـا » نائمـة فاذا بها تتحدث فى النوم حديثا متقطعا يفهم منه أنها تحب آهو وأن الأطفـال فى مقـام أولادها ، وتوقظهـا آهو فتقبلها وتحتضنهـا ، ويحتفل الجميع بهذه المناسبة السعيدة ، ويجلسون فى أمسية هانئة ، ونظن جميعا أنه قد آن لهذا المنزل أن يعيش فى راحة وسرور ، ولكن أنى كان ذلك ؟

من التصرفات الصغيرة لـ « همـا » لا يفارق آهو تفكيرها ، هناك لابد أشياء وراء هـذه المرأة ولابد أن تكشف عنها لزوجهـا بالتفصيل ، فاذا رفضت أن تذهب معها الى حمامها المعتاد ذهبت آهو وحدها ، وتتحدث مع « الحمامية » فاذا بها تعلم عن ماضى « همـا »

كل ما هو فاضح ومخز ، وتعود آهو من الحمـام موفورة السـعادة فلاشك أن زوجها عندما يعلم كل هـذا سيسرح « همـا » سراحا غير جميل ، انها تحرص على أن تصـل هـذه الأخبار الى زوجها عن غير طريقها ، وتنتظر رد الفعل ولا شيء ، ان « همـا » توطد صلاتها بالجيران والأطفال مستعينة على ذلك بطبيعتها المرحة ، وسيد ميران يتقرب الى آهو يحـاول أن ينسيها الأمر بشتى الطرق •

فاذا كانت ليلة من ليالى آهو أخذت تدس بما تعلم لمنافستها ، والزوج يدافع عن « همـا » فاذا طلبت منه ألا يمدحها فى ليلتها أبدا ، وتواصل دسيستها يجلس سيد ميران فى الفراش ، فتثور عليه وعليها وترميهما معا بكل نقيصة ، واذا به يترك الفراش ويذهب الى حيث كان ينام أيام كانت « همـا » ضيفة ، واذا بهـا تفكر فى أن تذهب وتسترضى زوجهـا ، الا أن « همـا » كانت أسبق ، واذا بآهو تستمع الى حديث الزوجين السعيدين وهما يتشاكيان من تلك التى لا تريد أن تتركهما يعيشان فى سـعادة سويا ، ان المرأة الغبية ـ هـكذا قـال سيد ميران ـ لا تعلم أنه يعـلم كل شيء عن ماضى زوجتـه الحبيبة ، وأنها تظن أنها تأتيه بجديد ، ولابد أن تعتبر بهذه الليلة فلا تفاتحه بعدها فى ذلك أبدا ، وسمعت آهو وانصرفت وهى تسب وتشتم ، لم يبق أمامها الا السب والشتم ، ان كان ذلك يجدى ، كان ذلك ايذانا باشتعال الحرب ، فلا آهو أصبحت تطمئن الى نخوة زوجها التى أرادت أن تحركها ، ولا « همـا » أصبحت تخشى فقدان سيد ميران بعد أن سمعت منه أنه يعلم كل شيء عن ماضيها المشبوه •

فاذا كان الصباح ، انهار ذلك البناء القائم على خراب ، بنـاء التعايش بين « همـا » و « آهو » آهو تتحدث أحاديث ذات مغزى وكناية عن « همـا » ، و « هما » ترد الصـاع صاعين ، أجل انها ان كانت تحترمها قبل ذلك فلأنها كانت محترمة بالفعل ، أما ان كانت

ستبدأ فى الشجار فهى مستعدة له تماما ، وسمع سيد ميران ، آهـو لا جدال هى المخطئة ، هى التى بدأت الشجار ، فاذا به ينهـال عليها ضربا وشتما ، كان يريد أن يخيف زوجتيه معا ، واذا بآهو ، وقـد فوجئت بهذه القسوة الشديدة ، ترد على زوجها الصاع صاعين وترتفع شتائمها فيمن كانت السبب فى كل ما حدث ، واذا بغضبة سيد ميران تبلغ أوجها فاذا به يحمل عصـا غليظة ويشج رأس تلك التى كانت سيدة المنزل منذ شهر ، ويمضى عن المنزل وهو يهدد ويتوعد ، لا الى عمله بل الى مقهى حقير من مقاهى المدينـة ، لم يكن نادما ، لا ولا كان عطوفا على تلك التى عاشرته فى فقره وغناه سبع عشرة سنة ، كان كل غضبه أن ما حدث حدث أمام الجيران .

فاذا عدنا الى آهو وجدناها بين الجارات اللائى تحلقن حولها يضمدن جراحها ، ويزج الكاتب بامرأة أرمنية من الجـارات تلقى محاضرة طويلة عن سوء معاملة الأزواج المسلمين لزوجاتهم ، ولكن هذا الموقف الحزين ينتهى حين يصحو الصغير بيزن من النوم فيرى وجه أمه تحيط به الضمادات فيشبهها بالشيخ الذى يأتى الى المنزل ليقرأ روضات آل البيت وسيرهم المبكية ، وينفجر الجميع ضاحكين ، وترد الأم : أجل يا بنى ، صرت شيخة ، لكن روضتنا قرأها أبوك ، أى عيد هـذا الذى يعده أبوك لنا !

فـاذا كان المسـاء عاد سـيد ميران الى المنزل ومعه أقـارب « هـا » ، عمها وأخوها : لم يكن فرحه بهما أقل من فرح « هـا » حاولت « هـا » أن تحدث آهو ، لكنها لم تعرها أدنى التفات ، لم يكن قد بقى على العيد سـوى أيام ثلاثة الا أن الضيوف الأعزاء بقوا أربعة أيام باصرار من الصهر العزيز ، كان سيد ميران يلبس جلد السيد الحقيقى أمام أقاربه الجدد ، يعتنى بملابسه وهندامه ، يتحدث فى كل موضوع ، وتوثقت بينهم العلاقـة عندما أبدوا استعدادهم

لتوريد الحبوب اليه من قريتهم ، هـذه الزيـارة عمقت احسـاس آهو بالمصيبة ، ان كان لـ « همـا » أهل يدافعون عنها ، فأين أهلها هى ؟

قضت آهو أسوأ عيد مر بها طيلة حياتها ، تجاهلها سيد ميران نهائيا ، ومهما أجهدت فكرها لم تستطع أن تصـل الى الذنب الذى جنته لتلقى من زوجها كل هذا الاهمـال ، فى تلك الأيام السوداء أحضر لها جيرانها الدخـان فدخنت ، انها لا تستطيع أن تنسى ، مهما نسيت فلن تنسى كلمات زوجها فى تلك الليلة السوداء « لا أريد أن أراها أو أسمع صوتها ، حين أكون معهـا أحس بنفسى فى سجن » أكانت هـذه الكلمات وهمـا ؟ أكانت كذبا ؟ آه لو لم تكن قـد سمعتها بأذنى رأسها ، هـذا التغير الذى أصاب الرجـل جعل كل السنوات التى عاشتها معه هباء ، هذا الرجل لا عهد لها به ولا تعرفه ، لكن كيف تنتقم منه ، هؤلاء الأطفال ؟ لا : لتحتفظ بهدوئها ولتنس سيد ميران نهائيا ، تلك الزوجـة التى جاء بها قضـاء لا دواء له ولا مهرب منه وليعد سيد ميران الى النظـام الذى بدأ به ، هـذا أقصى ما تطمع فيه ، لقد وسطت كل من تعرف ، ولم يبق الا مهدى الصغير ، ان سيد ميران يداعبه ذات يوم فيسأله الصغير : هل تحبنى ؟ فاذا أجاب الوالد بالايجاب ، سأله الصغير هـذا السؤال الساذج الذى يلخص مأسـاة أمه : اذن لـماذا لا تأتى الى حجرتنـا ؟ وفهم سيد ميران أن الأم وسطت الطفل الصغير الذى لا يفهم ، وكان أن ذهب الى حجرة آهو ، وفى نفس الليلة ذهبوا جميعا لزيارة ميرزا نبى بعد أن عاد من مشهد ، وعادت الأمور الى مجاريها ، ولكن اية أمور ؟

لم يكن سيد ميران عادلا ، فى ليلة « آهو » لم يكن يعاشرها كما يعاشر الرجل زوجته ، وها هى « همـا » تتحدث عن خوفهـا من النوم وحدها ، ثم تروج الأحاديث عمن يتعرض لها أثناء نومها ومن يريد اقتحام حجرتها ، وحين يحل الأشكال بأن تنام كلارا معها

فى ليلة أمها تصرخ فى الليلة الأولى وهى توهم الصبية أن فى الحجرة لصا ، ولم تلبث الأمور أن زادت سوءا فها هى الخطابات المجهولة تنهال على سيد ميران من الجدران تطلب منه تطليق « هما » والا الويل ، ثم أخذت الخطابات تلمز الى عمله : « انه الرجل الذى يذهب الى زيارة مشهد وكربلاء لكنه يخزن القمح أكواما فى منزله ويحبسه عن الناس » أكانت هذه الخطابات لعبة من « هما » ؟ أم كان هناك بالفعل من له مصلحة فى طلاق « هما » ؟ ولم يلبث الخوف أن تسلل الى نفس سيد ميران ، ليس من الخير أن يلجأ الى الشرطة ، ليوصى أحد الشرطة بمراقبة المنزل ولينته الأمر ، لكن موت كربلائى عباس المفاجىء يزيد من شكوكه وخوفه ، انه يلمح الزوج السابق لـ « هما »يطاردهم أثناء الذهاب الى المقبرة ، وفى نفس الليلة يتعرض المنزل لعاصفة من الحجارة ، ويقضى المنزل ليلة مرعبة ، وفى الصباح يذهب سيد ميران الى الشرطة ، لقد كان خائفا « بدأ ينظر حوله وهو يسير ، وبدأ يعود الى المنزل مبكرا عن عادته وقبل أن يحل الظلام » ، كل هذه الأحداث لم تجعل سيد ميران يفكر فى طلاق « هما » ، ويأتى رسول من قبل زوجها حاجى بنا يطلب منها الصلح ، لكنها ترده برد قاطع أنها لن تعود الى حاجى بنا مهما كان الأمر .

ان آهو لم تيأس ، ان زوجها لم يتأثر بماضى زوجته فكيف يكون الحال ان علم أنها وهى فى عصمته ليست الزوجة الأمينة على عرضه ؟ لاشك أن الأمر يختلف ، وفى نفس الوقت كان سيد ميران يشك ، أجل انه لم ينس فرق السن بينه وبينها ، بدأ ينظر حوله ، من يا ترى الجدير من الجيران وأهل المنزل ، بأن يكون عشيق « هما » ؟ ليس هناك أصلح من ذلك الشاب « داريوش » ، لماذا أصبح الشاب يحمل الماء من البئر المشترك للمنزل كله ، لماذا أصبح يحرص على البقاء فى الفناء أكبر وقت ممكن ؟ وها هو سيد

ميران يلمحها ذات ظهر حار تمازح « داريوش » عند البئر ، واذا به يلقيها فى المـاء والجيران يقفون بين مصـدق ومكذب ، فاذا حملها سيد ميران الى الحجرة خلعت ملابسها المبللة أمامه فأفحمته بجسدها العارى قبل أن تفحمه بقولها انه ان كان يشك فى أهل المنزل فعليه أن يأمرهم بالرحيل ، انها لا تستطيع أن تعيش فى « خان » .

ويلجـأ سيد ميران الى « آهو » ، انهـا تستمع الى زوجهـا ولا تصـدق ، لقد سمعت « همـا » تتغزل فى داريوش ورأته يتحسس شعرها ، لكن ذلك كله كان قبل العقد ، وقد رقصت معه « همـا » حين اقترحوا بعض اللهو التخفف من حزنهم على كربـلائى عبـاس « يصف المؤلف هذا اللهو والرقص فى صفحات طويلة شديدة الشبه بما ذكره تولستوى فى الحرب والسـلام ، وهـذا اقحام فولكورى على الرواية ، لم يكن هدف الكاتب منه الا ذكر بعض المـأثورات الشعبية فى منطقة كرمانشاه » وحين يفاتح سـيد ميران « همـا » تدافع عن حقها فى المرح ، ان الجيران يبالغون لأنهم يتعاطفون مع آهو فى كراهيتها لها ، ويفاتح آهو فتنبرى مدافعة عن الشاب ، عليه هو أن يمنع زوجته من هذه الألاعيب ، وترى أنه على أبواب غضب جديد فتصمت ، وبينما « همـا » على هذه الحـال ، اذا بصوت سقوط فى البئر ، لم يكن أحد الأطفال ، بل « همـا » ، ويخرجها سيد ميران من البئر وهو يقسم أن يلقنها درسا لا تنساه ، الا أنه حين يخلع عنها ملابسها ، ينيمها على الفراش بكل حنان .

وينتهى الأمر بأن تبحث والدة الشاب عن مسكن ، انها تخـاف على ولدها من « همـا » فاذا كان يوم الانتقال وجدنا آهو تسرع لوداع الأسرة وهى حزينة ، والأسرة تبدى من الجزع على مصير آهو وسيد ميران الكثير ، ثم تخبر أخت الشـاب آهو بأن هما تحتفظ بصورة لأخيها من الخير أن تجدها حتى لا تسقط فى يد سيد ميران

ويحدث ما لايحمد عقباه ، وتسرع آهو الى سـيد ميران ، انه يتلقى الخبر بسخط ، ليس على « همـا » بل على الجـارة ، وبعد يومين تذهب « همـا » الى الحمـام ، ويبدأ سيد ميران بالبحث عن الصورة بين حاجيات « همـا » ، ونأتى آهو ، وبعد بحث طويل تقدم الصورة لزوجها ، وجدتها فى مكان جدير حقـا بأن تخفى فيه المرأة صـورة محبوبها ، ويتناول سيد ميران الصـورة ويشتم المحبوبه الغائبة ، ثم يغمغم : ماذا تقصد بهذه التصرفات الجنونية ، وتنصرف آهو وهى تكتم فرحها ، لقد أفلحت هذه المرة •

فاذا عادت « همـا » بعد قليل من الحمـام تكتشف اللعب فى حاجياتهـا ، ولا تستطيع أن تفاتح آهو ، حتى اذا عاد سـيد ميران تسأله « همـا » ويجيب عليها بصراحة ودونما مواربة ، ويريها الصورة، فلا تنكر لقد سرقتها ، فاذا ثار عليها ، ابتسمت : ترى لو وجدت صورة امرأة أخرى فى جيبه ، هل تتهمه بالخيانة ؟ ، ثم تعترف بألاعيبهـا السابقة ، كل هـذا فعلته لأنها تحبه ، لو لم تكن تحبه لمـا استحوذت عليه ولتركته ليلة آهو لها ان اقتناءها للصـورة ليس الا من قبيل عناد الأطفال ، أجل انها لا تتحمل أن يكون زوجها العزيز على بعد عدة أمتار منها فى أحضان امرأة غيرها أجل ، لتكن الصورة ما تكون : مؤنسة ، انتقاما ما ، أى شىء ، فهذا كله ليس الا من حبها له ، اذا كان قد فقد أعصـابه من أجل صورة ، فليأت لها كلية « ان الحب ليس نقودا تقبل التقسيم » •

اذن فهم سيد ميران أن الصورة كانت لتحريك غيرته ، ثم تتهاوى « همـا » بين يديه متظاهرة بأنها حامل ، فاذا بسيد ميران والد الأربعة يبدو وكأنه لم ينجب قبلها قط ، انه ينهار فرحا ويحنو ويدلل ولا يكاد يدرى ما يقول ، وتخرج « همـا » وهى الكاسبة من المعركة ، انه يعلنهـا : لن أذهب الى تلك الحجرة أبـدا ، وتطلب « همـا » أن تستقل فى معيشتها ، انها لا تأمن لآهو بعد ذلك ، ويستجيب سـيد

ميران ، وينحنى راكعا فوق جسد « هما » نصف العارى قائلا بصوت متهدج من الأعماق : « هما » حبيبتى ، سامحينى . وتراهما آهو على تلك الحال ، فلا تدرى كيف تتحمل الصدمة ، لم تكن تتوقع هذا أبدا ، فاذا بها تغمغم فى قهر : ليس هذا حبا ، لقد فقد الرجل عقله .

***

ويشتد المرض على « هما » ، واذا بالطبيب يفحصها يقرر أن الأمر نزلة برد وليس من الحمل فى شىء ، « وهما » تفكر : ربما كان ذلك من تأثير الدواء التى تناولته فى منزل زوجها القديم للاجهاض ، وها هى مذعورة ، ربما حرمها ذلك من الأمومة ، الى الأبد ، وسيد ميران مذعور لذعرها ، لا يجد عيبا فى أن يتردد على أوساط الدجالات وأن يجلس فى مجالس النسوة يتحدث فى هذه الأمور ، وفى النهاية يلجأ الى الطب الحديث ، هناك مستشفى أمريكى فى كرمانشاه ، هو المستشفى الوحيد ويحملها اليه .

لم يلبث أن تأيد فى المستشفى ما علم سلفا ، من المستحيل أن تحمل « هما » بعد ذلك ، لقد هون عليها الطبيب بأنها مازالت صغيرة ، وأنها سوف تحافظ على قوامها ، فى المستشفى كانت تصلها ورود حمراء كل يوم من مصدر غير معلوم . وخرجت « هما » من المستشفى ثائرة على الزوج القديم الذى لم يقدر جمالها الذى خلب لب الأطباء فى المستشفى ، وفى نفس الوقت تفكر فى سيد ميران ذلك الذى يقدرها حق قدرها ، ترى كيف تستطيع أن تحافظ عليه ؟

ان سيد ميران يعاملها بعد خروجها من المستشفى كطفل صغير مريض يستحق الشفقة والحنان ، وها هو يفكر فى بناء طابق جديد لها « لكى ترقص لزوجها وحده » ويأسف سيد ميران على الشباب الذى

مضى فتهون عليه « همـا » مستشهدة بفلسفة خيامية (!!) ، انها تستطيع أن تعيد اليه شبابه بهذا الجسد الذى لن يؤثر فيه بعد حمل ولا وضع ، ويتمنى سيد ميران لو أنه يملك العـالم كله اذن لأنفقـه تحت أقدامهـا ، ويضرب الأمثـلة على ذلك من التـاريخ القـديم والحديث (!!) .

وحين تقبل الدنيا يقبل أهل الدنيا ، وها هم الجيران الذين نقموا على « همـا » تعديها على سيدة المنزل ، يتجمعن حول « همـا » علهن يصبن بعض الخير الذى كان ينصب فى حجر « همـا » دون حساب ، « وأصبحت النقود التى تنصب بين كفى سيد ميران كالرمل تنساب من بين كفيه كالمـاء » لكن صداقة الجارات مع « همـا » لم تكن خالصـة ، كانت صداقة منفعة ، بل كان اخلاصـهن الحقيقى للسيدة الأصلية آهو ، ذلك أن غرام « همـا » بالمظاهر بعد أن أضافت اليها بند الملابس ، كان يثير فى نفس أولئك النسوة المعدمات شيئا فوق الحسد هو الخراب وسوء المصير الذى يسرع اليه رب الدار .

وبالرغم من كل ذلك لم تكن « همـا » سعيدة ، لمـاذا ؟ كانت تعلم أنه ليس لها من سلاح فى معركتها الا الجمال والشباب ، وكلاهما لا يدوم ، ففى ميدان القتال « كانت ضرتهـا كالديك المهزوم طوت جناحيها وأسرعت منسحبة الى كنها ، ولكنها حينما كانت تمر بجوارها كانت تحس تماما بقوتهـا وكبريائها انهـا وان انتصرت انتصـارا ما الا أنه مؤقت ، ان الهزيمة النهائية سـوف تحيق بها ، والهزيمة كلما تأخرت كانت نتائجها أكثر شؤما ، فى هذا الميدان هى قوة واحدة ، ولكن الطرف المنافس خمس قوى « أجل ان الحيـاة المشتركة لآهو وسيد تدوم حتى بعد وفاتهما فى شخص أولادهما » لم تعد « همـا » تحافظ على مشاعرها حين تسمع الأطفال يتناجون فى الفناء أو يلعبون أو حتى يتشاجرون ، حينئذ كانت تحس كما لو أن الجدران تخنقها ،

وها هى تستعيد نصيحة احدى الجارات العجوزات « مكانك ليس هــذا المنزل أيتها العزيزة ، ان حيــاة الضرتين أولها وجــع الرأس وأوسطها الملال وآخرها لا محالة الانفصال » • وزاد فى يأسها أن زوجها السابق قد تزوج ومن ثم فقدت الأمل فى حياة زوجية مستقرة الى الأبد •

أصبحت « همــا » تضيق من كل شىء تخاطب نفسها فى وحدتها « همــا ، همــا ، قدماك تستندان على الريح » ، وتضيق من حفيف الأشجار حين تحركها رياح الخريف ، وتضيق من صــوت الهاون يأتى دقه من بيت الجــيران ، ومن صــوت المــاء يتحرك فى الحوض ، وتضيق من كل شىء فتصرخ فى نفسها : « حياتك هباء ونهايتها هباء » ومن ثم ازدادت حالات الاغماء التى تنتابها وان كانت آهو لا ترى الا أنها من ألاعيبها ، والا فلماذا تزداد عندما يكون سيد ميران فى حجرتها ؟ أما المنزل فلم تعد تقوم فيه بأى عمل ، أى منزل ؟ انه لم بعد منزلها ، انه منزل آهو وأولادها •

ولم تمر فترة طويلة حتى أصبحت تحظى برؤيــة أولادها ، لقد سمح لها زوجها أخيرا بذلك ، وانظر الى اللمسة الانسانية العظيمــة حين يصف الكاتب زيارة الأطفال لأمهم فى منزلها عند زوجها الثانى : « كانا مطيعين مثل يتيمين ذليلين يحن عليهما رجل غريب ، وكانا يلعبان بلعبهما وكأنها أعطيت لهما لفترة معينة ، كانت نظراتهما لأمهما مملوءة بالتعبير والذكاء والادراك ولكنها كانت خجلة صامتة متهربة » كانا يقضيان مع أمهما فترة من الوقت ، فاذا اقتربت عودة سيد ميران تسرع بهما خورشيد الى منزل أبيهما ، وكم كانت هما تهتم بهــذه الزيارة ، كانت تعد المنزل وكأنها تعده لاستقبال عظيم ، كانت تتخيل الأحاديث التى ستدور بينهم كما اشترت لهما حلتين جميلتين ، التقطت لهما صورة بها ، كان سيد ميران لا يستاء من تلك الزيارات ، كمــا أنه لم يكن راضيا عنها كل الرضا •

كان سيد ميران يزداد يوما بعد يوم حبا لـ « همـا » ، وكانت « همـا » كلما رأت لجمالها سوقا ازدادت هوسا « فأصبحت احدى قدمى سيد ميران فى السوق والأخرى فى المنزل » ، كانت تدرك أنها بهذه الوسيلة تعلم مقدار حب سيد ميران لها ، لقد علمت أنها فى منزل سيد ميران ليست الا وسيلة للمتعة فكانت تلعب الدور المطلوب منها تماما ، وكان سيد ميران راضيا « لأنه قادر على اسعاد قلب محبوبته » وللمرة الأولى فى حياته يتلقى سيد ميران صفعة من امرأة ، ومن « همـا » ، ذلك أنه فى احدى حفلات الزفاف التى دعى اليها أبدى اعجابا زائدا بالراقصة ، وعلق أحد الحاضرين « امرأة واحدة لا تكفى ، اثنتان غم ، ثلاث راحة للقلب » أما آهو فقد علقت بأن الأمر يستوى لديها ، أما « همـا » فقد أسرتها لسيد ميران ، الذى أقر بعد صفعه أنه انما كان يمزح فحسب ، ان كل امرأة جميلة يراها تذكره بـ « هما » بل لم يعد هناك مجال للمقارنة .

فى تلك الأثناء كان الحديث عن الحجاب والغائه حقيقة ليست خيالا ، وبعد أن تم الأمر مع طالبات المدارس ، أتى الدور على ربات البيوت ، وقد دعى الرجال المرموقون الى مبنى البلدية مع زوجاتهم سافرات ، كان سيد ميران مثل كل من هم فى سنه يرى فى هذا الأمر هدما للدين ، كانت « همـا » أكثر استعدادا للذهاب ، ولكن سـيد عرض الأمر على آهو ، فاعتذرت بأنه لا ينبغى أن تحـاك الملابس لواحدة وتذهب أخرى ، فلم يجد بدا من اصطحاب « همـا » وهو كاره . وفى عصر ذلك اليوم الذى خرجت فيه المرأة الجميلة سافرة مع زوجها كان الناس ينظرون اليهما كمخلوقين نازلين من المريخ ، أما سيد ميران فكان يحس « أنه ارتكب جريمة الزنا وأنه يساق خارج المدينة للرجم » لم يكن الأمر صعبا ، كان الصالون الذى اجتمع فيه المدعـوون مع زوجـاتهم مثيرا للضحـك لا لشىء آخر ، فقد كانت الأزياء مضحكة وكان الحديث أكثر اضحاكا ولكن سيد ميران مع ذلك

احتاج الى الراحة بعض الوقت فى المنزل بعد « حادثة الصـــالون » هذه ، فبعض الغوغاء أسمعوه كلاما لا يرضاه بينما كان يمشى مع زوجته ، وبعد يومين كان يتسلم نصيبه من القمح من مخزن المدينـــة فاحتج أحد زملائه فى المهنة على قلة نصيبه ، وتفوه بأعلى صـــوت « كان هناك الحاد وظلم وأضيف اليهما قلة الشرف ، فاما آن تذهب وتتزوج امرأة جميلة واما أن تذهب وتضـــع رأســـك على الأرض وتموت » ، ولم يلبث أن زاد لغط الناس حـــول الحفـــل ، وجرهم الحديث الى الحديث عن الحـــكومة فى طهران « التى لم تكن حتى تشرب المـــاء دون أمر الانجليز » لقد كانت البلديـــة تأمر النســـاء المشبوهات بلبس الحجـــاب حتى تعفنه الحرائـــر ، وبعكس ما كانت الأسرة تظن أثر حفل البلدية تأثيرا عكسيا فى « همـــا » لقد أصبحت لا تخرج من المنزل الا نادرا لكن لا ، لم يكن عفافا أو احتشاما ، بل كانت تعد للأمر عدته ، لقد تعرفت على حائكة ثياب من نفس الحى . لقد آتى خلع الحجاب أكله ، كانت الملاءة تخفى ما تحتها من لباس . أما الآن فقد زاد هوس النساء الى الملابس ، فما بالك بـ « همـــا » المتهوسة أصلا ، انها تقترح على سيد ميران أن تذهب لتتعلم الحياكة ، ويحتج سيد ميران بكل ما يحفظ من آيات وأحاديث حول هـــذا الموضـــوع ، لجت « همـــا » فى الخـــلاف ، ان قوامها مثل قوام « كلارا » وكلارا تخرج الى المدرسة ، وتحور « همـــا » الحـــديث الى الوجهة التى تنتصر فيها دائما ، الى الحب والعشق ، ويحدثهـــا سيد ميران عن أحـــلامه ، تلك الأحـــلام التى فسرها المفسرون بأن « همـــا » ستصبح قدم السعد بالنسبة له ، ويعدها بأخذها للزيارة فى القريب « كانت الموعودة بالزيارة فى الأصل هى آهو فسبحان من له الدوام » ، فاذا تقدم الليل وأمنت « همـــا » عيون الرقباء قامت الى زجاجة الشراب فأفرغت كأسا لسيد ميران « الذى كان يشتريها سرا لأنه لا يزال يؤمن أنها حرام » ويشرب الكأس ترضية لخاطرها فتتلوها

بكأس آخر ، ويدور الحديث مع دوران الكأس ، ويا له من كأس ساحر حقا ذلك الذى حول الخباز سيد ميران الى فيلسوف عظيم من فلاسفة الجنس واللذة لا يباريه « أبيقور » فى هذا الميدان .

وتذهب (همـا) لتعلم الحياكة ، « ان أى تفكير يدخل فى رأسها يشبه دخول قطعـة من القطن فى زجاجـة لا تخرج الا بكسر الزجاجة » ، ولكن سيد ميران كان دائم التفكير فى المعلمة التى خلعت حجابها بمجرد أن أمرت الدولة بذلك والتى كثيرا ما شاهدها على باب منزلها تحـدث الرائحين والغادين ، ولو كان الأمر فى يد سـيد لأمر باغلاق كل محلات الحياكة هذه ، ونسمع فى هـذا الموقف رأى رجل ريفى « وهو عم همـا » فى هـذا التطور الذى يحـدث بأمر الدولة ، ان الدولة تسعى لابعاد الناس عن بعضهم بعضا ، لقد منعت لعبة « الشاه والوزير » فى المقاهى ، فهل هى تجمهر أو مجلس لقراءة الروضة ؟ أو أنها مؤتمر حربى ؟ لقد سمع من عمدة القرية « اضرب الفلاحين لا يرفعون رءوسـهم » ، ويسخر من « همـا » وتسـخر « همـا » منه ، ويحذرها ويوصيها أن تخفف الوطء على سيد ميران، لكن « همـا » واثقة من قوة تأثيرها ، ان سيد ميران يحبها لا كامرأة، بل كمظهر من مظاهر الجمال . وحين كانت أفكار « همـا » تدور فى رأس سيد ميران كان يدعو « ليجعل الله عاقبتنا مع هـذه المرأة بالخير » .

أما آهو ــ ولنعد اليها بعد هذه الغيبة الطويلة ولعل حظها معنا ومع الكاتب مثل حظها مع زوجها ــ لقد رأت آهو أن الأمر انفلت من يدها تماما ، لقد باتت تظن أنه كلما تمادت المرأة فى غيها ، ازداد زوجها حبا لها ، لقد تزلزلت عقيدتها فى الزواج والحياة الزوجيـة منذ حادثة الصورة ، لقد استراحت من رؤية وجه غريمتها ، فأصبحت تعد الطعام للأسرة وتحفظ لـ « همـا » نصيبها منه ، واتخذت من أهـل

« همــا » أهلا لها ، أما الأولاد فكانوا يحبون آباهم حقيقة ، وكان لايزال يحبهم الا أنه كان يبدو آن مانعا ما يمنعه من اظهار حنانه لهم ، فجوة تتسع يوما بعد يوم ، كانت عاطفتــه نحوهم أشبه ببركة مــاء كبيرة سقطت فيها أوراق الخريف حتى طمست ماءها تماما ، ان سيد ميران لم يعد يتعرف على بعض أطفاله وأصبح يخطيء فى اسمائهم ، أجل ليكن ، لكن آهو تحدث الأطفال عن أبيهم ، انه مشغول عنهم قليلا ، كانت تخشى أن يكره الأطفال والدهم أو أن ينسوه . وبعد أن تأكدت من عدم امكان حمل « همــا » باتت تعرف أن مسألة طلاقها مسألة وقت لا أكثر ، فانطوت على حزنها ، ورأت أن الأمر أصبح منتهيا بالنسبة اليها ، ولكن سيد ميران كان قد نسيها نهائيا .

لم يعد يحفــل بهم تماما ، أصبح يمثل تمثيليات ســعادته مع « همــا » أمامها وأمام الأولاد و « همــا » بدأت تغمز المرأة المسكينة وتلمزها ، ثم تجاوزتها الى أولادها فأخذت تقارن نفسها بكلارا ذات الستة عشر ربيعا بل وتمازح سيد ميران مزاحا ماجنا أمام الفتــاة المراهقة وأخيها الذى يقترب من سنها ، كانت آهو تفضــل أن تبتعد بأطفالها عن هــذا « الظلم القانونى » الذى يشاهدونه بأعينهم يوميا ، لو لم يكن هؤلاء الأطفال لكانت قد أراحت نفسها من هــذه الحياة منذ وقت طويل ، فقط حتى يحس زوجها بالعذاب الذى تعانيه ، انها تتعذب الى درجة الموت ولا سميع ولا مجيب لهذا العذاب ، كانت على الغذاء لا تستطيع أن تبتلع اللقيمات ، كانت تريد أن تذهب وتجلس فى ركن من أركان المطبخ تجتر أحزانها كقط مركول أو مطرود .

لقد أصبحت تقارن نفسها بـ « همــا » ، نعم : لا وجه هنــاك للمقارنة ، يداها خلقتا للعمل ، هى التى فعلت كل هــذا العز لزوجها، ومن أسف أن الثمار تجنيها غيرها ، ولم تجن هى الا الحنظل ، لقد أنجبت لهذا « السيد » المشؤوم أربعة من الأبناء ، ان جمال « همــا »

الذى يزداد يوما بعد يوم مع الرفاهية والدلال ، يصيبها بحزن ويأس ويجعلها تحس أنها تقاتل فى معركة غير متكافئة ، ويفيض بهـا ذات يوم فتحدث « همـا » انها لم نقنع بنصف زوج حتى سلبت منهـا الزوج تماما . وتجيب « همـا » : مهما كان الأمر فهو وضع مؤقت ، ان وضعها فى هـذا المنزل مثل ذلك الطائر الذى يقف على الشجرة ، انظرى .... لقد حط قليلا ثم طـار ، ولا تدرى آهو ، هل تحس بالندم لأنها أثارت كوامن الشجن عند غريمتها أم تلك المـاكرة لا تقول هذا القول الا لكى ترش بعض المـاء البارد على النار التى تشتعل بين جوانحها ، وعلى أى حال ، أتملك تلك الغريمة الجمال ؟ لمـاذا لا تجرب وتزين نفسها .

بدأت آهو تزين نفسها ، لكنها كانت تريد أن تجعل نفسها نسخة من « همـا » ناسية أن الزينة التى تصلح لامرأة قد لا تصلح لأخرى ومن ثم فقد أفسدت جمالها الطبيعى ، وأضافت الى نفسها قبحـا بالزينة المصطنعة حتى صارت مسخا من المسوخ ، وبعد زينة طويلة « وصفها الكاتب فى حوالى عشر صفحات » رفعت الستار ذات غداء ، أرادت أن تقدم مسرحيـة حب فقدمت « كوميـديا » ، ما ان رفعت حجابها ، حتى انتبه الرجل الى زينتها فضحك حتى شرق الطعام فى فمه ، وتشجع الأطفال فضحكوا ، وانتبه بيزن الصغير الى عنق أمه ولأمر ما رآه يشبه عنق الدجاجة فرفع صوته مقلدا صـوت بائع الدجاج ، وعلق سيد ميران الذى أتت زينة امرأته المنكودة بأثر عكسى تماما : أى جهد ضائع وأى شىء لا قيمة له ؟ وتخرج آهو من الحجرة وهى تهمس لنفسها : ليس بالعافية ، ان الرجل لا يريد أن يخون حبه لزوجته .... ليس بالعافية .

وهكذا يمر الزمن بآهو ، كل ما تشرع فيه يفسد ، وكل ما تفكر فيه ينتهى بهزيمتهـا ، وبالرغم من وجود الأولاد وتفانيهـا فى حبهم

وخدمتهم الا أنها كانت تحس بعــذاب روحى ينهش داخلهـا ويفسد أعصابها حتى أصبحت تشتم الأطفال عند كل هفوة ، لولاهم لذهبت ، ويرد عليها أصغرهم : فلتذهب ما الذى يوقفها ، وتذهب آهو عند احدى الجارات تبكى حتى يأتى الصغير مصالحا ومقبلا رأس آمه ، وتعود فاقدة كل أمل ، أى زهر جنته من أبيهم حتى تجنى منهم عطرا ؟ لقد صور لها خيالها أن الكراهية تتخذ سبيلها الى الأطفال ، لكنهم على كل حال كانوا الكوة التى تطل منها على مستقبل مشرق : « أجـل هذان الزوجان يعيشان اليوم فى سكون ، هذا السكون لن يجر معه الا الملل والقرف ، لكنها تعيش وتتحرك فى خدمة أطفالها أجــل ، ان هؤلاء يلعبون دورا كبيرا فى حياتها » كانت تفكر : لتمر الأيام وسوف يدق سيد ميران عليها حجرتها يوما •

لكن هيهات ، ان سيد ميران هو سيد ميران ، انه لم يعد يرى فى الفناء ، كان يتوضأ فى حجرته ، وهكذا طفح الكيل بآهو ، لابد أن تفاتحه ، انتهى ، لم تعد تستطيع التحمل ، انها تسد عليــه الطريق أثناء خروجه ذات صباح هامسة : مشهدى ، دقيقة واحــدة ، لكن مشهدى كان ينظر اليها وكأنه لا يراها ، وينظر اليها بازدراء شديد : ماذا ؟ ماذا تريدين ؟ فاذا بها ازاء هــذا الرد الجــاف لا تطلب منه الا أن يملأ الساعة (!!) ثم يفر منها سيد ميران وكأنه يفر من جنى ، أرادت أن تبكى ، لكن الطفل الصغير قلد لهجة أبيه فلم تملك نفسها من الضحك ، حتى خورشيد جارتها سخرت منها عندما وسطتها ، وبعد الحــاح طلبت من سيد ميران أن يذهب ليرى السيدة الكبرى ، ويذهب سيد ميران وليته ما ذهب ، يسأل زوجته بجفاء ماذا تريد ، فاذا ردت بأنها تريد أن تراه ، ضحك مستغربا : ألا تراه ؟ ويتجاهل أن حياء المرأة التى عاشرته سبعة عشر عاما يهيب عليها نفســها أن تزيد ، فاذا قالت : هل نسيت أننى زوجتك ؟ ان كان قد نسى ذلك فلا يمكن أن يكون قد نسى أبوته ، ويطاطىء سيد ميران رأسه خجلا ،

نعم لك حق يا آهو ، لكنى لا أدرى ماذا أصنع بك ؟ آجل تستطيع أن تفعل شيئا ، ان لم تكن قادرا على العدل سرح واحدة وأنا مستعدة. أنت تهذين يا آهو ، ويحاول أن ينصرف فتسد عليه الطريق ، ينبغى أن يقرر مصيرها فى التو واللحظة ، واذا بسيد ميران يرد : مصيرك تربية الأطفال ، ينبغى أن تكون المرأة صبورة ، فقد كان هناك نساء لا يرين أزواجهن الا بعد الزفاف بسنوات ، وترد بسخرية وهناك رجال لم يخرج على ليلة زفافهم صبح منذ عامين ونصف ، ثم تنفجر فتحاسبه على الماضى كله ، على كل ما فعله وعلى كل ما يفعله مع الأطفال ، ويحاول سيد ميران أن يرجئها الى حين ، ان المهلة واجبة فى الشرع ، لكن آهو لا تتركه يمضى فى طريقه ، اذن ماذا يفعل سيد ميران الذى لم يتعود على الرياء ، انه لم يكن يدرى أنه سيواجه هذا الموقف بهذه السرعة ولم يكن قد أعد له عدته ؟ لقد زاد هذا التصرف فى بغضه لها ، لقد قتل ميله اليها ولن يستطيع حتى المسيح أن ينثر الماء على قبره فضلا عن احيائه ، فاذا به يخلص نفسه منها ، فترجوه الرحمة فينفجر بغضه كله .

انه يصيح فيها : لا أريدك ، أنا ضائق بك ان كان الأمر بالاكراه فاقتلينى ، كلما حاولت أن أقاوم نفسى لم يستطع قلبى أن يصفو لك ولن يستطيع ، فاذا سألته وماذا فعلت حتى تستحق كل ذلك ، أجاب : لا شىء مجرد احساس ، ورفعت عنه آهو يدها وجمدت فى مكانها « كانت ضربة مهولة كالصاعقة انقضت على كل وجودها فدكته دكا ، وشلت روحها وجسدها ، كأن المرأة المسكينة ترى حبها يدفن وهو حى ، ليتها ماتت قبل أن تسمع هذه الكلمات « أما سيد ميران فقد جلس يدخن سيجارته هادئا بعد أن أخرج كل ما كان فى قلبه ، كانت آهو تسح الدموع بعد سبعة عشر عاما من الحلو والمر ، لمن تشكو والى أين تمضى ؟ كان حديث الرجل ظلما لكنه قانونى ، ان رجلها

قد تكشف عن وحش ، ألهذه الدرجة يراها حائلا بينه وبين حبه لهذه المرأة ؟ ويخرج سيد ميران وهو يقول بصوت عال لكن بهدوء : ينبغى أن أبحث لنفسى عن منزل بعيدا عن هذه البومة التى تنعب على رأسى بين آن وآخر ، اننى لم آخذ منها مال أبيها ، وسوف أنفق عليها وعلى أولادها والسلام ، انتهى الكلام .

لم يكن سيد ميران هو ما تريده آهو كما ظن ، ذلك أنه فى الليالى التى كان يأتى اليها فيها كانت محرومة منه ، لكن سيد ميران يريد أن يقطع كل علاقة الآن ويقال أن الطفل هو رباط المحبة ، لكن يبدو أن الأمر انعكس ، انها تريد منه أن يهتم بأطفاله فحسب ، وفيما يبدو لم ترض « هما » هانم بأن تكون خادمة لها ، لماذا كرهها سيد ميران الى هذا الحد ؟ ولماذا يخاف منها هل أوحت له « هما » أنها ربما دست له سما فى الطعام ؟ ماذا تفعل جربت الأولياء كما لم تبخل بوسائل الشيطان ، ودون فائدة .

ان الرجل يغلق الباب بعد العشاء بينه وبين العالم ، ثم ينسلخان عن الوجود ويعيشان حياة لا يطمح خيال آهو الى تصورها ، ان خلوتهما مفهومة نقلتها الى آهو تلك المرأة المسماة أكرم التى تتجسس عليهما ، لكن هذا الجزء الذى تتحدث فيه « أكرم » الى آهو يعد من أشد مزالق الرواية فهى لا تضيف الى معلوماتنا جديدا عن شغف سيد ميران بـ « هما » ومن ناحية أخرى شديدة العمق بحيث لا يتصور القارىء أن السيدة أكرم تستطيع أن تعيد هذا الكلام العميق ان صك مسامعها ، فهل يعقل مثلا أن يقول سيد ميران « نحن عقدنا ميثاقا فى عالم التوحد أن نسبح سويا فى عالم الجنون ، وما دمنا وحدنا والباب مغلق فليس أمامنا الا الألعاب والقصص والحكايات » أو يقول ذلك الخباز ــ لافض فوه ــ « ان دواء النسيان الذى بحث عنه عارفونا طوال عشرة قرون فى زوايا دور الخمر والتكايا ولم يجدوه

وجدناه نحن فى حبنا الخالد » ما شاء الله ! الا أن حديث أكرم ليس كله عديم الفائدة ، انها تخبر آهو أن غريمتها لاتزال على علاقة بذلك الرجل الذى أفسد زواجها الأول . وأنه هو الذى كان يرسل اليها الورود الحمراء فى المستشفى « ان الكاتب قوى الذاكرة حقـا » ، كما تعلم أن زوجها أدمن الشراب وأنه يتاجر فى المهربات وأن خياطة « همـا » هى التى تقوم بتوزيع البضائع .

فاذا تقدمنا فى الرواية دخلنا مع « همـا » فى عالمها الخـاص فى دروس الحياكة ، وتتعرف منها الى صـديقتها « سـوسن » ووالدها الموظف الكبير فى الدولة ، ويتحدث المؤلف عن دخـول السـينما فى ايران كحـدث اجتمـاعى كبير ، ان « همـا » تريد أن تذهب الى السينما ، ويتحدث سيد ميران عن السينما كرجس من عمل الشيطان ، الا أن « همـا » تناقشه كعادتها ولا يملك الا أن يضحك وهو يقول : كل هـذا فى سـبيل الذهاب مرة الى السينما ، ولا يملك كعادتـه الا الانصياع الا أن سيد ميران ليس مستريحا الى علاقات « همـا » الجديدة ، انه يطلب منها أن تعود مسرعة الى المنزل ، ويرسـل ولده الى أمه يطلب منها أن تخبره اذا عادت « همـا » متأخرة عن موعدها ، الا أن آهو أزمعت من التجـارب المريرة ألا تتدخل فى حياتهما قط ، وتعود « همـا » ويتشاجر معها سـيد ميران ، ويبدأ ثانيـة يفكر فى آهو .

ان الأيام تمر وهو لا يراها ، لقد ظل يراقبها فترة طويلة حتى تأكد أنها لا تخفى أية نيـة ، « كانت تتصرف كجارة عاقلة حسـنة الأخلاق ، لم يعد يسمع صوت ضحكتها ، ولا صوت بكائها وعويلها أو صياحها مع الأولاد ، كأنما رضيت بقدر ترملها ، أو وقر فى قلبها ألا تقف حجر عثرة فى طريق زوجها ، لم تكن تشكو من ظلم الحبيب ولا من جفاء الرقيب ، أراحت جسدها من الحسد الذى يبريه وروحها من الغل الذى يحطمها » ، كانت فى المرات القليلة التى تتحدث اليه

فيها تتلعثم وكأنها تتحدث الى انسان غريب ، كانت تقوم بكل أعمال المنزل حتى غسل الملابس لهما ، كانت ترسـل الى زوجها فى حجرته ما تعلم أنه يحبه من طعام ، بل كانت تفتح لهما الباب بعد عودتهما من سهرة دون أن تسأل أين كانوا ودون أن تتذمر انها فزعت من نومهـا ، أجل كان هنـاك هاتف يهتف فى أذن السيدة آهو : « اصبرى ... اصبرى ، حين يرتفع ماء النافورة ينتكس » كانت آهو تكافح ضـد انسانيتها ، تحاول أن تقتل الأمل فى نفسها ، بل قل انه قتل ، كانت تسمع أن زوجها قد سار شوطا بعيدا فى حبه للمرأة فلا تعلق ، علمت أنه يصحبها الى منزل حسين خان الطبال لترقص له وحده وسط جمع من الموسيقيين والطبالين ، وتلك الليلة التى عاد فيها زوجها محمولا على الأعناق وهو مغمى عليه ، ألم تعلم أن « همـا » كانت ترقص له عارية وأن الشهوة والشراب قد اجتمعا عليه حتى جندلاه ، أجل ليكن، كل انسان يحصد ما تزرع يداه ، انها لن تتدخل فى حياته أبدا .

كانت الحوادث الصغيرة تتجمع على وجود آهو ، ماتت جارتها العزيزة ، « نقرة » بينما كانت مع زوجها يعملان فى حدائق ميرزا بنى وبعد أن مات زوجها جاء وحده الى المنزل مهدما ولم يلبث أن لفظ أنفاسه بين جيرانه ، « وصف الكاتب لموت الزوجين من أروع ما فى الرواية ويبدو فيه التأثير المباشر لروائع الكلاسيكيات الروسية » ، أحست آهو أنها سوف تلحق بجارتها ، انها لا تحمل حقدا لسيد ميران لتمت هى ويبقى هو لتربية أطفاله ، انه لم يقم بأمر عجيب ، انه رجـل والرجل اله المرأة يصنع بها ما يشاء .

وتصل هـذه الوصية الى أسماع سيد ميران فيتعجب ، لابد أن يصالح آهو وفى أقرب فرصـة . كان الشتاء قد مر فى هدوء ، استطاع سيد ميران بسلوكه الوحشى أن يحقق السلام فى المنزل ، كانت « همـا » قد حرمت من زيارة أطفالها ، فأخذت تفيض حنانها على الأطفال ، ومر الشتاء وبدأ سيد ميران يضيق بـ « همـا » ويتقرب

الى آهو ، ولم يكن ذلك الا ليستغل عداوتها الطبيعية لـ « همـا » فى التجسس عليها ، الا أن آهو كانت قد تعلمت ، فاذا سألها سـيد ميران عن « همـا » أجابته بأنها تحبه أكثر من أى شىء فى الوجود ، فاذا قص لها بعض ما يصـل الى أسماعه هو خاصة حول جولاتها مع تجار الأقمشة فى الأسـواق ، وجدت آهو الضوء الأخضر واستفاضت فى الحديث ، الا أن سيد ميران لم يكن ليصـدق ما يقال عن « همـا » اذا كان من فم آهو ، ثم ان « همـا » كانت تستطيع اسكات سيد ميران والاستحواذ عليه تماما بزينتها وسلوكها الجنسى « الذى لا يفتأ الكاتب يعيد فيه ويزيد كلما شك أننا قد نكون نسيناه » ، وخـلال تلك الأحداث البسيطة ، نحس أننا نحارب معركة خاسرة مع آهو ، واذا كنا نلمح فى المعركة بعض بوارق الأمل ، الا أنها لا تلبث أن تخبو وتتركنا مع آهو أشد يأسا .

لقد أصبح سـيد ميران ـ خاصـة حين يـكون بعيـدا عن « همـا » ـ يفكر ، تلك والله بارقة أمل ، خاصـة اذا علمنـا أن موضوع التفكير كان المـال ، لم يكن ليجد أحدا يشكو له الا آهو ، وبالرغم من أن آهو كانت آخر من يستحق مشاركته هموم حالتـه المـالية ، ان « همـا » لم تكتف ببعثرة أموال سيد ميران ذات اليمين واليسار حتى أغرت أهلها فطمعوا هم أيضا فى أمواله ، وها هم يأخذون النقود منه بحجة توريد الحبوب ، فلا هم وردوا الحبوب ولا ردوا النقود ، اننا نعلم أن أحوال سيد ميران المـالية فى غاية السـوء ، ويتحدث سيد ميران مع آهو عن أعماله التى تتدهور يوما بعد يوم ، وعن الأولاد ومستقبل الأولاد ، ان آهو تحس بلهجة سيد ميران ان فيها بعض ملامح الأنس القديم ، فاذا سألته : وهل تعلم « همـا » ؟ رد بأنه كان قد تعهد لها ألا يحدثها عن أحواله المـالية ، ومن ثم فهى لا تعرف أنه مدين ، وأنه لا ينبغى لكلارا أن تذهب الى المدرسـة منذ أول العـام الدراسى ، ولكن الرجـل يدافع عن تدهور أحواله

المـالية دفاعا غريبا ، ان كل من هم حوله قد أثروا بطرق غير مشروعة، بالتهريب والغش وانقاص الموازين والمكاييل ، ثم لا يتحمل طويلا فيشكو من اسراف « همـا » وينعس سيد ميران فينـام فى حجرة آهو ، وتقوم آهو على أغلى ملاءاتها تغطيه بها ، ويدخل الأطفـال فلا يصـدقون أنفسهم ، ويسيرون على أطراف أصابعهم . والفرح فى وجه كلارا لا تستطيع أن تكتمه ، حتى اذا استيقظ سيد ميران أخذ يداعب زوجته ، ونعلم أنه فى سبيل أن يعود اليها قلبا وقالبا ... ثم جاءت « همـا » . وقفت على الباب ، فوقف سيد ميران لوقفتها ، وسخرت ثم مضت فى طريقها فأسرع سيد ميران خلفها ، انها تبدل ملابسها لتخرج ، فاذا وقف سيد ميران فى طريقها تحدته . ثم أغرته ، وتجىء آهو لتخبره أن الطعام جاهز ، يأمرها أن تحمله اليه الى حجرة « همـا » . ان « همـا » تعاتبه أنها رأته فى حجرة آهو ، فاذا رد بأنها هى الأخرى زوجته ، ردت بسخرية : أجل الأولى والأخـيرة . ان « همـا » تفكر فى ترك المنزل فى التو واللحظة ، فقط لو وجدت من عشاقها العديدين واحدا يستطيع أن يوفر لها الحياة التى تعيشها فى منزل سيد ميران ، من أسف أن الشباب فقراء وأن الأغنياء فقط هم العجائز ، انها لم تعد تطيق ، وها هى تعلن لسيد ميران أنها ان رأته ثانية فى حجرة آهو ، فسوف تغادر المنزل فى الصباح وتعمـل راقصة « أكان تهديدا أو أمنيـة » ؟ وبرغم الفحش الذى ينطـلق من فم « همـا » فان سيد ميران لا يرد الا بقوله هب أنه نسى أن آهـو زوجته فهل يمكن أن ينسى أبوته ، ويكون الأولاد وآهو قد جاءوا على صياحها ، فتنظر اليهم بكل احتقار ، وتطلب « همـا » أن يطلقها وترد آهو بل عليـه أن يطلقها هى ، وتنفجر مشـاجرة بين الغريمتين و « همـا » هى التى تكيـل لـ « آهو » ، وسـيد ميران يقسـم لـ « همـا » أنها لن تخرج من منزله الا فى نعشها ، كان سـيد ميران ضائقا لأول مرة من « همـا » لكنه كان يحبها وكان أيضا يخـاف

من فضيحة ان سرحها ، فلا يجد من يصب عليه غضبه الا آهـو ، فيقذفها بالسساور ، وتسحب أولادها خارجة من الحجرة قائلة : هيا نذهب ، لقد حول عشق الشيوخ هـذا الرجل الى مسخ ، وبينمـا يكون سيد ميران خارجا توقفه آهو ، انها تريد منه أن يوضح موقفها وموقف أولادها • فيقول لها : موتى ، فـاذا قالت : والأولاد رد : فى داهية هم أيضا ، فاذا قالت انهم أولادك أيضـا تنصل منهم ومن أبوتهم • ويحملها حملا ويخرجها من الدار ويقف أمام الجيران صائحا بأنه ســوف يطلقها فى الغد ، ويقف أمام أولاده فيخبرهم أن أمهم ماتت ، وأن عليهم أن يتعايشوا مع زوجة أبيهم مثل عشرات ومئـات الأطفال ، ويجلس سيد ميران يفكر فى مصـير آهو ويحدث نفســه باستهانة : لتمض عن طريقه ، انه لم يعد يستطيع •

لا ندرى أين ذهبت آهو ، لكن الأطفال يخرجون عن طورهم ، انهم يعلنون العصيان فيركلون الطعام الذى يقدم لهم ، و « همـا » تشكو منهم لزوجهـا ، وها هو يرســم مستقبلهم من جديد ، ليخرج بهرام من المدرســة الى الدكان ، انه لم يلعب وهو فى سنه ، وكلارا سوف تجلس هى الأخرى فى البيت ، ان « همـا » ضائقة من الأطفال تحس أنها ســوف تتورط فى خدمــة أربعــة لم تلدهم ، انها ترجو سيد ميران أن يذهب فيصلح آهو ، انها لن تسكت وسوف تفضحه أمام أصدقائه ومعارفه ، لكن سيد ميران يرجوها ألا تحدثه فى شأنها قط •

أما آهو فلم تكن قد خرجت من منزلها ، لقد انتقلت من حجرة الى حجرة حتى وصلت حجرتها دون أن يراها أحد فى الفناء ، كانت تبكى وتضحك فى آن واحد من هـذا الوضع الذليل ، لم تكن تفكر فى حسنات الطـلاق أو سيئاته ، ولمـا علمت من أولادها أن زوجهـا كسر صـندوق مجوهراتها قالت بغل انها ســوف تعيش حتى ترى سيد و « همـا » يشحذان ســويا فى الطرقات ، ثم أدركت أنهـا

تتحدث أمام غرباء فأمسكت و « همـــا » خـــلال ذلك كله لاتزال تحدث سيد ميران فى أن يطلقها هى ، وهو يقسم بالأيمان المغلظة أنه لن يفرق بينهما الا الموت ، وترد « همـــا » بأنه لو مات قبلها فسوف تدفن نفسها معه حية كما يفعل السيث الهنود (!!) ، ان سيد ميران سوف ينهض فى الصباح فيطلق آهو وينتهى الأمر •

ولكن سيد ميران دفع ثمن ظلمه لآهو غاليا فى تلك الليلة ، فلم يكد ينتصف الليـــل حتى دهمت الشرطة منزله بحثا عن البضـــائع المهربة ، قلب المنزل رأسا على عقب ثم انتقل الى الحجرات المؤجرة ، وفى النهاية ضبطت البضـــائع فى حجرة « همـــا » ، وأخذوا سيد ميران ومضوا ، وبالرغم من أن سيد ميران كان يعلم فى قرارة نفسه أنه برىء ، الا أن الأمور لم تجر وفق ما يهوى ، وبرغم المصروفـــات التى أنفقها الا أن التهمة ثبتت عليه وحكم عليـــه بالغرامة ولم يكن الأمر سهلا بالنسبة لسيد ميران ، انه يدرك أن كل ما حدث له انما حدث من تعديه على آهو بغير ذنب ، وها هو فى اليوم الأخير لعودته من المحـــكمة يشترى بعض الحلوى ، ويذهب الى حجرة آهـــو ثم يستدعى « همـــا » وتجلس الأسرة التى لم تعد تجتمع الا فى المصائب• ونفهم من حديث سيد ميران أن أموره آخذة فى التدهور ، ثم يقترح أن تذهب الأسرة كلها الى نزهة فى حديقة فى اليوم التالى ، فاذا سأل طفل : حديقتنا ؟ أدار سيد ميران وجهه قائلا : حديقة أخرى ، حديقتنا بعيدة •

***

فى صباح اليوم التالى تخرج الأسرة كلها الى الحديقة ، حينما يصلون يتمدد سيد ميران تحت شجرة ، وتنطلق « همـــا » فى الحديقة هنا وهنـــاك وتشغل بغناء بهرام الحزين الذى يعانى من حبه لابنـــة المرأة الأرمنيـــة جارتهم ، وتتحدث معه « همـــا » وتســـدى اليه

التعليمات « طبعا » ويجدها الكاتب فرصة لكى يصف لنا الحديقة فى الربيع فى صفحات طويلة وكيف لا وخلفه تراث الأدب الفارسى فى عشرة قرون وهو حافل بهذه الأوصاف ؟ الا آن ما يهمنا من هـذه النزهة هو ذلك الحديث الطويل الذى دار بين سيد ميران وآهو .

لم تكن آهو تدرى من أين تبدأ الحديث ، كانت خائفة ومضطربة، ثم تبدأ بأن تشكر الله على صحة سيد ميران بعد كل ما حدث ، ويشكو سيد ميران مما حاق به على أيدى عمال الحكومة ، ويشير من طرف خفى الى « همـا » ، انها مثل المرأة التى أرسلت الحكومة عمالها وحملوا زوجها لاعدامه واذا بها خلفه تصيح : ذلك المعطف الفلانى اياك أن تنسى أن تشتريه ، وتعلم آهو من زوجها أنه باع الحديقة وباع الأرض ، ويعترف سيد ميران أن كل ذلك من أجل المرأة التى لم يعد يستطيع أن يحدد متى يمكن أن يفكر فيهـا جديا ، وها هو مهدى الصغير يرى الدموع على وجـه أبيه فيصمت ويقاوم البكاء وتسأله آهو : أهكذا كانت حياته دائما ؟ وأليس هـذا هو ذنبه ، ويتشاغل سيد ميران بالحـديث مع الطفل : هـل تحب أمك ؟ نعم ويضرب الأمثال ، وهل تحب أباك فلا يجيب . وها هو سيد ميران فى صحوة من ضميره يحدث زوجته قائلا : « أعلم أننى مدان منك بكل ذرة من وجودك ، أعلم بأنك حكمت على بأننى مذنب ، ذنبـا مهما تبت عنه ومهما كانت توبتى نصـوحا ، فان أثر الظلم الذى حاق بك لن يمحى من قلبك أبدا . أنا أيضا حكمت على نفسى بأننى مذنب ، وأنا أيضا لا أكره نفسى فحسب بل أخاف منها ، أنا فى نظرك وفى نظر كل من يحيطون بى ويعلمون شيئا عنى رجـل فاجر وفاسـق وغير مسؤول ، أما فى نظر نفسى فأنا انسان مجنون سيىء الحظ » وتجيبه زوجته انه عاشق ولا حرج على العاشق ، ويجيب : « أجـل مرات كثيرة كنت أدخل من الباب وأنا مصمم على أن آتى الى حجرتك بين أولادى لكى أضـع حدا لهذا الظلم ، لكنى بمجرد دخول الفناء أجد

نفسي قد اتجهت الى الناحيه الأخرى وسرت اليها عدوا » ... « أجل يجب أن أعترف بيني وبين نفسي أنني الآن أختلف عن سيد ميران الذي يعرفه الجميع » .

ان رفاقه في المهنة دون أن يخطروه أو يعلموه قد اختاروا شخصا آخر ليكون نقيبا لهم ؛ ولم يختاروا الا صديقه ميرزا نبي ، ويمضي سيد ميران شوطا واسعا في اعترافاته ، انه لا يستطيع أن ينام ما دامت « همـا » يقظة لقد توسـل بالخمر ثم أدمن الأفيون بعد الشراب ، واذا بآهو تخبره بأن الله غفور رحيم ، لكن ألا تعلم « همـا » ذلك؟ ألا تعلم أن زوجها انجرف في تيار التهريب من أجلها ؟ لا ، انهـا لا تعلم ، اذن ليبق سرا بيننا يا زوجي العزيز ، وبعد أن تعلم آهـو كل ذلك تجد في نفسها الشجاعة لتسأله : وما المصير ؟ ألا تزال تفكر أن « همـا » تريدك لشخصك ؟ ألم تسمع قصـة ذلك الرجل الأعمى الذي عاد الى منزله ببد خالية لأول مرة بعد الزواج بسبع سـنوات فعلمت زوجته أنه أعمى ؟ كانت كل مرة تنظر الى يده وهـذه المرة فقط نظرت الى عينه . لابد لسيد ميران من حل ، ليجرب أن يعيش بعيدا عنها ، لمـاذا لا يرسلها عند أهلها أسبوعا ؟ ليجرب ، أجـل لكن هل آهو مستعدة للصفح عنه ؟ الصفح عنه فقط ؟ ان كل وجودها يصبح حينذاك ملكا له .

لكن سيد ميران حين راح في النوم أخذت آهو تفكر : أتكون هذه لعبة جديدة من ألاعيب غرام الشيوخ ؟ كانت « همـا » تتمتع بالرحلة بينما آهو تتجرع الحنظل من اعترافات زوجها ، وكان سيد ميران غارقا في لجة من أفكاره :

على أي شيء تعتمد علاقته بـ « همـا » ؟ أيظل في شراكها حتى تقوده الى العدم ؟ لقد اقترح عليها بعد شرح طويل وجامع أن يقلعا

عن الشراب فوافقت لكنه أخفق عند أول لقاء معها دون شراب ، وهو يدعوها الى الاقتصـــاد فتجيب :

وهل تسير فى الطرقات حافية أو عارية ؟ أنه يعلم أنه شيخ وأنه يرى شبابه الذاوى فى جسد تلك المرأة ورغبته فيها تزداد تأججـا وعمقا بفعل الشيخوخة وفى قاموس الزمان ليس هنـاك معنى للتوقف والتقهقر محـال ، انه يعلم تماما أنه يواجه طريقا مسدودا ، ويعلم تماما أن حياته مع هـذه الحسناء لن تسير كسابق عهدها ، الا أنه يحس أيضا من أعماق قلبه أن حياته من بعدها لن تصير أشد خواء وأكثر عذابا من جهنم فحسب ، بل سيكون كمصباح فى مهب الريح ، يعلم تماما أن « همـا » لن تودع حياتها بعد طلاقها منه بل ستبدأ الحياة مع زوج آخر مناسب لها . أما « همـا » فكانت ترتدى ملابسها بعد أن استحمت فى الحديقة وهى تكفر ، انها ان تركت سيد ميران لحظة واحدة خاليا فكأنها تسلم القط مفتاح الكرار ، من آسف أنها لم تسمع أحاديث سيد ميران مع زوجته ولم تعلم أية مؤامرة جديدة دبرت لها ، لو أنها لم تقم بتلك الألاعيب التى أبعدت بها الرجل عن زوجته وصورتها بصـورة الشهيدة المظلومة ، أجل كم « كانت » سعيدة بذلك الحب الذى « كان » سيد ميران يخصها به ، وكم سعدت حين أخذ منها صورة أولادها وخبأها فى مكان لا تعرفه ، وها هى تخاطب زوجها فجأة : ست سنوات مرت ، ست سنوات من الجنون وكأنها ستة أيام ... لكن ... ان الأيام تعزف لحن الفراق أيهـا العزيز . وكان يوما ، عادت الأسرة الى المنزل والآمال تملأ كل قلب كل فرد منها لكنه كان يوما واحدا فحسب .

كان سيد ميران اذن يفكر فى الخلاص من « همـا » ، وكانت « همـا » على ما هى عليه ، لا تدرك أن الأمور تغيرت وأن عليهـا أن تخفف قليلا من غلوائها ، الا أنها كانت تفكر فى أن الحيـاة مع

سيد ميران لم تعد تناسبها : وها هو سيد ميران يراها تسير فى الشارع بثوب مكشوف مما عرضها لمعاكسة الرائح والغادى ، ويدخل خلفها الحجرة ثائرا : هل جاء الدور على شرفه ؟ ولا تحاول « هما » أن تهدىء سيد ميران كما كانت تفعل ، انها تلج فى الخصومة ، أجل انها قضت على حياته وتريد أن تقضى على شرفه ، ويشير سيد ميران الى الشارع : اذن الى الشارع الذى منه آتيت ، وتجمع ملابسها فيرق قلب سيد ميران فيهبها كل ما اشتراه لها وتتراجع : لن تحمل الا ما تسمح به آهو هانم ، لقد ملت الحياة فى هذا المنزل آهو حزينة ، وهى خائفة ، ثم انها منذ اليوم الأول كانت تدرك أن سيد ميران لا يناسبها ، ورغم صمت سيد ميران فان « هما » تنفذ تهديدها وتخرج واذا بسيد ميران يدرك فجأة أن لها أهلا ، عليه أن يرسل لعمها فيضع يده فى يده وينتهى الأمر .

وحتى المساء لم تعد « هما » ، ويكلف سيد ميران خورشيد بالبحث عنها ، وتخرج هى الأخرى بعد أن تقول لسيد ميران « المرأة التى تجعل من حبها أنشوطة تخنق بها الرجل لا تلبث أن تختنق هى بنفس الأنشوطة » الا أنها تغيب ، وسيد ميران قلق دائم النظر فى ساعته ، فلا يجد بدا من الاستعانة بزوج أكرم بعد أن أخبروه أنه بوليس سرى ، وفى الطريق بينما يبحثان تحدث حادثة مضحكة مبكية ، واذا بزوج أكرم الغشوم يشير الى امرأة عارية الذراع تقف فى نافذة منزل مشبوه ، ويصيح بسيد ميران : هذه هى امرأة عارية الذراع ، وكأن هذه الصفة لا تنطبق من بين كل نساء كرمانشاه الا على « هما » ويصمم سيد ميران على طلاق « هما » ، لن يستطيع أن يرفع وجهه فى أحد من المنزل الا اذا طلقها ، ويمضى الى الشيخ فينطق اليمين ويكتب الوثيقة لكنه يرجىء التوقيع الى اليوم التالى .

وعاد الى المنزل فألقى بالخبر الى آهو ، ماذا ؟ مستحيل ، وهاجت

النسوة ، زوجها ؟ زوجها لها مرة ثانية ؟ انها لا تصـدق ، أخـذت تنظر اليه كتاجر ردت اليه بضاعة فقد الأمل فيها ، وفى الليل تحلق الأولاد حول أبيهم وقضوا ليله لم تسمح « همـا » ولم يسمح الدهر بأن يقضوا مثلها من زمن طويل ، وفى اليوم التالى ، دخل ميرزا نبى يجر خلفه « همـا » ، كانت قد أمضت اليوم الأول فى منزل حسين خان ، وفى الصباح لقيت ميرزا نبى ، ويرد سيد ميران : لكن لحسن الحظ أو لسوئه أن الأمر قد انتهى ، سبق السيف العزل ، لا هذه المرأة زوجتى ولا أنـا زوجها « ويبهت ميرزا نبى ، لكن كل الأطفـال يؤيدون الخبر ، ويأتى عم « همـا » وهى مختبئة فى حجرة خورشيد، بينما كان جالسا مع عمها انطلقت أحاديث النسوة ان ميرزا نبى راودها عن نفسها وأبدى استعداده للزواج منها ان طلقت ، وها هو العم يرجو سيد ميران أن يقتلها ولا يطلقها ، ويطلب منها أن تذهب معه الى القرية فتسب القرية وأهل القرية بطريقة لا تثير فى نفس سيد ميران الا الضحك ، وتطلب من سيد مفتـاح حجرتها بدلال يخرجه عن طوره وينسيه كل ما كان وينسيه أنها أصبحت حراما عليه ، ويمضى معهـا الى الحجرة بينما آهو تضرب كفا بكف قائلة : كم من الأشياء العظيمة لم نرها بهذه العيون الصغيرة .

صممت آهو على أن تحذف سيد ميران من حياتها الى الأبد ، وأن تهتم فقط بأولادها ، وتعود كلارا من المدرسـة شاكية لأمهـا من شاب يلاحقها ، ولا تظن الأم الا سوءا ، ان سـلوك « همـا » يؤثر فى ابنتها ، أين القـانون الذى يحمى النساء فى البيوت حتى يحمى البنات فى الشوارع ؟ لكن الأمر كان على عكس ما ظنت آهو : ان الشاب جاد ، وقد أرسل لخطبة الفتاة ، وتحدث سيد ميران فيحدثها بكل ود ، ان طلاق « همـا » سوف يكون نهائيا حين يحضر عمهـا المحصول ، وتعطيه آهو ما ادخرته يستعين به على أحواله ، ثم تحدثه عن أمر كلارا فنعلم أن الشاب على يسار ، وتتقارب الأسرتان وتدعو

أسرة الشاب أسرة الفتاة الى نزهة ، وفى النزهة نفاجأ بـ « همـا » تغرى الشاب المتقدم للفتاة والشاب يستجيب لاغرائها ، وعندما يعود الجميع الى المنزل تخبر « همـا » سيد ميران أن الشاب ليس جادا وهو يريدها هى ، ويتحدث سيد بما صك مسامعه من صفات الشاب الذميمة ، وتفشل الخطبة .

***

ينتقل بنا الكاتب بعد ذلك الى الحديث عن حياة سيد ميران خارج منزله لنعلم من أحواله ما خفى علينا ولنطالع جانبا من جوانب التطور الاجتماعى فى ايران فى تلك الفترة . وبالرغم من اختيار ميرزا نبى نقيبا للخبازين الا أنه لم يستطع أن يقوم بدور سيد ميران فى الدفاع عن أبناء مهنته ، ويسوق المؤلف بعض الحوادث التى أدت اليها القرارات الجديدة مثل القرار الذى صدر بضرورة الحصول على تصريح بدفن الموتى .

ويمرض سيد ميران ، وفى مرضه كان رجل غامض يزوره ، وبعد أن مر الشتاء وتحسنت صحة سيد ميران ، قرر فجأة أن يقوم بزيارة مع « همـا » الى الأعتاب المقدسة فى « قم » ولا تملك « آهو » الا أن تمكث لتحافظ على أثاث منزلها وتبصر أولادها بعمق الكارثة ، والدهم ضل ولا أمل هناك فى أن يهتدى ، ويغيب سيد ميران ، وبينما كانت آهو تكاد تهلك قلقا ، كان سيد ميران مع ربة الحسن والجمال بين قم وقزوين وهمدان ، وحين عادا كانت « همـا » ترتدى معطفا من الجلد لا تدرى آهو كم يكون ثمنه .

كل هذه الأحداث كان لها تأثيرها فى دكان سيد ميران ، فقد تركه عامله « حبيب » عندما رأى صاحب المال لا يهتم به ، ويجلس

سيد ميران فى دكانه لا يفكر الا فى « همـا » ، انتهى الأمر ولا فكاك، المهم الآن أن يتخلص من آهو وأولادها وأن يذهب مع « همـا » الى مكان لا يصـل اليه حتى خيال كتـاب القصص ، كان سيد ميران يفـكر فى زيادة موارده المـالية ، انه يسرح العمـال ، ينقص الوزن ويزيد السعر ، يفكر فى أن يترك هـذا كله ويستأجر أرضا فى الريف يزرعها وينتهى ، وها هم العمـال الباقون يفرون واحدا بعد الآخر فلم يكن أحد يأمن على نفسه فى وضع سيد ميران ، ثم تتوالى عليه انذارات الضرائب ، اذ كان فى غمرة غرامه قد نسى أن للدولة حقوقا ، وهو فى خلال تلك المصائب لا يجد رفيقا يبثه همومه الا ميرزا نبى ، « وهما » تبصره بأن ميرزا نبى ليس صديقه وأنه هو الذى كان يحرضها على الطلاق ، وتطلب منه أن يمنعه من دخول المنزل ، وتظهر الغيرة على عمله ، انها مستعدة لأن تعمل معه فى الدكان ، ألم تكن آهو تفعل ذلك قبل أن ترزق الأطفال ؟ وكانت « همـا » تحدث سيد ميران كلمـا حدثها عن ضرورة ردها الى عصمته رسميا عن الحب الذى تكنه له ومـاذا تجدى ورقـة ؟ وتعيش الأسرة فترة من الزمن فى راحـة ، سيد ميران يحاول أن يصلح ما أفسده الدهر ، وآهو وقد فقدت الأمل تجد ورقة أثناء تنظيف حجرة سيد ميران فتسرع فى أثر الدجالين ، ثم تحدث الحادثة التى تهز مركز سيد ميران من أساسه .

هجم موظفو التسعيرة ذات ظهيرة على المحل فوجدوا الخبز ناقص الوزن ، ان سيد ميران يعلم أن الخبز ليس ناقص الوزن ؛ لقد تجرأ ولم يعد يعطى موظفى التسعيرة حصتهم من الخبز ، فاذا وصل سـيد ميران الى الدكان وجد خبز الظهيرة يباع بثلث الثمن وبأمر التسعيرة ، ثم أمر باغـلاق المحل لمدة شهر فاذا عاد تسحب الرخصـة نهائيا .

ان سيد ميران يسب ويلعن ثم يسعى ثم يهدأ ، كان الأمر فى رأيه أن الحكومة تسعى لجعل الخبز نادرا حتى تصرف الشعب عن

متابعة أخبار الحرب « العالمية الثانية » .وهكذا اغلق الدكان وتفرق العمال كل منهم يبحث عن عمل « لأنهم لا يستطيعون الانفاق من مدخراتهم لأنهم ببساطة لا يدخرون شيئا » أما النقابة فلم تستطع شيئا لرئيسها السابق ذلك لأن الموظفين غرباء عن المدينة ولا يعرفون المجاملة .

وهكذا قبع سيد ميران فى منزله ، وبالرغم من انقضاء الشهر لم يعد يريد الخروج من المنزل ، ويلح عليه معارفه فلا يخضع ، وتطلب منه صاحبة الدكان اخلاءه ، ويأتى ميرزا نبى ، فيخبره سيد ميران أنه سوف يترك هذا العمل ، وترد آهو بأن مخلة الشحاذة جاهزة ، ولا يجيب سيد ميران الا بأن الشحاذة فى ديار الغرباء أكرم من أن يكون المرء ذليلا بين أهله ، ثم ان الدعوة المركزية أثرت فى الأقاليم فكسد حالها لكى تبدو العاصمة بمظهر خلاب أمام الأجانب ، ويجيب سيد ميران بأن الذى لا يستطيع أن يكسب عيشه بين أهله لا يستطيع أن يكسبه بين الأجانب ، وهكذا يدور الجميع فى حلقة مفرغة فهم لا يعلمون أن سيد ميران بسبيل اعلان افلاسه ، وها هو يعلن أنه مدين بمبلغ ضخم ، وأنه اقترض بالربا ورهن المنزل ، بل ان المنزل لا يكفى القرض ، ونعلم أن ذلك الرجل الغامض الذى كان يزوره أثناء مرضه هو دائنه ، ولا يجد ميرزا نبى أمامه الا آهو المسكينة يعاتبها ، كيف وصل الحال بسيد ميران الى ما وصل اليه ، فتنبرى باكية : ماذا تفعل انها محترقة محترقة أن تكلمت وان صمتت ، انها ليست الا ضفدعة ان أخرجت رأسها من تحت الماء أهينت ، وان وضعته تحت الماء اختنقت ، ويحاول ميرزا نبى أن يصلح من شأن سيد ميران قدر المستطاع ، فها هو يقدم اليه الاقتراحات لينهض من كبوته ، الا أن الظروف مع ذلك كله كانت ضد سيد ميران.

ان الحرب تؤثر فى كرمانشاه والقحط يحيط بها من كل جانب ،

والوباء يحصد سكان المدينة حصدا ، وسيد ميران يوسط الناس لحل مشاكله مع مالكة الدكان ، لكن سيد ميران لايزال يعزف على وتر الرحيل ، الناس جميعا يتحدثون عن الحرب وهو لايزال يتحدث عن الحب ، انه يتذكر حكايات نجاح من هاجروا الى طهران ، انه سيأخذ معه « هما » فقط لأنها « رأس واحدة » وبقية الأسرة تبقى حتى يأذن الله بالفرج • واذا نظرنا الى المنزل وجدنا سكانه كالفئران التى تهرب من السفينة قبل الغرق ، فآهو مع أولادها فى مسقط رأسهم سراب ، وقد صفعت « هما » قبل رحيلها بقولها ان حياتها مع سيد ميران حرام ، وسرعان ما تسرب الأمر الى أهل المنزل جميعا فلم يعد أمام سيد الا أن يردها فى مدينة أخرى •

لم يبق فى المنزل كله سوى خورشيد وسيد ميران « وهما » ، وها هو سيد ميران يقضى مع « هما » ليلة كليلة امرىء القيس حين وصله خبر مقتل أبيه ، انهما يشربان على ذكرى مسرات طهران الآتية والزمن الذى سيبدأ من جديد ، كل شىء انتهى المنزل والدكان والحديقة والمدخرات وغدا يبيع أثاث المنزل ويرحلان •

وكان صباح بيع فيه أثاث المنزل ، ويحزم حوائجه مع « هما » ويضع كل ما معه فى كيس يضعه فى احدى حقائب « هما » ويكتب خطابا لآهو ويترك نقودا مع الخطاب على باب حجرتها ، أما « هما » فكانت تفكر فى الاتصال بذلك الحبيب الذى تردد اسمه طوال الرواية « البرز » ونعلم أنه سائق عربة ، ولم يكن سيد ميران يعلم أن خورشيد أسرعت الى آهو تخبرها •

وتعود آهو صارخة مولولة نادبة المنزل الذى انهار ، وتجد الخطاب ، انه اعتذار من سيد ميران ووداع يبدو نهائيا ، وبالرغم من الضربة الأليمة التى تلقتها آهو أسرعت الى محطة العربات ولحقتهم

وصاحت بهم : لتسر العربة لكن على جثتى : وتشتم سيد ميران كما لم تتبتمه فى حيانها ، وتجذب الرجل فلا يجد بدا من الركوب معها . كانت المدينة فى هرج وفوضى . الناس يتكأكأون على محلات الأطعمة ، وحين يصل سيد ميران الى المنزل يجلس على عتبته . وينظر الى آهو قائلا : لم تكونى قط هكذا ، وترد : من الآن فصاعدا سوف أكون هكذا وأكثر ، وفى تلك اللحظة يأتى عدد من العمال بالسرير الجديد الذى كان قد أوصى به من أجل « هما » ويرجىء العمال الى الغد ، لكن الأسواق معطلة فى الغد فالانجليز يزحفون على كرمانشاه والمدينة حبلى بألف فتنة وفتنة .

وتصل خورشيد من المحطة ، لم ترض « هما » أن تعود معها ، وركبت مع شاب أشقر أزرق العينين ، وتبلغ خورشيد آخر كلمات « هما » لسيد ميران : « خورشيد هانم ، ان الأمر الصعب هو أن تسامحنى آهو هانم ، لكن « هما » أكثر شبابا من أن تعطى هذه الأمور أية أهمية ، ليكن كل ما يحدث فى هذه الدنيا الجميلة جميلا ، أما فى الآخرة فليكن ما يكون » ويسمع سيد ميران وكأنه يسمع الحكم باعدامه ولا يملك الا أن يقول : « لقد كنت أنا لها فلسن كانت هى يا ترى ...... لتذهب فى أمان الله » لقد ذهبت « هما » بكل ما تبقى من مال لسيد ميران ، وها هو يطلب من زوجته أن تدفع مبلغا من المال لصبيان النجار وأن توقد المصباح . ولم تدر آهو هانم هل تضحك أم تبكى ؟ بالتأكيد ان أذنها لم تخطىء ، ففى صوت زوجها بالرغم من أن الحب القديم لا يبدو ، الا أن رنة الأنس القديم تتجلى فيه .

***

هذه هى رواية « زوج السيدة آهو » حاولت تقديمها بتلخيص شديد ، فالرواية حافلة بالألحان الداخلية والأحداث الفرعية والصور

الطبيعية لشتاء المدينــة وصيفها وربيعها وخريفها • وأثر ذلك كله فى شخصياتها ، تلك الشخصيات التى قدم المؤلف أدق سماتها وملامحها بحيث بعث فيها حياة غنية خصــبة فكأنها شخصيات حية يمكن أن نلتقى بها • وقد اكتسبت الرواية تلك الشعبية الهائلة فى ايران لأنهــا عالجت موضوعا مطروقا بطريقة جديدة •

وقد ذكر بعض النقاد أن الكاتب كتب روايته بتأثير من خلفية ثقافية من حزب توده « الحزب الشيوعى الايرانى » الا أن هذا الأثر باهت وضعيف ، فبالرغم من أن سيد ميران من أرباب المهن الا أن كل ما يتصــل بالعمال لا يعدو صفحات قليلة جدا من الرواية ، ويفصح الكاتب كثيرا عن عداوته للدين بطريقة مضحكة ويحــاول أن يقنعنا أن كل الظلم الذى حاق بآهو مرده الى الدين ، ولكن اقتناعه هــذا لا يصادف قبولا لأنه واضح التجنى وصادر عن غرض ويدل على خطــأ بشع فى فهم الاسلام •

والروايــة حافــلة بالخطب والحوار المطول ودروس الفلســفة والعرفان وعلم النفس والتربية وملخصات الكتب والمقتبسات منها ، ولم يكن كل ذلك الا لكى يستعرض الكاتب لعضــلاته الثقافية فأساء الى البناء الفنى للرواية من حيث أراد أن يخدم نفسه •

وبالرغم من أن الرواية تجرى فى كرمانشاه وأن بعض النقاد قد غالى فزعم أن الرواية تأريخ اجتماعى للمدينة فى فترة ما بين الحربين الا أننا ننسى كرمانشاه ، أى أن الرواية من الممكن أن تحدث فى أى مكان ، ناهيك عن لغة الأبطــال فبالرغم من المصطلحات الشعبية ، الا أن لغة الأبطال متأرجحة الى حد كبير فهم يتحدثون بالعامية حينا وبلغة أدبية كلاسيكية حينا آخر ، وبلغة شاعرة أحيانا ، وهــذا طبقا لمــا يتطلبه الموقف والحادثة ، وقد علمت أخيرا أن الرواية • حولت

الى فيلم فى السينما الايرانية ، ولاشك أنها فرصـــة ذهبية لمخرج الفيلم لحشوه بمشاهد الجنس محتجا بأنه لم يبتعد عن الرواية .

تبقى للكاتب بعد ذلك تلك المواقف الانسانية العظيمه ، وصورة المنزل الذى يحتوى على زوجتين ، تلك الصورة التى نشاهدها فى كل منزل فى الشرق يحتوى على هــذه الآفة ، وفى تحليله لشخصية السيدة آهو كان شديد التوفيق وقدم للأدب العالمى شخصية جديدة وخالدة ، والكاتب أهدى الرواية الى أمه فهل يدل هذا على شىء ما ؟

وقد استطرد الكاتب فى أحيان كثيرة مما جعل روايته تبلغ هــذا الحجم ، وكان من الممكن أن يختصر الحوار وبعض مشــاهد وصف الطبيعة فلا تصل الرواية الى هــذا الحجم دون أن تخسر شيئا يذكر من أحداثها .



٦ ـ طول الليل

جمال مير صادقى

جمال مير صادقى من الكتاب الشبان المعاصرين فى ايران ، تعد مع جماعة من الشبان أمثال : بهرام صادقى وغلا محسبن ساعدى ومحمود دولت آبادى ونادر ابراهيمى طليعة من يكتبون القصة والرواية والنقد الأدبى فى ايران حاليا . له عدة مجموعات قصصية ، أهمها : الأميرة ذات العين الخضراء وعيناى متعبتان ، ورواية طول الليل من أهم الروايات التى ظهرت فى السنوات العسر الأخيرة « ظهرت طبعتها الأولى » سنة ١٣٤٩ هـ.ش. (١٩٧٠ م) .

ويتميز جمال مير صادقى فى قصه بنظرة نافذة ، ويعد من أهم الكتاب الذين انتبهوا الى حركة تفاعل المجتمع اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا والى تأثير ذلك فى نمو الشخصية الايرانية ، كما يعد من أوائل من بنوا رواياتهم على مواقف حياتية لا مواقف فكرية ، انه فى رأى الشاعر الكاتب الناقد الايرانى محمود كيانوش : يود أن يقول حذار ، انكم تعيشون فى هذا المجتمع المضطرب الذى ماتت فيه العدالة ، ان

الفساد هو نتيجة الفقر . والفقر نتاج لانعدام العدالة الاجتماعية . وليس الشر فى نفس الانسان بل هو نتيجة ظروفه . وفى مثل هذه البيئة . اما أن تكون سيئا وتعيش ، واما أن تكون طيبا وتموت ، وعلى أى حال فانك اذا كنت سيئا أيضا فلن تكون محدود العافية .

***

كانت زيارتى الأولى الى ايران بعد أن قرأت الروايات التى سبق عرضها . كنت ذاهبا وفى ذهنى روايات هدايت وجمالزاده وحجازى وأفغانى ، قلت فى ذهنى وأنا أهبط الى الأرض التى طالما عايشتها بخيالى لأر الى أى مدى كانت نظرة الكاتب الايرانى صادقة فى التعبير عن بيئته . كنت أتصور أننى لن ألتقى فى ايران الا برجال يلبسون الملابس الايرانية التقليدية يمسكون بالمسابح ويتحدثون بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية أو بأشعار سعدى وحافظ ، وكنت أظن أننى لن ألتقى فى شوارع طهران وأسواقها الا بنساء محجبات مختفيات من قمة الرأس الى أخمص القدم ، ان أردن اغراء آزحن طرفا من العباءة عن عين بها حور ، كنت أظن أننى لن ألتقى بايرانى الا وتناقش معى فى قضايا فكرية عميقة ومجردة ، كنت أظن أننى لن ألتقى الا بالراوى فى « الورود التى تنبت فى جهنم » أو محمود فى « دار المجانين » أو حسين خان فى زيبا أو سيد ميران فى « زوج السيدة آهو » ، كنت أتصور الشارع الايرانى كما قرأت عنه عند هدايت وجمالزاده ، وكنت أتصور مسجد سبهسالار غاصا بالطلاب الدينيين بعباءاتهم السوداء وعماماتهم ولحيهم الطويلة ونظراتهم النفاذة ينتشرون فى أروقة المسجد وهم يتهامسون ثم لا تلبث أن تقوم مظاهرة ، كنت أتصور البيت الايرانى كئيبا حزينا لا يخلو من قارىء للروضة يقص مآسى آل البيت وقد تحلق حوله أهل المنزل يبكون وينوحون .

ثم ذهبت الى ايران فوجدت عالمين وحياتين : العالم الذى كنت أظنه طاغيا وجدته موجودا بالفعل ، لكن فى أطراف المدن وفى أحيائها

القديسة يتوارى خجلا أو محافظة وينفسح الطريق لعالم لا يختلف فى مظاهره فى قليل أو كثير عن العالم الموجود فى بقية العواصم الكبرى ، وتذكرت أن عواصم الشرق بلا استثناء تحتوى على هذين العالمين معا تفصل بينهما بوابة أو ســوق أو حى تجارى يقسم المدينة الى قسمين، وتذكرت أول زيارة قمت بها الى « دلهى » وأنــا مبهور بشــوارع المدينة الجديدة ومظاهر الحياة فيها حتى اذا عبرت البوابة الى دلهى القديمة وجدت دلهى أخرى بكل ما كانت تعنيه لى وكما كنت أتصورها وهكذا كان الأمر فى طهران وشيراز وأصفهان ومشهد وتبريز . نهارا تحملنا اهتماماتنا الى أسواق طهران القديمة ومساجدها وحى الامام عبد العظيم ومدينــة الرى القديمة ، وفى الليل تتخفف من أعبــاء النهار فتحملنا العربات الى شميران ودربند ونياوران فاذا بنا أمام عالم آخر بحيث يتعجب المرء : هؤلاء الذين يشربون ويرقصــون على أنغام الموسيقى الصاخبة والألحــان الغربية ويرتدون أحدث الأزياء هم أولاد نفس أولئك الذين كانوا يجلسون فى السوق فى الصباح ؟ وأولاء الفتيات اللائى يرتدين أحدث الأزياء ويملأن المنتديات على طول شميران هم بنات أولئك اللائى كن فى الصباح يتمسحن فى ضريح الامام عبد العظيم ويبكين وينتحبن ؟ .

وفى زيارات تالية الى ايران أتيحت لى الفرصة للتعرف الى البيت الايرانى عن كثب ، فوجدت نفس العالمين : عالم « شهباز » فى الجنوب من طهران حيث لا تجرأ طفلة فى الخامسة من عمرها على الخروج من المنزل دون حجاب رغم أننى لم أجد قارىء روضــة ولا أحدا يبكى بل وجدت جهاز التليفزيون والأسرة مهتمة بمباريات الدورة الآسيوية للكرة ، وان كان رب الأسرة يجلس على بعد يداعب حبات مسبحته ويحوقل . ودخلت بيوتا فى الشمال ما ان يهل الضيف حتى تقدم له المشروبات الروحية وتنبعث الموسيقى من جهاز « كاسيت » بينمــا

من الممكن للشاب أن يشرب كوبا من البيرة أو يدخن فى حضرة والده ، وشهدت حفل زفاف فى أحد الفنادق ، كان جانب من المدعوات يلبس فساتين السهرة العارية وجانب آخر يرتدى الطراحة أو العباءة الايرانية التقليديـة ، وكل جلس مع من هم فى مثـل زيه ، وكلهن أيضـا من الشابات •

لم تلبث هذه المشاهدات أن أثارت سؤالا آخر فى نفسى : ايران التى وصفها الكتاب الذين ذكرتهم موجودة بالفعل والدليل بقاياها التى لاتزال موجودة ، لكن أين التعبير عن ايران الجديدة وعن الصراع الذى محالة قائم بين الجديد والقديم ؟ أين الكتـاب الشبان فى هذا المجتمع الذى لاشك يقدم مادة حية صالحة للكتابة ؟ حاولت أن أجد اجابة على سؤالى عند بعض أساتذة الأدب الايرانيين ، فلم أجد جوابا لأن أساتذة الأدب هنـاك لايزالون يرون ان الاهتمام بفن الروايـة أو الشعر المعاصر مما يغض من القيمة ويقلل من الكرامة ، وكان من المستحيل أن أسأل شابا من هؤلاء : هل قرأ عملا أدبيا يصـور نفسه ، فلا المكان ولا المجـال مما كانا يسمحان بذلك فضـلا عن روح الحذر المعروفة عند الشباب الايرانى عندما يتحدثون مع أجنبى •

وأخيرا وقعت فى يدى مجلة ايرانيـة تحتوى على مقالة كتبهـا المستشرق الروسى كميسـيروف • والايرانيـون أيضـا مشـهورون بحساسيتهم الشديدة تجـاه كل ما يكتبه الأوربيون عن أدبهم حتى ولو كان الأدب المعـاصر ، ولولا ما كتب فى أوربا عن هدايت ما عرفه أحد داخل ايران نفسها ، كان مقال كميسيروف يحتوى على تحليل لموضـوع الصراع بين القديم والجديد فى ايران من خـلال ثـلاث روايات : الأولى زوج السـيدة آهو التى عرضتها آنفا ، والثانيـة « افسانه وافسون أى خرافة وهباء » لمحمد على اسلامى ندوشن والتى كتبها باسـم مسـتعار هو م• ديدهور والثالثة : طول الليل لجمـال

مير صادقى ، وقمت الى مكتبتى وكم كانت سعادتى عظيمة حين وجدت الرواية الثالثة وقلت : لأختم بها هذا الكتاب •

***

مباشرة وبدون أية مقدمات يزج بنا المؤلف من الصفحة الأولى فى موضوع الروايه ، ويقدم لنا عالمين مختلفين فى مدينة طهران ، العالم القديم وتمثله أسرة بطل الرواية « كمال » والعالم الجديد وتمثله أسرة زميله فى الدراسة وصديقه « منوچهر » • وتفتتح الروايه وكمال ومنوچهر خارجان من المدرسة الثانوية والشوارع مزدحمة بالسيارات والمارة والطلبة ، بطل الرواية يبحث بعينه وسط جموع الطلبة عن رفيقه ، ان كمال متعلق برفيقه هذا لأنه يمثل كل ما يتوق اليه دون أن يستطيع أن يكونه ، أما الرفيق فقد تعلق بكمال لنبوغ الأخير وللمساعدات التى يقدمها اليه فى الدراسة ، نحن أمام نوع من صداقة المتناقضات وهى ميدان صالح جدا لمثل هذه الرواية التى تقوم على وصف هذه المتناقضات وتأثيرها فى حياة الذين يعيشون داخلها •

وتقدم لنا الرواية مباشرة أيضا وبوضوح رؤية قل أن يصادفنا فى رواية ايرانية معاصرة أول صدام بين العالمين ان كل ما يشغل كمال هو مجلس قراءة الروضة والاحتفال المزمع القيام به فى منزل عمه ليلا حيث تدق الصدور ، ويضرب المحتفلون أنفسهم بالقمة (وهى سلاح أقصر من السيف) ندما على أنهم منذ أربعة عشر قرنا خذلوا الحسين عليه السلام وتركوه يقتل وحده فى صحراء كربلاء ، واليوم هو يوم مقتله رضى الله عنه ويوم الذكرى ، وكمال يسير فى الطريق لا هم له الا استعراض الجماعات التى تسير براياتها وشاراتها وعلاماتها فى طريقها الى أماكن الاحتفالات كان كمال لايزال منبهرا بمثل هذه الاستعراضات يفاضل بينها ، بينما كان منوچهر خالى الذهن تماما لا يدرى حتى معانى المصطلحات التى يتحدث عنها كمال ،

ولا يرى أهميـــة لهذا الموضوع من ألفه الى يائه ، ان كل ما يشغله هو ذلك الحفل الراقص الذى يزمع القيام به ليلا ، وان كل ما يضايقه هو أن جميع الملاهى ودور السينما مغلقة ، فاذا اعترض كمـــال مذعورا على حفل راقص يقام فى ليلة القتل ، هز منوچهر كتفيه استهانة قائلا : « سيبك يا بنى » •

ويفترق الصديقان بعد أن يعطيه منوچهر كتابا ، ان كمال يأخذ منه الكتاب ، ويمضى فى طريقه يفكر فى الكتب الذى يقدمها له منوچهر كيف أنه لم يكن يقرأ الا الكتب الدينية ، وكيف أن منوچهر سخر منه ودله على نوع من الكتب لا يقل أهميـــة عن هذه الكتب الدينية وكيف أنه لم بستطع أن يتم الكتاب الأول ، لكنه لم يلبث أن تقدم فى قراءة هــذه الكتب ، العالم الذى فتحته أمامه هــذه الكتب كان يتعارض مع العالم الذى كان يحدثه عنه والده تماما ، ولأول مرة بدأ كمال يعيد النظر فى ما تلقاه عن والده •

ان كمال وهو ماض الى منزله لا يسرع فى السير كما كانت عادته فى الليالى التى تقام فيها احتفالات عاشـــوراء ، يمضى حثيثا غارقا فى أفكاره فى هذا الحى القديم « التى هدمت معظم منازله لأن أصحابها هجروها الى شمال المدينة » ، ويدخل كمال منزله وهو ضائق ، انه لا يود أن يذهب الى الاحتفالات التى تقام فى منزل عمه ، حتى اللذة التى كان يحسها وهو يوزع الشـــاى على النســـوة لا يريدها • وفى الصباح نزداد علما بمنزل كمـــال ونظام الحيـــاة فيه : المناقشـــات والمشاحنات التى لا تنتهى بين والده ووالدته وخلالها تتبادل بالطبع أقذع الألفاظ ، شك والدته فى الزيارة التى يقوم بها والده أسبوعيا الى مدينة « قم » الدينية وحيدا واصرارها على أن تذهب معه ، وكمال يتدخل لاقناع والده باصطحابها لكن والده يحدثه كما يحدث الكلب ويهدده بالضرب ، وكمـــال فى دهشة : لمـــاذا يذهب والده مرتين فى

العام الى مشهد ومرة الى كربلاء ويذهب أسبوعيا الى « قم » ثم يشكو من كساد السوق ومن الخراب العاجل الذى سوف يحيق به لمجرد أنه ينفق على كمال فى المدرسة ؟ ان صورة الوالد تهتز فى نظر كمال وتهتز معها كل معتقداته ، أليس هو الوالد الذى تسيطر عليه نزعته التجارية فلا يسمح له بمواصلة تعليمه الا بعد الحاح والا بعد التزام منه بأن يقضى الأجازة كلها فى مسك حسابات دكاكينه العديدة ، حتى اذا عاد الى المنزل التزم بحمل أخيه الصغير ؟ أليس هو الوالد الذى يحاسبه حساب الملكين على الدقيقة التى يغيبها فى طريق عودته الى المنزل وكأنه فتاة يخشى عليها السقوط ؟ ان الفخر الوحيد الذى يفخر به أبوه بالنسبة اليه هو أن صوته جميل فى قراءة الروضة وأن أصدقاءه يلحون عليه فى احضاره معه الى احتفالاتهم ، وما هو مجلس الروضة هذا ؟ كل من تسيل دماؤه أكثر يكون أكثر تقوى وبطولة ؟ ومن هم أبطال هذه الجلسة ؟ أحدهم يفتح مقهاه لألعاب القمار والآخر « فتوة » يحميه ، وابن عمه الأكبر الذى يختلس النظر الى أثداء النسوة وفى مجلس الروضة ؟ وأولئك الفقراء الذين يتوافدون على منزل عمه من أجل الطعام فيطردون من على الباب طرد الكلاب لأن الطعام فقط للضيوف والمحاسيب ؟ وذلك الضرب بالقمة الذين يقومون به بالرغم من تجريمه ويرشون الشرطة لكى تغض الطرف ؟ ومنظر حوض الماء فى الصباح تطفوا عليه الخرق الملوثة بدماء القوم ؟ لقد أراد أن يدعو منوچهر لحضور الاحتفال ذات ليلة وتصور أن منوچهر سوف يقبل الدعوة شاكرا فاذا به يرد عليه بامتعاض : ماذا ؟ آتى لماذا ؟ لأرى وحشية هؤلاء الناس ؟ وكان الحفل الأخير الذى لم يطق فيه كمال الوجد الذى أمسك بتلابيبه والهياج الذى أصابه ولولا أنه تسلل خارجا من الحفل لأسرع الى الحلاق يحلق له رأسه لكى يشارك فى ضرب القمة .

لقد اختلى فى حجرته تلك الليلة بكتاب من الكتب التى أعطاه

اياها منوچهر ، الا أنه قبل أن يشرع فى القراءة مضى الى النافذة وأخذ ينصت الى أصــوات النائحين والضاربين على الصــدر تأتى من بعد، سنوات طويلة وهو يحتفل معهم ، أما الآن فهو ينصت الى أصــواتهم من خلف النافذة ، وأحس بحزن شديد بحيث ود لو يبكى .

فى اليوم التــالى كانت المرة الأولى التى يقوم فيها بصــلاته قضاء ، وخرج الى المدرســة سعيدا لأن أحدا لم يفطن الى انسحابه من المجلس فى الليلة الفائتة ، واذا باليوم عطلة « لوفاة أحد العظماء »، ويجلس كمــال بين زملائه كل منهم يقص : فيم قضى لبلة الأمس ؟ وكمال الذى قضى ليلته هاربا من مجلس الروضــة يحاول أن يقرأ كتابا لا ينجو من سخرية زملائه ، لابد أنه ذهب لينوح ويدق الصدر، ويخرج كمــال مع رفيقه ، انه ليس ضائقا من حديثــه يستمع اليه ولا يحس بالحزن ، انهم يتحدثون عن أشياء لو سمعها أبوه لحكم عليهم بالكفر ولمــا تركه يعرفهم قط ، انهم يتحداثون عن السينما ولعب الورق ومطــاردة الفتيات ، ويذهب الجميع الى منزل منوچهر حيث يشغل الجميع بلعب الورق بينما يتنحى كمال جانبا ويتأمل الحديقــة « التى تصــلح تماما لاقامــة الاحتفالات الدينيــة » ويجلس بجوار الحوض يتأمل الطبيعة من حوله ، وتأتى « فرشته » أخت منوچهر ، فتاة جميلة تصغره قليلا ، سافرة الوجه عارية الساعد ، انها تتحدث الى كمــال لكنه يود لو تواتيه الجرأة على تركها ، انها تحدثه بجرأة ، لكنه يرد على حديثهــا ردودا مقتضــبة وهو مطرق الرأس قد احمر خجلا ، لمــاذا ينظر الى الأرض دائمــا هل فقد شيئا ؟ ما هــذا ؟ ألا تدرى أن هذا هو حسن الأدب وحسن الايمان ؟ كل من حوله يمدح هذه الخصــال فما بال هــذه الفتاة عارية الساعد تحتج على هذا ؟ كيف لا تخجل أو « تخاف » من جلوسها معه ؟ لمــاذا ينظر الى الأرض ؟ انه يود لو يستشهد بحديث نبوى لكنه لا يقوى ، كيف لا تمدح « فرشته » هــذا السلوك ؟ ما هو الخطــأ وما هو الصواب؟

يكاد عقله يطير وهو يرى أن كل ما يمكن أن يجيب به الفتــاة قد تضحك منه ، انها تتحدث عن مساعداته لمنوچهر فى المدرســة ، وعن نبوغه فى الرياضيات وهو لا يرد ، ماذا تريد ؟ وماذا تقصــد ؟ ألم تطل الجلسة فوق اللازم ؟ ما لها ولباسه تنتقده ؟ لو يستطيع أن يقوم لصار بعد خطوتين أمام باب الخروج ، لكن فرشته لا تتركه يقوم حتى توضح أهدافها ، انها ضعيفة فى الرياضيات تود أن يساعدها وهو يقبل، ثم يتغلب على خجله قليلا قليلا ، وتحدثه عن آخر فيلم شاهدته ... وتمر الجلسة .

آكانت الجلسة تمر دون أن تؤتى أكلها ؟ انها أول مرة يجلس مع فتاة لقد أصابت نظراتها من قلبه مقتلا ؟ أهو يحبها ؟ هل تحدث الآخرين بنفس الطريقة التى تحدثه بها ؟ بالتأكيد نعم ، اذن لمــاذا يفكر فيها كل هــذا التفكير ؟ لمــاذا لا تغادر صورتها خياله أبدا ؟ كم هى جميلة ورقيقة كأنها واحدة من بطلات الروايات التى يعطيه اياها منوچهر ، لكن : هــل من الممكن أن تختــار كمال من بين كل الشباب الذين يحيطون بها وجميعهم أكثر منه أناقة وأبهى منظرا وأكثر لباقة ؟

ان كمال عائد الى منزله ، لكن كم يود ألا يذهب الى هــذا السجن ، ما هــذا المنزل وما هذه الشتائم المقذعة التى يتبادلها سكانه؟ كم يود ألا يجلس الى مائدة الغداء ويرى هــذا النقار المستمر بين والديه ، ويرتدى كمــال ملابسه أنه يريد أن يمضى الى منزل فرشته « لم يقل منزل منوچهر » ، الا أنه تردد ، ماذا يقول لهم ولأى أمر جاء ؟ صرف نظره عن الذهاب واستمر يقطع الطرقات ، لا يلفت نظره الا الثنائيات من الشباب والفتيات الذين يسيرون فى الشارع ، ويعود فيسلمه والده كتابا استعدادا للذهاب الى مجلس الروضــة فى منزل عمه ، أى روضــة وأى كتاب ؟ ما له و « حلية المتقين » والحسينية

لملا باقر ؟ ما له وآداب لف العمامة ولبس النعل وحلاقة الرأس ؟ ما له ومنزل عمه ؟ نزهة ابنة عمه كانت تلعب معه منذ سنوات قليلة ، أما الآن فلا تكاد تراه حتى تفر من أمامه كأنما أصابها مس من الجن ، ان كمال لا يود الذهاب الى مجلس الروضة انه مريض ، أجل مريض ، والا فلماذا يضيق من كل ما كان يسبب له سعادة ولذة فيما مضى من زمن ؟ .... ولم يذهب .

عندما خرج كمال من المدرسة فى اليوم التالى مضى مع منوچهر الى منزله ، لا يدرى ماذا يحدث له كلما تفوه منوچهر باسم أخته ، اضطراب يحتوى وجوده بأجمعه ، انه يجلس مع منوچهر فى منزله يحتويه خوف غامض ومبهم ، لابد أن يمضى حالا عن هذا المنزل ، لماذا اعتنى بهندامه فى هذا اليوم ؟ لماذا وافق على الذهاب مع منوچهر الى منزله عندما دعاه دون أدنى تردد ؟ لكن منوچهر ووالدة منوچهر يحاولان بقدر الامكان أن يجعلا كمال يحس بأنه فى منزله ، ويدور حوار بين الشابين ، ان منوچهر يخطط للعطلة الصيفية لكن كمال لا يستطيع أن يفكر أن أمامه عطلة ، انه مرتبط مع والده فى الدكان ، ان لم يفعل أخرجه من المدرسة ، ويرد منوچهر : لكن لماذا لا يفعل مثل « محمود » لقد انفصل عن أسرته وهو يعمل ويدرس فى نفس الوقت ، ويرى أن الأسرة رباط لا قيمة له ومع ذلك فهو لا يكبر كمال ومنوچهر الا بعامين فقط ، ان منوچهر يعلم مستقبله أيضا عام واحد وينهى دراسته الثانوية ، ثم يمضى الى أمريكا .

وتأتى فرشته ، ويرتعد كمال ، انه يود أن يسيطر على نفسه ، أجل يسيطر على نفسه ، ان الفتاة تتبادل مع أخيها حديثا كله مرح ودعابة ، وكمال مشدود الى كل ما يرى ، الى علاقات الأخوين معا ، والى علاقتهما بأمهما والى الحلوى التى تقدم له والطريقة التى تقدم

بها ، بهذا الصفاء الذى يسود جو المنزل كان يحس بأنه غريب ، رغم كل المحاولات التى تقوم بها أسرة صديقه لمحو هــذا الشعور ، انهم يتحدثون بلغة لا يفهمها ولا يستطيع أن يتحدثها ، فلا يملك الا أن يضحك حينما يضحكون ويهز رأسه موافقا حينما يتحدثون ، ويعرض عليه منوچهر أن يذهبا معا الى السينما ، لكن كمال يرفض رفضـا قاطعا « كانت السينما فى نظره مكانا للفساد ، كانت تثير خوفه ، عندما كان يمر أمام احــدى دور السينما كانت صــور النســاء العاريات والرجال المتأنقين تثير فى نفسه الكراهيــة ، أجل كل ذلك الى جوار ما سمعه من أبيه وعمه ، لا ، انه لن يستطيع » ويخرج الى الشارع وهو خائف ، انه لا يرفع عينيه عن أرداف النساء واهتزازاتها ، صدق أبوه ، ان كل من يخرج الى الطريــق لابد أن يعود وقــد ارتكب المعصية وفقد جزءا من دينه • ولم يستطع حين عاد الى المنزل أن يصلى بخلوص نية كما ينبغى •

ومع ذلك أخذوه معهم فى الأسبوع التالى الى السينما ، جرته فرشته من يده جرا ، ولم يملك لها دفعا ، عندما آفاق من حرجــه وجد نفسه الى جوار فرشته والظــلام يحيط بهما ، آحس برعب لكنــه عندما انتهم الفيلم أحس بأنه كان فى حلم عميق وجميل ، لم يكن هناك نساء عاريات يغوين الرجــال ، اذن كان أبوه وعمه يكذبان ، من أدراهما ؟ ينبغى أن يجرب الانسان كل شىء بنفسه ، لقد أثر فيه الفيلم كما لم يؤثر فيه أى كتــاب قرأه من قبل ، ولا يملك كمــال نفسه فيحــدث أمه عن هــذا الاكتشاف العظيم الذى اكتشفه متــأخرا ، يتمنى لو أنها كانت معه وترجوه أن يخفض من صوته والا ســمع والده ويرد بصوت عــال : « ليسمع ، ما دام لم يذهب الى السينما ولا يدرى ما هى فلماذا يتحدث عنها بالسوء ؟ انه مخرف لا يفهم ، انه لا يفهم شيئا قط ، شيخ مخرف » ويسمع أباه يقرأ بصــوت عال كتابا من تلك الكتب القديمة التى تروى معجزات الأئمــة ، فلا يملك

الا السخرية • وفى الأيام التالية كان كمال يحس بأن كثيرا مما كان يعتقده قد اهتز ، وكأن فوضى غير معلومة قد اجتاحت كل وجوده ، لكنه مع ذلك كان يحس باللذة • كان الربيع أيضا قد أيقظ كل ما فى الحيـــاة •

ونلتقى بمحمود ، ذلك النموذج الذى علمنا طرفا من أخباره على لسان منوچهر قبل ذلك ، التقى به كمـــال ومنوچهر بينما كانا عائدين من المدرســـة ، ويتفق منوچهر ومحمود على الذهاب الى احد المقاهى لشرب كأس من العرقى ، ويذعر كمـــال •• لا ••• لابـــد أن يعود أدراجه ، الا أنه يمضى معهما بعد أن يفهم أنهما يسخران ، وفى المقهى يدور الحـــديث ، ان كمالا مأخوذ بكل عقله بحديث محمود ، كان كمال يود لو يسأله : كيف يعيش وحده وكيف يعمل ويدرس فى نفس الوقت ؟ ثم يتجرأ بعد قليل ويسأله : كيف قطعت علاقتك بأمك وأبيك؟ ويبتسم محمود قائلا : لا تسمها قطع علاقة ، ان الانسان لا يستطيع أن يفعل ذلك ، لكنه يستطيع أن يعيش بعيدا عنهما • ويعلق منوچهر : ان كمـــال فى نفس وضعك تقريبا ، ويرد محمود : كثيرون من هم مثلنا ، نحن لا نستطيع تغييرهم ولا نقبل أفـــكارهم فلابد اذن من الانفصال عنهم ، من الطبيعى أنهم فى البداية يحزنون لكنهم سرعان ما يعتادون ، ان لهم حقا ولنا حقا وحقوقنا مختلفة داخل عالم واحد ، ومن ثم ينبغى أن يمضى كل الى حـــال ســـبيله ، هـــذا وان أحس الانسان فى بعض الأحيان بحنين الى حياة المنزل • ويتجرأ كمال ، انه يريد أن يفعل مثل محمود ، ومنوچهر هو الآخر يريد نفس الشىء ، لكن محمودا يســـخر من منوچهر ويشجع كمـــالا على الحـــديث ، ويتحدث كمال : ان والده يحمله ما لا يطيق ، وأشد ما يضايقه منه ذلك الاحترام الذى يبديه لامام الجـــامع بالرغم من أنه محتـــال ، انه يستشـــيط غضبا اذا لمح طفلة تخرج من منزلها دون حجاب ، ويحرض منوچهر كمالا على الثورة قبل أن تتفاقم الأمور أكثر من ذلك ، لكن

محمودا ينصحه بالصبر ، حتى ينتهى من دراسته الثانوية اذ لايزال عوده طريا على هذه الحياة ، ويمضى محمود الى حال سبيله ، ويظل كمال جالسا مع منوچهر الذى ينشغل بمطاردة فتاتين يصفهما الكاتب فى صفحات طويلة ، ولا يتركهما منوچهر الا بعد أن يظفر بموعد لهما معا •

يتردد كمال على منزل منوچهر « الذى أصبح منزل فرشته » انه يساعدها فى الرياضيات ويمتع نفسه بجمالها عن قرب ، لكنه لم يكن راضيا عن حياته كل الرضا فى تلك الأيام ، كانت أيامه خليطا من الحزن والسرور والأمل واليأس ، كان كلما جلس مع فرشته نسى كل شىء الا أنه بجوارها ، حتى اذا خلا الى نفسه فى منزله آخذ الضيق بتلابيبه ليس لفراقها بل لتصوره لهذا الطريق المسدود الذى يمضى فيه وهو مغمض العينين ، كان بين شد وجذب بين احساساته التى تدفعه نحو فرشته دفعا وعقله الذى يخاطبه بين الحين والآخر قائلا : « لماذا لا تريد أن تفهم ؟ انك ترضى قلبك بالخيال وتخدع نفسك ، انك لن تصير مثلهم أبدا ، أبدا لن تصير » ، كانت الامتحانات على الأبواب ، كان يمضى الى منزل صديقه فيساعدهما أحيانا ، ويذاكر أحيانا أو يتأمل والدهما الذى كان يأتى من عمله فى الجنوب والذى يسميه محمود « تمثال البورجوازية » ، ويعجب من كل ما يرى حوله، من العلاقات الحرة بين الفتيات والشبان ، لكنه كان يحس أنه لا ينتسب الى هذا العالم •

كان عالمه هناك . والده لا يفتأ يتحدث عن الكفر والزندقة ؛ ويعقد الاجتماعات أسبوعيا يوما أو يومين فى منزله ويرسل العرائض الى أئمة رجال الدين فى كربلاء والنجف الأشرف ومشهد وقم عن الدين الذى هو فى سبيله الى الضياع لكن هذا كله لا يجدى فتيلا ، تعداد الذين يلبسون الملابس الأوربية يزداد ، وتعداد اللائى

يخلعن الحجاب فى اطراد مستمر ، والذى يحس بالضيق ليس أيسر من أن يبيع منزله ويمضى الى شــمال المدينة . أيكون كل ما تفعله فرشته ضياعا للدين ، وهــل يندفع بكل سرعته الى ضياع دينــه أيضــا ؟

أصبح كمــال يحرص على رباط عنقــه وأناقته ومظهره وثنية سرواله وحلاقة لحيته كل يوم ، كان يريد أن يكون قريبــا منهم ، لكنه مع ذلك كان يحس أنه غريب عنهم . لقد بات يحس أنه أصبح شخصا جديدا . لكنه لا يشبه منوچهر ولا يشبه أيضــا أولاد عمه ولا حتى يشبه محمود . أين الحقيقة ؟ أهى ما يقولها أبوه ان كل الناس كفرة وحطب جهنم ؟ أم ما يقوله محمود : انهم لا يتركوننــا نعيش ، يقولون لنا كونوا أحياء لكن لا تعيشوا ، مع أن زماننا مختلف عن زمانهم ، كم يود أن يقضى أكبر وقت ممكن مع محمود ، أجــل ان محمودا هو الوحيد الذى سيقوده فى هــذا العالم ، من الممكن أن يكون مثل محمود ، ومن المستحيل أن يكون مثل منوچهر ، ومن سابع المستحيلات أن يعود كمــال القديم وأن يصبح مثــل أولاد عمــه .

ويأتى الموعد الذى ضربه منوچهر للفتاتين ، لكن كمال لايريد أن يذهب ، لا ينبغى أن تعلم فرشته أنه يطارد الفتيات ، لا دخــل للخجل أو العيب هنا ، انه يترك منوچهر يمضى وحده ، ثم يجلس مع فرشته التى تخرج معه لشراء هدية لأحد الأصدقاء ، وبعد أن يشعر كمال بالحزن يعتصره ، يعلم لسعادته أن هــذا الصديق ليس الا اياه ، ان فرشته من فرط سرورها لنجاحها فى امتحان الرياضيات لا تدرى كيف تظهر امتنانها لأستاذها ، انها تأخذه معها الى السينما وتلتصق به فيها ، لكن كل هــذه السعادة التى تنصب على كمال صبا لا تمضى دون منغص ، انها تلتقى بأحد معارفهــا على باب السينما وتنهمك فى

الحديث معه ، ويقف كمال يرمق الشاب من بعد ، انه يقارن نفسه به ، لا وجه هناك للمفارنة على الاطلاق ، هـذا الشاب من بيئتها ومن « ثوبها » انه لا يخجل ولا يغض من بصره عندما يتحدث اليها ، انه يحتويها ويشعرها برجولته ، لعل بينها وبينه علاقه ما لا يدرى بها ولعلها تجزل له العطـاء بينما لا يظفر منها الا بأنها تتركه مشتعلا على الدوام ، انها لائقة به وهو لائق بها ، أما هو فنبت غريب من الخير له أن يمضى متسللا الى الخـارج دون أن تلحظه ، ينبغى أن يفعل ذلك قبل أن يفقد البقية الباقية من كرامته ، لكنه ما ان يتحرك حتى تلحظه فرشته فتناديه ، انه بهرام قريبها وأحيانا يأتى الى المنزل لكنها لا تطيقه، انه يحرك عنقه وحاجبيه فى الحديث تقليدا للممثل جريجورى بيك ، لم يكن هـذا فقط هو السم الذى صادفه كمال فى الدسم ، فبينما هما خارجان لحهما ابن عمه يتأبطها وسط الزحـام ، كان يعلم أن هـذا الأمر لن يمر على خير ، بالرغم مما يعلمه من سـلوك لا يسر ولا يشرف يبدر من ابن عمه ، وسط النساء فى مجالس الروضة .

***

يصل كمال الى منزله وهو يدندن بشعر لا يردد فيه الا اسـم « فرشته » ذلك أنه اكتشف أن كل الشعر الذى يحفظه شـعر دينى ولا يليق بالمناسبة ، فى اليوم التالى يحدث ما توقع تماما ، أرسـل عمه فى طلبه ولم يملك الا أن يذهب ، الا أنه يفكر فى الطريق ، هذا هو عمه عميد الأسرة يرسل فى طلبه ، ومنذ أيام وأبوه لا يتحدث معه ، فلما لم يعبأ به أحد يسمعه تهديداته الأزلية بأنه سـوف يخرجه من المدرسة التى أفسدته وسوف يسلمه « مقشة » ويكلفه بالكنس أمام جميع دكاكينه ، فهذا هو العمل الوحيد الذى يليق به ، لكن أمر عمه هين ، انه أكبر من أبيه ، لكن التفاهم معه سهل ، ليس متحجرا مثل أبيه ولا سريع الغضب بذىء اللسان مثله ، فى الطريق يسمع كمـال عن حادث قتل وقع فى مكان ما بهدف السرقة ، لا يستوقفه فى الخبر

الا أسماء الجانيين ، أجل بطلا الضرب بالقمة واحتفالات الروضـــة وشج الرأس فى احتفالات عاشوراء •

ويصل كمال الى منزل عمه والعم يحاوره ويداوره ، انه يتمنى أن يكون ما سمعه خطأ ، ان كمال ليس من هؤلاء الشبان ، ترى هل حقيقة ما قيل عن كمال من أنه شوهد يتأبط احدى النسوة الفاسدات السافرات فى الشارع ، الا أن كمال يحدثه بكل بساطة انها ليست من النسوة الفاسدات ، لكنها أخت زميله وتخرج معه بعلم أهلها ، اذن لابد أنه شرك ينصب لكمال ، لا أيها العم ان والدها موظف كبير من موظفى الدولة ، اذن فهو من هؤلاء اللصـــوص الذين لا دين لهم والذين يسرقون الشعب ، واذا بكمال يصيح فى عمه : لمـــاذا وأنتم المتدينون لا تفعلون شـــيئا الا أن تجلســـوا وتغتابوا النـــاس الذين لا تعرفونهم ، لكن العم ينكر على كمـــال أن يدرس لها ، انه ليس معلم بيوت ، وأهلها ليسوا فقراء ليحضروا لها معلما ينبغى أن ينتبه الى نفسه ويرى من يعاشر ويبحث عن أناس من « ثوبه » وينصرف كمال ، وعلى الباب يلتقى بأحد أولاد عمه ، انه يسخر من الحادثـــة الأخيرة ومن الجانيين بطلى احتفالات عاشوراء ، ويسأل ابن عمه : ترى هل أخذا أعلامهما معهما الى السجن ؟ اذهب وسل أباك : هل اذا سار شاب مع فتاة فى الشارع ترتفع بطنها ؟

ويسقط كمال فى منزله هاذيا متخيلا فى هذيانه أنه صـــار قارئا للروضة وأنه اعتم بعمامة كبيرة وصعد الى المنبر وأخذ يعظ جمعـــا كان بينهم منوچهر ورفاقه ، وكانوا يسخرون منه ، انه لا يصلح لهذا الدور السخيف ويصيح به محمود الذى كان بين الجمـــع : انزل ، البورجوازيون قادمون ، انه يقوم من النوم ضائقا ، يقضى حياته ضائقا ولا يستطيع أحد من أهـــل منزله أن يقترب منه ، لقد صـــار فى نظر أخواته كالكلب يريد أن يعقر كل من يقترب منه ، انه فعلا يريد أن

يضربهم جميعا . ما لهم به ؟ ليبحث والده عن كاتب حسابات جديد ، ولتبحث أمه عن مرب جديد لولدها الصغير ، لم يكن يدرى ماذا يفعل فى المنزل ، فاذا خرج الى الشارع هام على وجهه فترة من الوقت ثم عاد ، كان يحس بالضيق والحزن ويعـانى أزمة تهز أعمق أعماقـه ، ولا يجد من يتحدث اليه ، ولم يجد مبررا للذهاب الى منزل منوچهر بعد الامتحانات ، كان يخشى ألا يقابل بعد الامتحانات مثلمـا كان يقابل قبلها ، كان يود لو يظل سادرا فى وهمه من أن فرشته تميل اليه وأنه ليس مجرد معلم بيوت كما أخبره عمه ، ومع ذلك فقد قاوم وذهب مرة أو مرتين ، لكن صـديقه وأسرتـه كانـوا يتنقلون بين المصايف ، كان بعد عودته من الدكان يقبع فى حجرته يقرأ أو يفكر فى حياة منوچهر ، انها حقا حياة جميلة لكنها لا تصلح له أو قل انه لا يصلح لها .

ثم بلغ به شوقه مداه فذهب ، كانا هنـاك ، فرشته ومنوچهر وكان محمود أيضا هناك ، ويسأله محمود عن أحواله فيخبره أنهـا على أسوأ ما يكون ، ان محمودا فى الرواية هو لسان الكاتب وهو الذى يفلسف العصر ، لقد نجح فى أن يلقى بهذا المجتمع وراء ظهره وانتهى ، وينتهى الأمر بأن يحدث الشاب قائلا : « التقاليد القديمـة بليت واندثرت وحلت محلهـا تقاليد جديدة ، مجتمعنا فى مرحـلة التحول ، انه يغير جلده ، لكن آباءنا تشبثوا بكلتا اليدين بالمـاضى ، وهم يتحسرون الآن عليه ويخافون من التقاليد الجديدة وكأنها حيـة أو أفعى » لكن منوچهر بلا مشكلة ، انه ليس من الطبقة المتوسـطة التى لا تستسلم بسهولة ، ويسأل كمال : ألأنها أشـد تمسكا بالدين؟ ويجيب محمـود : ليس الأمر متعلقـا بالدين ، الموضـوع مرتبـط بالاقتصاد ، ان الدين ــ هكذا يقول محمود ــ ليس الا وسيلة ، ان والدى يمتلك مصنعا صغيرا لصناعة الجوارب ، انه لا يستخدم الا الأطفال أو النساء المحتاجات ، لأنه يعطيهم أجرا أقل ويسـمى

هذا الأمر مساعدة الضعفاء ، فمن الذى يريد أن يستخدم هؤلاء ؟ فى حين أنهم ان لم يعملوا عنده ماتوا جوعا ، وفى كل سنة يقيم احتفالا أو احتفالين لدق الصدور والنواح ويذبح خروفا يحشو به بطون هؤلاء قائلا : دعهم يشبعون مرة فى العام ويتذكروننا بالدعاء • أجل ، ان كمالا يرى أن والد محمود لا يختلف عن أبيه وعمه فى شىء ، ان أباه وعمه يمتلكان كل دكاكين سوق بيع الجلود ، والعمال وعائلاتهم يأتون الى الاحتفالات الدينية ، وعلى المنبر يتحدث الشيوخ عن كرم هذين الأخوين التقيين السخيين ويزداد احترام عمه وأبيه أضعافا وتربو ثروتهما أضعافا ، لا شىء مجانا اذن ، لقد جعلوا الدين وسيلة للثراء ، انه يتذكر جموع الفقراء الحقيقيين تطرد من أمام منزل عمه أيام الاحتفالات بدعوى أنه لم يحسب حسابهم ، أجل : كل شىء بحساب انه لا يستطيع أن يمكث فى هذا المكان ، انه يسل معتقداته خيطا خيطا ، قريبا سينتهى وجوده كلية من هذا المكان ، وينصرف ، لكنه لا ينسى أنه دعى للعودة فى اليوم التالى ، انه عيد ميلاد فرشته •

جمع كل ما ادخر وطاف بحوانيت الباعة ، حتى بعد أن اشترى الهدية كان مترددا ، اشتراها بكل مدخراته بعد أن أعيته السبل أمام سيل البضائع المستوردة « يشير الكاتب من طرف خفى الى الجنون الاستهلاكى الموجود فى ايران وهو أمر ملحوظ للعيان » ، ماذا تكون هديته هذه بين الهدايا التى سوف تقدم لها ؟ لا جدال فى أنه سوف يصير سخرية من فى الحفل ، ما هذا الهندام ؟ وعندما وصل الى المنزل كان فى قمة اضطرابه وعذابه ، أراد أن يعود أدراجه لولا أن فرشته لمحته على الباب فرجته أن يصحبها فى جولة لشراء ما يلزم الحفل ، لقد سقط منوچهر من السلم وشرخ ساقه وها هو كمال يتبعها ، يحس بسخونة جسدها يلتصق به فى العربة فينسى كل شىء ، دخلت محلا لبيع الخمور فدخل خلفها ، حملته الزجاجات

فحملها ، كيف حدث ، انه يتمتم بينه وبين نفسه رغم عطر فرشته الذى يملأ خياشيمه « من أنـا ؟ » لم يعد هو نفسه لقد ضاعت نفسه منه ، كان سعيدا بها لكنه كان يهرب بنظراته •

انه وحيد وسط الحفل ، الزينات والبالونات وزجاجات الخمر وعلب السجائر التى تملأ المكان تكاد تخنقه ، سوسن ابنة خالة فرشته مشغولة مع بهرام « فتى السينما » تدخن سيجارة وقـد كشفت عن نصف جسدها على الأقل ، انها تقترب من كمـال ، تحدثه بلهجـة آمرة أن يأتى الى منزلها لمساعدتها فى دروسها ، وسـوف تعطيـه ما يريد ، ان كمال يرد عليها بقسوة ويبتعد عنها والألم يكاد يقتله ، هكذا ؟ كل قيمته فى هـذا المنزل أنه معلم ، أما كان ينبغى أن يفهم ؟ أكان لابد من هـذه الفتاة الغبية لتصفعه هذه الصفعة ؟ أراد أن ينسحب الى منزله لكنه كان يخاف أن يصير وحيدا مع أفكاره وعذابه، كانت فرشته تعطى جسدها لمن يريد أن يراقصـه لكنها كانت تبتسم له كلما التقت أنظارهما ، لقد كانت تلتصق ببهرام تحت أنظـاره ، وينصرف كمـال ، ويجلس على حافة حوض المـاء ، انه نفس المكان الذى جلس فيه مع فرشته لأول مرة ، أخذ ينظر الى السماء المرصعة بالنجوم ، أراد أن يسلم نفسه الى السماء ، لكن تلك النفس التى كان يسلمها للسماء لم يعد لها وجود ••

صعد الى منوچهر فى حجرته وجلس معه يسمع الى حكاية كسر ساقه من فم مبتسم ، ولم لا ؟ والسبب خطـاب غرامى غفل من الامضاء ظل يقرؤه حتى سقط من أعلى الســلم دون أن يدرى ، ولم تلبث الضجة أن ارتفعت من الطابق السفلى ، ان فرشته تفك لفافات الهدايا ، كلما كانت الضجة ترتفع كان قلب كمال يغوص على ضلوعه ، مـاذا تكون هديته الحقيرة ، ثم انفتح الباب ودخلت فرشـته وطفقت تتقبل كمالا ، ماذا حدث ؟ انها تمدح ذوقـه لقد أحضر لها ما كانت تريد

تماما ، أخذت تنظر اليه بوله وحب ، وسحبته الى الحديقــة ، كانت تشكره وتمدحه وتتحسسه ، ثم وضعت شفتيها فوق شفته ، كان كمال كالمذهول ، انها تجره للرقص ، لا يهم أنه لا يعرف ، انها سوف تعلمه ، وينسى كمال كل عذابه وصراعه مع نفسه وهو بين أحضــان فرشته ، كان السؤال الذى يسأله لنفسه : « من أنت ؟ » خافتــا بالرغم من أنه كان يتردد فى نفســه أثنــاء الرقص ، ثم وهو يعب فى الخمر ، لكنه لم يسأله لنفسه قط وهو يغنى ، أجل : غنى أغنيــة لا صلة لها بالأغــانى الدينية كان فى قمة سعادته ، لكنه عندما رأى فرشــته تراقص بهرام فى ركن مظلم ، كره نفســه حتى الجنون ، وانصرف .

اذن قبل كمال فتاته ورقص معها وشرب الخمر وغنى أغــانى غير دينية فى ليلة واحدة ، فهل انتهى صراعه وعبر الصراط ؟ أبدا ، انه يتقلب فى فراشــه يلعن نفسه قائلا : « مت ، مت » ، فاذا هــده التعب ، وأغمض عينيه لاحقته الأحــلام السوداء ، ويحم فى اليوم التالى فلا يقوم من فراشــه ، لقد رأى أنه بالغ فى الاقبال على العالم الجديد ، وعندما قام عصرا أراد أن يتوســل بعالمه القديم ويذهب مع خاله وابنه الصغير لزيارة ضريح الامام عبد العظيم ، لكن : ماله يحس بالانفصــام والغربة ؟ أين الأحاسيس والمشاعر القديمــة التى كانت تنهال عليه كنهر فياض فى هــذا المكان ؟ انه يحس وكأنمــا ألقى به وحيدا فى مكان غريب ، لقد طاف بالحرم عدة مرات ، لكنه كان يحس أنه يطوف حول نفسه وأن هــذه النفس لم تغادره أبدا ، انه لا يفتأ يذكر وهو فى الحرم : لمــاذا جئت الى هنا ؟ وما لهؤلاء الناس يبكون وينوحون ويضجون بالشكوى ؟ لمــاذا لم يعد يستطيع الشكوى والصراخ مثلهم عله ينجو من هــذه الأفكار السوداء التى أمسكت بتلابيبه ؟ لمــاذا لا يستطيع أن يبعد فرشــته عن فــكره تماما ؟ ثلاثة أيام لم يخرج من منزله لكنها لا تغادر فكره أبدا ، ان

آمه قلقة أهو مريض ؟ أم أن شيئا أصابه ؟ لا شك أن ابنها المؤدب الحيى قد أصابته عين السوء ، وأبوه هو الآخر يضج بالشكوى ما دام قد انتهى من الامتحان فلماذا لا يأتى الى الدكان ؟ وفى النهاية خرج من عزلته ، قادته قدماه الى حيث كان لا يريد ، لكنه وعلى الباب سب نفسه وعاد ، الى هذيانه وأحلامه السوداء .

ان والده يحاول أن يتقرب اليه : يأخذه معه الى أضرحة الأئمة والى قم ، ولايزال يردد على مسامعه طوال الطريق محفوظاته من النصائح التى كان كمال يضيق بها ويعطيها أذنا بها وقر ، كان الشوق الى فرشته هو الذى يفرى داخله ، لكنه أكثر من مرة ذهب وعاد دون أن يدق الباب ، يلتقى بمحمود صدفة فيأخذه معه الى حجرته فى ذلك المنزل الحقير الذى لا يتميز بشىء الا أن محمودا جمع ذخيرة من ألفاظ السباب التى سوف تعينه فى وضع « قاموس الشتائم العامية » الذى لا محالة واضعه كتذكار لهذه الأيام ، ان محمودا سعيد بالمتاعب التى يعانيها وان فكر والده فى أن يقدم له المساعدة فلن يقبلها ، ان هذه العلاقة بين الآباء والأبناء ليست الا من قبيل العلاقات التجارية ، عملية استثمار لا أكثر ولا أقل وهو لن يقبل أبدا أن يكون مجالا لاستثمار أحد ، ان كل ما كتب عن العلاقة بين الآباء والأبناء فى الأدب القديم لا يساوى شروى نقير ، ثم تأتى أم محمود لزيارته فلا يملك كمال الا الانصراف .

فى النهاية ذهب كمال الى منزل منوچهر ، فعلم أن فرشته خارج المنزل مع بهرام فأحس أن حملا ثقيلا قد انزاح عن كاهله ، لكنه ما لبث أن ضاق من أحاديث منوچهر عن محاولاته فى اكتشاف صاحبة الخطاب الذى كان السبب فى كسر ساقه فانصرف ، ان منوچهر أخبره عن جاذبيته التى انتشرت فى أوساط البنات والدعوات التى تنهال عليه منذ تلك الليلة التى غنى فيها ، لكن كمال يضيق

من ذلك ، هـذه صفة جديدة ، صفة المعلم كانت بالفعل أفضـل من صفة المغنى ، لكن لا يهم ، وبعد أيام قليلة يعود كمـال ، لم يعد يستطيع ، كانت فرشته وحدها فى المنزل ، لقيته فى غرفة نومها ، لكنها أخذت تشكو له من عذابها فى حب « بهرام » والعذاب الذى لقيته فى تلك الأيام التى غابها فى شيراز ، تطلب منه أن يأتى اليها فى الصباح الباكر للقائه فى المطـار ، انه الوحيد من بين كل معارفهـا الجدير بالثقـة .

يمضى كمال ، برح الخفاء ، أمضى صباحا وظهرا كئيبين فى سبيل ليل أشـد طولا وكآبة وحزنا ، رأى فى نفسه نوعا من الاستسلام ، لكنه كان لايزال حزينـا ، ورغم ذلك ذهب اليها فى الفجر فعلم أن بهرام عاد ليلا وانصرف على أن يعود عصرا .

***

اتهى عذاب كمال وغرامه اذن الى لا شيء ، كان كل ما يجعله يتقبل المجتمع الجديد بكل ما لم يكن يرضيه فيه هو فرشـته وحبه لها ، كانت هـذه الصـدمة بعد أن عرفنا ما عرفناه من سـمات شخصية كمال كفيلة بأن تلقى به خارج هذا المجتمع تماما ، أحداث أقل من ذلك كثيرا كانت تثير فى نفس كمال صراعا مرا ، أما فى هذه المرة فقد انعدم الصراع أو كاد ، أتكون الأسباب قد تقطعت بينه وبين مجتمعه القديم تماما بحيث لم يعد يطيقه وأن كراهيته لهـذا المجتمع الجديد كانت كراهية قشرية ؟ الواقع أن سـلوك كمال فى الجزء التالى من الرواية لا يقبل التفسير ، أكان قد يئس من نفسـه تماما فأراد تدميرها ؟ لنتابع اذن أحداث هـذا الجزء من الرواية لعله يلقى بعض الضوء على اجابة هذه الأسئلة .

لقد ذهب كمال الى منزل منوچهر فى ذلك اليوم ، لم يعـلم لمـاذا دعته فرشـته ، الا أنه علم فيما بعد أن السبب فى الدعـوة

ألا تظل احدى المدعوات وحيدة وان كان قد ظن فى البداية أنه دعى لاقناعه بالتدريس لسوسن ، ثم يتردد كمـال على منزل منوچهر « لم يعد منزل فرشته » وكأن شيئا لم يحدث ، فلا صراع ولا تساؤل وتنقرب اليه الفتاة « سوسن » لكنه ضائق بها « انها تشبه بهرام وكأنهما أخوان » طريقتها فى مط الحروف والأصـوات عند الحديث تثيره ، زينتها متكلفة ولكنهـا ليست ممجوجة ، انهـا ليست مثل فرشته تتسلل بخفة ونعومة لكنها تقتحمه اقتحاما ، وكان كمـال ضائعا أو لعله كان يريد الانتقام من بهرام « ألم يكن الانطبـاع الأول أنها تشبه بهرام ؟ » وبلغ كمـال قمة ضياعه عندما لمح بهرام يقبل فرشته وراء الأشجار ، وكانت سوسن ملتصقة به فقبلها ، ولكى يدارى ضعفه واضطرابه غنى لها ، غنى لها كما لم يغن لفرشـته يوم ميلادها ، وبعدها كان فى منزلها •

وأسرة سوسن تقدم فى الرواية ما يمكن أن ينتهى اليه العـالم الجديد من انحطاط ناشىء عن فهم خاطىء للتقدم ، أم شابة وزوج كثير الغيـاب وعشيق للأم يتردد على المنزل فى حضـور الفتـاة المراهقة التى تكرهه وتكره نفسها وتكره كل من يحاول التقرب منها وتنتقم منه عن طريق اذلاله جنسيا ، أترى ، هل شـد كمال الى هذا المجتمع الجديد أنه يضاعف كراهيته له ؟ ان سوسن هى فرشته كما كان يتمناها كمال ، انها تعترف له أنها أعجبت به منذ أول مرة رأته ، لتكن صادقة أو كاذبة ، فهذا شىء لا يهمـه ، انه يعرف ماذا تريد منه ويعرف هو أيضا ماذا يريد منها ، لا عقد هناك اذن ولا صراع ، فقط ليتها تتحدث معه كثيرا عن الدروس ولا تتحدث عن الغنـاء الذى تهواه لكنها تدفعه ، تثير فى نفسه ما لم تكن فرشته تثيره قط ، وكمال مع كل ذلك يحـاول أن يقاوم ، يقوم من مكانه فجـأة قائلا : لست معلم بيوت ولست مغنيا لا أدرى لمـاذا جئت الى هنا ••• وداعا ، لكن سوسن كانت تعرف كيف تسكته فأسكتته •

في اليوم التالي بينما كان يرتدي ملابسه ليذهب الى الدكان ارتفع اللغط في الفناء ، ماذا جاء بعمه في هـذه السـاعة ؟ ليكن ما جاء به ما جاء به ، لم يعد يهمه أحد ، لكن الأمر هـذه المرة لم يكن خاصا بكمال ، كان خاصا بجماعة المؤمنين ، أن بعض الدكاكين قد انتزعت ملكيتها لبناء دار سينما مكانها ، ان والده ثائر ، كيف يكون هـذا ؟ وبجوار مسجد ، وفي هـذا الحي الذي يسـكنه المؤمنون ؟ « لا تزال الجماعات الدينيـة المتطرفـة في إيران تعتبر السينما حراما ، ولا توجد دار سينما واحدة في المدينة الدينية قم » ، ان عمه يوصي والده بأن يهدأ ، فان الأمر سـوف يتم أراد أو لم يرد ، واذا أصر على المقاومة فسوف يسجن ، ويفكر كمال : ترى لو لم تنتزع ملكية بعض الدكاكين ، أكان والده يثور هـذه الثورة ان الأمر لا يتعلق بالدين كما يقول محمود ، انه الاقتصـاد . ويخرج كمال : الحي بأجمعه ثائر ، غدا تهدم المساجد لبناء دور الدعارة ، ويسمع في الأتوبيس همسا ، بالأمس وزعت منشورات سرية في الحي ، منشورات سرية ؟ منذ كم من السنوات لم يسمع النـاس هـذه النغمة ؟ ويضع رجل ما في يده ورقة مطوية ثم ينزل من الأتوبيس ، لكنه ما ان يفتح الورقة حتى حل محل خوفه رغبة ملحة في الضحك ، أهذا الذي يسمونه منشورا سريا ؟ طهران غارقة في الكفر والضـلال وسوف ينزل عليها بلاء من السماء يحرق الأخضر واليابس وينبغي ان تحذر أمة محمد من هـذا الضـلال ، ثم اكتب هـذا المنشور مائة مرة ووزعه والا نزل بك أو بأسرتك بلاء ، ما هـذا ؟ مائة مرة ؟ لا عشرة ولا عشرين ، ينبغي على الانسـان اذن أن يكون عاطـلا وبلا عمـل .

في المساء كان في منزل سوسن ، ان الموضـوع الذي يدور حوله الجدل هو أن والد سوسن حدث مدير النادي « وهو بالمناسبة عشيق الهانم » بأن يقدم كمال كصـوت جديد في حفل النادي ،

هذا ذنب كمال ، لو أنه احتج منذ البداية على اعتبـاره مطربا لمـا تمادوا فى الأمر الى هـذا الحد ، ان كمال يرفض أولا بلين ثم بغلظة ولا مجيب ، كانت سوسن واثقة فى النهاية بأنه سـوف يستجيب ، انها تستمع الى احتجاجاته وهى تبتسم ، تعده وتمنيه الأمـانى ، تجعله أشـد ما يكون قربا من النبع ثم ترده ظمآن دون أن تيئسه ، وكمال يتذكر المـآسى التى قصها عليه ذلك الرجل الذى علمـه الطرب ، لا ، لن يحترف الغناء ، لن يكون البديل عن الحياة التى يحياها هو احتراف الغناء ، فى تلك الأيام بلغ ضيقه من منزل سوسن منتهاه ، انها تتلاعب به ، كيف وصـل الى هـذه الدرجة معها ؟ انها أحيانا تطلب منه أن يغنى وسط مجموعة فاذا بدأ الغنـاء صاحت به أن يصمت ، فيصمت ، وكم أعطته مواعيد فى الظهيرة ، كان يتعلل بعلل واهيـة ويتسرب من الدكان ثم يذهب ويظل منتظرا فى حمارة القيظ ساعات ولا تأتى ، كانت تمنحه بمقدار وتطعمه فى الكثير ليظل أسير هواها ، كانت تفتح أمامه أبواب حياة مفعمة باللذة والمتعـة لكنها ممتزجة بالاحتقار والذلة ، لكنه وفى الليلة المتفق عليها يذهب وقد أسر فى نفسه أمرا .

انه يدخل المنزل لاعنا نفسه ، لينته اذن كل شىء ، ليقل لهم انه ليس الشخص الذى تصـوروه ثم يذهب الى حال سبيله ، انه يمر على حجرة أمها فيجدها متلبسة مع عشيقها بالجرم الفاضح ، ثم يدخـل على سوسن حجرتها ، انها شبه عارية ، تتصنع الخـوف وتأمره أن يخرج من الحجرة ، ويخبرهـا أنه لن يأتى الى الحفـل فتبتسم ، لكنه يغلظ فى القول وترى أن الأمر جد لا مزاح فيه هـذه المرة فتغلظ هى الأخرى : أتظن أنك مطرب ، اذا لم تكن مطربا فلماذا تغنى هنا وهنـاك ، ولمـاذا أسمح لك بالمجىء هنـا يا بن بائـع الجلود ، لا تريد أن تكون مطربا ؟ ماذا اذن تريد أن تكون قارىء روضة بخمسة تومانات ؟ اذهب ، اذهب ، من الأفضـل أن تشتغل

كاتبا فى دكان أبيك وتبيع الجلود ويصفعها كمال فتتحداه ، ويضربها ، ويشتبكان معا . لكن رغبة أخرى تثور فى نفس كمال ، رغبة أراد أن يرد بها على كل الذل الذى أصابه فى هذا المجتمع ، بدأ مغتصبا ، لكنها بعد قليل شدته اليها ، وكان له برضاها ما أراد .

***

فى الأيام التالية قبع فى منزله خائفا ، تكسرت كل سفنه وهو فى عرض البحر ، لا هو قريب من هذا الشاطىء ولا ذاك ، عما قليل سيعلم أبوه ويربطه الى شجرة ويجلده ، لكن والده مع ذلك يحسن معاملته ويستميله ، لابد أنه يدبر له أمرا ، كان يحاول مداراة خوفه بالقراءة ، وكان يذهب الى الدكان كعادته ، وبدأ يفتح عينيه على أشياء كثيرة ، منذ سنوات حينما كانت المظاهرات تملأ شوارع طهران كان والده يقول انها ألاعيب الانجليز ، أما محاولة الاغتيال التى حدثت فى السنة الماضية وما تبعها من اعتقالات فقد فتحت عينيه على أشياء كثيرة « لم أدر أى محاولة يقصد من المحاولات الاغتيال العديدة التى حدثت فى ايران فى الثلاثين سنة الأخيرة » كان يسمع التلاميذ يتحدثون فى السياسة وقانون المطبوعات والمادة السادسة من لائحة الانتخابات ومباحثات أزمة النفط كأشياء لا معانى لها ، لكنه لم يكن يفهم مصطلحاتها فتركها « لعل الكاتب رمى كمال المسكين بعدم الفهم حتى لا يتورط هو نفسه أكثر من ذلك ، وقد كتب فى هذا الموضوع ستة أسطر فقط بينما وصف لقاء كمال الجنسى مع سوسن فى ست صفحات ، وعلى كل حال فهو يشكر لأننا علمنا أن أحداث الرواية تدور فى أوائل الخمسينيات حين كانت الأزمة المعروفة بأزمة مصدق فى قمتها » .

نعود الى كمال الذى أراد أن يقطع كل صلة بينه وبين العالم الجديد ، لكن العالم الجديد لم يتركه فى حاله ، انه يفاجأ ذات يوم

بمنوچهر يدخل عليه حجرته ، يحدثه عن رحلته الأخيرة الى القرية ، ويطلب منه الذهاب معه الى منزله ، فاذا رفض كمـال أخبره أن فرشته غاضبة منه ، ماذا قـال عنها لسوسن ، فاذا أبدى كمـال عدم اهتمام لكل هـذه الموضوعات وسخر من منوچهر قائلا : لمـاذا آتى ألم ينه السيد المعلم مهمته أخبره منوچهر أنهما فى العام التالى لن يكونا زميلين ، لقد اشترى والده منزلا فى شميران وبعد أسبوع أو أقل سيرحلون من المنزل القديم ، ألم يعد يريد المجىء بعد هـذا كـله ؟

ويعود كمال الى المنزل لكنه يحس بنفور عجيب ، لمـاذا جاء ؟ هل جاء ليحس بالغربة ويتحمل ما يكره ؟ لا ، ليسمها زيـارة توديع الذكريات لقد فهم فى الطريق أن منوچهر لم يعلم شيئا عما حـدث بينه وبين سوسن ، أكان من الممكن أن يمر مثل ما فعل دون مساءلة ؟ يا له من عالم عجيب ، ها هو يسير مع فرشته فى الحديقـة وكأن شيئا لم يكن ، هجرها بهرام الى سوسن ، خطوة واحـدة ويتم التبادل ، أتراها تريد منه أن يختار لها معشوقا ؟ ألم يثبت حسـن اختياره فى هدية عيد ميلادها ؟ أم تراها تريد أن تطلعه على قصـة حبها الجديد ، يا له من عالم ، فقد انبهاره تماما منذ تلك الليلة التى اقتحمه فيها عن طريق سوسن ، ما هـذه الخزعبلات التى تقصـها فرشته والتى نقلتها لها سوسن ؟ أحقيقة تحدث بكل هـذا السوء عن فرشته ؟ ربما ، لكن الحبل الذى انفصم بين كمال وفرشته يوشك أن يتصـل ، انها تلتصق به وتهمس فى أذنه : كم تغيرت يا كمـال ، اننى أحس أنك كمال جديد ، ثم رجته أن يغنى فغنى ؛ ورجتـه أن يعود فى الصباح ليقضى معهم أسـبوعا فى القرية فخرج بعد أن وعد بالمجىء •

ما لمنزله يضغط عليه هكذا ؟ ألم يكن قد حاول استرجاع الود

المفقود بينه وبين هـذا المنزل ؟ حتى أمه لم تعد تفهمه ، باتت تظن أنه قد أصبح متعاليا عليها وقد تشاجرا بلا سبب ، ماذا يستطيع أن يفعل ؟ انه يقبع فى حجرته لكنه يسمع من حديث بين والديه ما يدبر له ، اتفق والده مع « حاج أصغر الدباغ » أن يقوم له كمـال بأعمال الحسابات ، ومن الغد عليه أن يذهب اليه ، لا ، ليس هـذا كل شيء تضيف والدته أن الحـاج أصغر يريد كمال من أجل شيء آخـر ، ألم يرسل اليه قطعة من القماش هدية بعد عودته من مكة قائلا انها «لعريسنا » ؟ لكن لو يصبر عليه أبوه حتى ينهى دراسـته الثانوية ، هـكذا ترجو الوالدة ، لكن الأب مصمم ، ما فائـدة الدراسـة وما فائدة هذه العلوم التى تبعد عن الدين ، وحتى اذا انتهى من دراسته الثانوية هل يمكن أن تواتيه هـذه الفرصـة التى تواتيه الآن ؟ ثم انه لن يفلح فى دروسـه ، لقد رآه بنفسه يركب عربة مع جماعة من الشبان الفاسدين والفتيات السافرات ، وأخبره أخوه أنه يدرس لبنات الأعيان والأشراف فى بيوتهم ، من كان يظن أن كمـال فى النهاية سوف يتكشف عن هـذا الصائع الضائع ؟ وبالأمس ذهب الى حجرته ووجدها ممتلئة بكتب العشق والغرام من أين عرف والده كل هـذا ؟ لابد أن أخواتـه تصنتن عليـه يوم أن كان منوچهر فى زيارته ، ان كمال يحس بيأس مطبق ، يريد أن يخرجه من المدرسـة ليعمل عند الحـاج الدباغ ويستفيد هو من ذلك ، يتحدث عنه كمـا يتحدث عن أحد حمره ، صبر كثيرا كان يقول انه عـام ويمر ، عمل له طوال الصيف فى حساباته ، كل ذلك فى سبيل أن يتركه يقضى العام الباقى فى المدرسة ، والآن يريد ذلك ، الى متى « واخفض لهما جناح الذل » ؟ لن يخفض لهما جنـاح الذل بعد الآن ، لقد تعب ومل وضاق وقرف ، ينبغى أن يذهب من هـذا المكان بأسرع ما يمكنه •

ليلة طويلة قضاها كمال ، ليلة راجع فيها كل حساباته الشخصية، كل ما حوله ومن حوله لم يعد يساوى شيئا ، من يكون أبوه حتى

يتحدث عنه بهذا الأسلوب وحتى يحترمه الناس كل هـذا الاحترام ، ليس أكثر من متهوس مذهبى لا قيمة له . والمدرسـة ؟ لا يفهم لمـاذا يدرس ، أمه وخـاله يريدانه مهندسا أو طبيبا وعمـه يريده عالمـا دينيا أو واعظا ، وأبوه يريده أن ينتهى بأسرع ما يمكن ثم لا يكلفه بعدها مليما ، الحياة بالنسبة لوالده كفتا ميزان : واحدة فيها المـال والأخرى فيها الدين ، ليلة طويلة مثل كل حياته ، لا يدرى أى صباح سوف يتلوها ، تترى عليه الأحلام السوداء ، ويفيق قرب الفجر على والده يملأ الجو ضجيجا وعجيجا استعدادا لصلاة الفجر .

ارتدى ملابسه ، وعقد رباط عنقه ، نظر الى نفسه فى المرآة أكثر من مرة وتذكر كلمـات فرشته الأخيرة ، تغيرت تماما يا كمال ، وتردد قليلا ، وكان لايزال فى تردده وتفكيره عندما صفعه صـوت والده : الى أين يذهب جناب السيد بهذا المنظر ؟ كان قد أخبر والدته، وها هى تخبر والده بصـوت مرتعش ، حسنا ان كان يريد أن يذهب فليأخذ أخاه الأصغر معه ، ماذا ؟ ! عبد الله المصاب باسهال دائم ؟ لا هذه مجرد حجة ، لو قلت سوف آخذه ستتعلل بشىء آخر ، اذن اذهب الى الدكان ، لكن ألم يقض الصيف فى الدكان ؟ لا يا عزيزى الى الدكان الجديد ، ويرد كمـال بسخرية : « أجل أصير كاتبـا عند الحاج الدباغ ثم اتزوج ابنته القبيحة وبعدها أصير كبير الدباغين ، ثم أمضى معها تحت اللحـاف وأنتج المزيـد من القائلين لا اله الا الله ، تباعا ، ثم أجلس القرفصـاء وآكل حساء الشعرية والزبادى بالخيار وأتجشأ ، أضـع على كتفى عباءة من وبر الجمل وأقرأ حلية المتقين وحديقة المسلمين ، وأصرخ : يا حمير مهما أقول قولوا على عينى ، افعلوا هـذا ولا تفعلوا ذاك ، هذا حلال وهـذا حرام ، فى هـذا ثواب وفى هذا معصية ، أمسك المسبحة وأسبح وأسبح وأسبح .. الى متى لا أملك الحق ... دعونى ... لست عبدا اشتريتموه ، كل الحياة معكم ذلة واختناق ولعنات ومصائب ، اتركونى ، سترون كيف

أمضى ولن تملكوا شيئا لى » رأى والده يقترب منه كما يقرب جاره من كلبه بالسوط ، رأى يد والده ترتفع وتنخفض ، كانت عيناه مغمضتين تحت الضربات ، كان يسمع صوت الضرب فى أعماق رأسه ، وأحس بوخز مؤلم فى كل وجهه ، كأن الرجل العجوز يضرب كلبه . وأحس بحرارة الدمع فوق وجنتيه .

نظر الى السماء ، كان الجو مظلما ، عندما أغلق الباب خلفه لم يعد يملك شيئا ، صارت كل الأحلام والرؤى مثل دخان بعيد ، كعائد من جنازة أعز الأحباء ، عندما كان يغمض عينيه كان يحس أن كل هذه الأحداث غامضة ومبهمة ، عندما أنهضوه وجذبوه من فوق جسد والده الممدد تحته ، كانت هناك أصوات ترجوه وتلتمس منه وكانت صرخات مفزعة ووجوه عابسة فزعة مندهشة ، وأصوات لاعنة ، وعندما وقف كانت الأشباح لاتزال تحيط به ، كانت تحدق كأنها تنظر من خلال ضباب غليظ ، كان أبوه ينظر اليه ، بعينين مستلئتين بالسب واللعن .

كان الليل الطويل لايزال ينوء بكلكله على الكون ، سار طويلا فى الشوارع الخالية ، وجلس مشعث الشعر ممزق الملابس ، أغمض عينيه ورأى كمال الصغير يترنم بمرثية من مراثى آل البيت ويتلاعب بحقيبته السوداء الكبيرة ، ثم رأى كمال جالسا فى حجرة مع جمع من الأطفال وقد وقف طفل على كرسى وأخذ يعظ ، كانت هناك جماعة من الأطفال الصغار ، وعلى باب المنزل بيرق صغير كتب عليه « هيئة فدائى » ... أين ذلك البيرق ؟ أين يجب البحث عنه ؟ أين ذلك البيرق الصغير الأسود الذى هبت الريح وأخذته معها وأسرعوا خلفه حتى وجدوه ؟ أين ذلك البيرق ؟ أين ينبغى أن يبحث عنه ؟ أين ذهب الفدائيون ؟ هبت الرياح وحملت معها البيرق والفدائيين ، هبت الرياح وحملت معها كمالا الصغير .

آكان كمـال لا يدرى حقا أين يبحث عن البيرق ؟ ترى الى أين يمضى كل ضحايا صراع الطبقـات ، ألم يعد يفهم بعد أولئـك الذين ينسون أن الانسان له طاقة يقف عندها أن من تغلق فى وجهه أبواب طبقته ولا يسلك طبقة أخرى يعلم مباشرة الى أين يتجه ؟ آلم يأن الأوان أن يعلم أولئك الذين يحاربون البيرق الأسود فى دول العـالم الثالث أنهم أول من يمهد له الأرض وأنهم بهـذا التناسى المضحك المبـكى للانسان يلقون به فى أحضان البيرق الأحمر وهم لا يدرون ؟

مضى كمال فى طريقه ، كان الفجر فى سبيله الى الظهور ، وجـد من نافذة محمود نورا خافتا يطل ــ لم يكن أمامه من نور سواه ــ وتنفس نسيم الفجر بعمق ، ونظر الى ظله الممتد بعرض الحارة ، ودق على النافذة بقلب خافق ، وفتحت النافذة ، وأطل منها رأس ، وأخذت عين وسنانة تبحث فى ضوء الفجر الخافت .

وقال : أخى ، أنـا كمال ، جئت اليك .

وارتفع صوت محمود :

***

مرحبـا يا أخى :

لا أظن أن الرواية فى حاجة الى تعليق ، فهى فى غاية الوضوح ، يكاد كل سطر فيها ينطق بما يريد الكاتب ولا أظن أن ما يريده ببعيد .

٧ ـ نون والقلم

لجلال آل احمد

جلال آل أحمد كاتب ايرانى معاصر ، ولد فى عشرينات هذا القرن فى بيت دين ، وانضم فى شبابه الى حزب توده ، لكنه انصرف عنه فى أوائل الخمسينات بعد افتضاحه فى أزمة مصدق ، وانشغل فترة من الوقت فى جمع التراث الشعبى الايرانى ، وبعدها أدرك أن الدين هو البنية التحتية للشعب الايرانى ، وحج الى بيت الله الحرام ، ثم أصدر كتابه « خسى در ميقات : قشة فى الميقات » ، ووقف أمام تيار التغريب الذى كان سائدا فى ايران فى كتابه الذى صدر فى أوائل الستينات وصودر مرات من قبل السلطة الملكية « غرب زدكى : معاناة التغريب ». ومن أهم أعماله القصصية مجموعاته : « من الآلام التى نفاسى : از رنج كه ميبريم » و « امرأة فوق المدد : زن زيادى » و « سيرة خلايا النحل : سر كذشت كندوها » . ومن أهم رواياته « ناظر المدرسة : مدير مدرسة » و « نون والقلم » . توفى آل احمد وفاه مشكوكا فى أمرها وفجائيه فى كوخ له على بحر الخزر سنة ١٩٦٧ .

***

كان فى نيتى أن أختم هذا العرض لتطور الرواية الفارسية

المعاصرة بالرواية التى عرضتها آنفا رواية « طول الليل » على أنها مواجهة بين القديم والجديد ، وبالفعل ختمت الكتاب وقدمته للنشر، لولا أن عوامل معينة حالت دون نشره ، وبينما هو قابع فى طابور الانتظار ينتظر فرصته اذا بالأحداث تنفجر فى ايران ، فتصير أنباء ايران على كل لسان ، ويقدم الشعب الايرانى ملحمة سوف تثير الكثير من التساؤلات لعدة أجيال قادمة . وكان من حسنات هذه الصحوة الشعبية اعادة نشر كثير من الكتب والأعمال الأدبية المصادرة ، وضمن احدى رسائل الكتب التى وصلت الى من ايران عام الثورة ، لفت نظرى عنوان هذه الرواية « نون والقلم » أما الكاتب فكنت قرأت له قبلا روايته الشهيرة « ناظر المدرسة » كما قرأت كتابه الذى جر عليه الوبال وربما الاغتيال « معاناة التغرب » ... قلت بينى وبين نفسى : لاشك أن كتابا يحمل هذا العنوان يخفى بين دفتيه عملا دينيا أو رواية دينية ، فضلا عن أن الأعمال المصادرة والتى يفرج عنها بعد طول سجن تشد اليها الانتباه ، ان لم يكن لقيمتها الفنية ، فعلى الأقل لاكتشاف السبب الذى من أجله حكم عليها بالسجن والمصادرة ، ومن هنا انصرفت الى قراءة الرواية ، ومن الصفحات الأولى لها شدتنى فلم أجد منها فكاكا ، وبعد الانتهاء من قراءتها قلت بينى وبين نفسى : هذه التجربة الفنية العظيمة بموضوعها الغريب جديرة حقا بأن تقدم كاملة للقارىء العربى ، أما والوقت لا يسمح ، وقد لا يسمح أيضا جو النشر ، فلأقدمها فى هذا الكتاب .

من الصفحات الأولى للكتاب يحس القارىء أنه بازاء عمل غريب بالفعل ، غريب فى ميدانه وغريب فى فنيته ، أما الميدان فقد كان جديرا حقا بالمصادرة فى عهد الشاه ، فهو يتناول ثورة دينية من الثورات التى يحفل بها تاريخ ايران على مر العصور ، وفيها يمتزج الدين بالبنية الاجتماعية بكل جوانبها السياسية والاقتصادية ، بحيث أننا كلما

تقدمنا بضع صفحات فى الرواية اكتشفنا أن الثورة الدينية ما هى الا غطاء لجوانب الثورة الحقيقية ، وما هى الا اطـار يقدم الكاتب من خلاله عوامل التفاعل فى مجتمع تعد الصبغة الدينية هى البنيـة التحتية له ، وبالرغم من أن الرواية تقدم ثورة دينية فى حقبة من تاريخ ايران « القرن الحـادى عشر الهجرى والسابع عشر الميلادى » وان لم يصرح الكاتب بالخلفية الزمنية لروايته ، الا أن النماذج البشرية التى يقدمها تتجاوز الزمان والمكان ، فكأن جلال آل أحمد أراد أن يقدم نظرة استشرافية لثورة شعبية ذات اطـار دينى وذلك قبل أن تنفجر الثورة الأخيرة بسبع عشرة سـنة بل قبل أن تقوم ثورة قم الأولى « سنة ١٩٦٣ » ، فالطبعة الأولى للرواية صدرت سنة ١٩٦١ • أى فى الارهاصات الأولى للحركة الخمينية ، ومن هنـا كانت خطورة الرواية ومن هنا صودرت ، وأغلب الظن أن الرواية لن تجد الترحيب فى ظل العهد الجديد ، فالثورة الدينية التى تصورها تنتهى الى الفشل، وتنتهى بهرب الثوار بليل ، وكلها اسقاطات لا أظن أن العهد الجديد فى ايران سوف يتقبلها •

قلت ان الرواية تاريخية ، لكنها أيضا رواية تاريخية مستقبلية تأخذ من التاريخ سـندا لكى تستشرف المستقبل استشرافة نفاذة ، وهى سمة غالبة فى الروايات التاريخية ، ومع ذلك لا أميل الى اطـلاق الحكم على الرواية كرواية تاريخية ، فالأحداث التاريخيـة هنا مجرد خلفية وأداة لبيان أفكار شديدة المعاصرة ، ولتجلية مجتمع فى حـالة غليان دائم ، فالرواية ايرانية حتى النخـاع ، تقدم بنيـة المجتمع الايرانى لا فى فترة تاريخية معينة كما قد يتبادر الى الذهن ، بل فى صورة كلية شاملة لا تتقيد بالزمان أو التاريخ ، وقد تقدم تفسيرات كثيرة لأسـئلة لاتزال تثير كثيرا من ظـلال الغموض حـول الثورة الايرانية الأخيرة •

والى جوار كل هذا قدم الكاتب روايته فى شكل ايرانى وصياغة

ايرانيـــة ، فهى تتكون من مقدمة لا علاقة لها فى الواقع بموضــوع الرواية بل تنبع من الأدب الشعبى الفارسى ، ثم يدخل فى موضــوع الرواية الرئيسى فيقدمه فى سبعة فصــول يســمى كل فصــل منها مجلسا وهى تسمية ايرانية للفصل مأخوذة من كتب الروايات والسير التى تكتب حول آل البيت ، ويختم الرواية بخاتمة يربطها بالمقدمــة الأولى وبموضوع الرواية ، وعلى طول الرواية لا تغيب شخصــية الراوى عنا ، بل ينتقل من حادثة الى حادثة ومن موضوع الى موضوع ويربط بين الأحداث ويعلق عليها ، كل ذلك فى لغة فارسية خالصــة حافــلة بالكنايات والاستعارات والايماءات تتقدم كثيرا على لغــة « هدايت » فى هذا المجــال ، فكأن الكاتب أراد أن تكون روايته « ايرانية » شكلا وموضوعا ولغة ، وهذا هو ما توصل اليه بالفعل .

***

فى اطار شعبى يقدم جلال آل أحمد روايته بالأسطورة الشهيرة فى كل الآداب الشرقية والتى تقدم نظرة سياســية نفاذة فحواها أن السلطة السياسية فى الشرق أمر يجرى مجرى الصــدف والاتفاقات وخبط عشواء ؛ وقد يكون من يظفر بهذه السلطة هو آخر من يصلح لها بالفعل ، وأنه هو نفسه قد يكون ضائقا بها زاهدا فيها .. فنحن أمام راع أقرع ، حياته محصــورة بين قطيعه والجبال والمراعى التى يرعى فيها هــذا القطيع ، وذات يوم يسمع ضجة قادمة من ناحيــة أسوار المدينة ، ويهرع ليستطلع الخبر فــاذا بصقر يطير ويحط على رأسه ، واذا بالناس يحملونه على الفور الى كرسى الوزارة وذلك بالطبع بعد استبدال ملابس الوزارة بالأســمال التى كان يرتديها . فمــاذا فعــل ؟ .

خبــأ ملابسه القديمــة فى مكان ما وأخــذ يعودها كل يــوم متحسرا على أيامه الخوالى ، وكان هــذا بالطبع سببا فى طرده من الوزارة وعودته مسرعا الى قطيعه فى الجبل وحياته الأولى .

هذه المقدمة الساخرة الحادة لا تلبث أن تسلمنا الى الفصل الأول من الرواية ، فاذا بنا فى احدى المدن التى لا تتميز بشىء عن غيرها من المدن « فهى تحتوى على وزير وملا ومنجم وشرطة وعسس وشاعر وجلاد » ، ومن بين هذا الجمع يقدم لنا الكاتب بطلى الرواية، اثنين من كتاب العرائض المحترفين الذين يكتبون العرائض والشكاوى للأميين من أهل هـذه المدينة وما كان أكثرهم ، أما الكاتب الأول فيسمى ميرزا أسد الله ، والثانى ميرزا عبد الزكى ، وقد نشآ معا وتربيا معا وكان وضع كل منهما لا يسمح له بأن يتنافسا معا ، فميرزا أسد الله سعيد فى حياته العائلية رزقه الله بطفلين هما قرة عينيه ، وميرزا عبد الزكى على صلة بالجهات العليا ولا يجلس الى منضدة على باب الجامع الكبير كما يفعل ميرزا أسد الله بل يتمتع بمكتب يزاول فيه مهنته ، الا أن أهم ما ينغص عليه حياته هو حرمانه من الذرية مما يسبب له « نكدا » مستمرا من زوجته ، وفيما عدا ذلك فهما يشتركان معا فى كتابة صكوك المعاملات والصفقات لتجار السوق والخطابات المرسلة من الأميين الى ذويهم والواجبات المدرسية لأولاد الأعيان ، والتعدى أحيانا على مهام رجال الدين وكتابة وصايا كبار التجار أو عقود البيع لهم ، لكن هذه الأمور لم تعد ميسرة لهما وذلك لأن عينى « ميزان الشريعة » مفتى المدينة مفتوحتان تماما ، ولا ينسى ميرزا أسد الله ما حدث له عندما تجرأ وكتب وصية أحد التجار ، وضيع على ديوان الشرع نصيبه المفروض فى هذه الأحوال .. وبالطبع كان أغلب معاش هذين الكاتبين من كتابة عرائض الشكاوى لمن يقع عليهم الظلم فى هـذه المدينة ، ومن هنا كانا يعرفان الوجهة التى يجب أن توجه اليها كل شكوى لتصيب هدفها ، ومن هنا أيضا كانا على صلة بطرفى النقيض فى المدينة : القمة الحاكمة والأغلبية المحكومة المقهورة ، وكان أحدهما وهو ميرزا عبد الزكى متزوجا من امرأة ذات حسب تمت بصلة قرابة الى « خانلر خان » الذى كان مرشحا

لمنصب « ملك الشعراء » أى شاعر البلاط ، وكانت هـذه المصاهرة تدفع ميزان الشريعة الى اشراكه ككاتب لعقود الزواج فى بيوت علية القوم ، وأهـم من كل ذلك أن ميرزا عبد الزكى كان يحمـل اللقب السحرى فى ايران أى لقب « سـيد » الذى يدل على أنه من نسـل آل البيت ، ومن ثم كان معروفا بأنه رجل مبارك مقبول الدعاء ، ومن هنا وسع دائرة أعماله لتشمل كتابة الأدعية والأحجبة وبالطبع لم يكن ليرد احدى نساء الأشراف ان طلبت منه عمـلا من أعمـال السـحر والشعوذة ، وللشباب المتأدبين كان ميرزا عبد الزكى يجمع الأشـعار التى تصلح للالقـاء فى الأفـراح والمـآتم والمـآدب أو عند عودة الحجاج ، وكان بارعا حقا فى العثور على أبيات من الشـعر « تقتل الأئمـة كلهم فى بيتين أو تمدحهم فى بيتين » ... وهـكذا احتفظ جلال آل أحمد بسمة تقليدية من سمات الرواية الفارسية وهى تقديم الأشخاص فى بدايتها ، الا أن اختياره لشخصيتين ذواتى صلة بالمجتمع قمته وقاعدته سببا فى القاء الضوء على المجتمع بشكل عام ، وبالرغم من أن التركيز فى هذا الفصـل كان على الشخصيتين الرئيسيتين الا أن القارىء استطاع أن يظفر بفكرة عامة عن المجتمع وعن بعض الشخصيات الأخرى المؤثرة فى هـذا المجتمع وعن بعض القيم التى تحكم هـذا المجتمع ، وبالرغم من أن الشخصيتين الرئيسيتين متشابهتان بشـكل عام ، الا أننا سوف نكتشف فيما بعد حين نمضى فى قراءة الروايـة أن التشابه ليس هو السمة التى تجمع بين هاتين الشخصيتين ، بل هو تشابه ظاهرى يخفى وراءه تناقضـا فكريا شديدا لالقاء معه .

***

فى المجلس الثانى نزداد معرفة بشخصية ميرزا أسد الله عن طريق مناقشة بينه وبين طفله ، هذه المناقشة تبين كثيرا من آراء ميرزا أسد الله حول الفقر والغنى والطبقية فهو يحاول بشتى الطرق أن يفهم الطفل الذى يتعجب من الفرق بين مستواه فى « الكتاب » ومستوى الآخرين

أن الأمر كله يتعلق بالوراثة وأن الفقير فقير لأنه يولد من آباء فقراء والغنى غنى لأنه يولد من آباء أغنياء فكل شخص يرث مهنة أبيه ومن ثم يرث مستواه ، وحينما يسأل الطفل : وأى ميراث سوف يتركه له يجيب · ان الميراث الذى تركه له والده والذى سيتركه بدوره له هو هذه الحروف الصماء والتى تحتوى على كل « الكلام » ، سـواء ذلك الذى نزل على الأنبياء أو كتبه الفلاسفة أو نظمـه الشعراء ، وحتى اسم الله الأعظم الذى يدعى الدراويش أنهم توصلوا اليه مكون من هـذه الحروف ، وهذا الكلام من الممكن أن يكون أداة للشيطان، لكن ليس على الانسان أن يجعل منه أداة للشيطان ، فـاذا انصرف الطفل الى حال سبيله ، انصرف ميرزا أسد الله الى محل رفيقه ميرزا عبد الزكى ، ودار بينهما حديث نلتقى خلاله لأول مرة بالخلفية التى تدور فيها الرواية وهى ثورة الدراويش التى استقطبت الناس الذين يبحثون عن المعجزات ، ثم يدور الحديث عن حادثـة آخرى سـنعلم فيما بعد أنها غير منفصلة عن الحادثة الرئيسية أى ثورة الدراويش وهى وفاة الحاج « ممرضا » (نطق ايرانى لمحمد رضا) فجـأة ثم اتفاق الورثة على وقف ثلث التركة ، وأن ميرزا عبد الزكى هو المدعو الى الذهاب لحصر الأملاك واعداد المستندات وما الى ذلك ، وبينما كانا يناقشان هذا الأمر ، يحضر قروى لكتابة شكوى ، فقد جاء الى المدينة لبيع « جبنه » فصودر بغله فى السخرة ، ومن خـلال حديثه نلم ببعض أطراف جو الفوضى الذى تعيشه المدينة والرشوة والفساد المتفشيين فيها ، فاذا انصرف القروى بعد أن تعلم درسـا عما ينبغى أن يقوم به فى المدينة لكى تقضى مصالحه ، عـاد بطلانا الى الموضوع الرئيسى وهو موضوع وقف ثلث تركة الحـاج « ممرضا » ، وأن ميزان الشريعـة نفسة هو ناظر الوقف ، ثم ينتقل ميرزا عبد الزكى الى أوضاعه العائلية؛ ان زوجته مصممة على الطلاق ، وتفسد له معدته بما تضعه فى طعامه من أعمال الشعوذة حتى صار طعامه كله من السوق وبالأمس أنذرته انه

ان لم يذهب الى طبيب البلاط ويجد علاجا لعقمه فسوف تترك له المنزل.
ويقترح عليه ميرزا أسد الله بأن يعرض نفسه على طبيب آخر هو خال
ميرزا أسد الله نفسه ، وأن يشغل زوجته بشيء ، كأن تشترك مع زوجة
ميرزا أســد الله فى نسج السجاجيد فى منزل ميرزا عبد الزكى .

***

فــاذا بدأ المجلس الثــالث انتقل بنا المؤلف الى منزل كل من
أسد الله وعبد الزكى حيث تقنع زوجة الأول وزوجة الثانى بأن يبدآ
فعلا فى مشروع نسج السجاد ، وكأن الصديقان فى منزل ميرزا أسد الله
حيث يحضر خاله الطبيب لفحص ميرزا عبد الزكى ، وبعد أن يسخر
من أعمال السحر والشعوذة التى يقوم بها يقوم بفحصه ثم يسر الى
ميرزا أســد الله بأنه لا فائدة ترجى من شــفاء صديقه وأنه لا يعرف
سببا لمــا يعانيه ومن ثم لا يعرف علاجــا ، ويدرى ميرزا عبد الزكى
بحاله فينهار ، ولكى يحول ميرزا أسد الله دفة الحديث ينتقل الى حادثة
حاج ممرضا ووفاته ، ويلقى الطبيب الشيخ الذى يدخل كل البيوت
الضوء على هــذه الحادثة التى تثير الشــكوك والريب ، ان الرجل
فيما يعلم لم يمت بالأجــل الالهى بل مات بالأجــل المعلق ، لقد مات
مسموما ، وهو نفسه (كطبيب) يعلم نوع السم الذى دس له ، وأن
من دس له السم ليسوا أولاده كما يشاع ... ولا يزيد ، وينصرف
الرجلان : ينصرف ميرزا عبد الزكى الى محله ، لكن ميرزا أســد الله
الذى يهتم كثيرا بالأحــداث العارضة وبماذا يمكن أن يكون وراءها
يمضى الى منزل حاجى ممرضا يتشمم الأخبار ، ويفاجأ بأن البيت مغلق
وعليه حارســان يسخران منه ثم يهددانه فينصرف ويعرج على دكان
فحام من أصدقائه ، وببراعة ينتقل من الحديث حول أسعار الفحم الى
الحديث عن القضية التى تشغله أى قضية حاجى ممرضا ، واذا بالفحام
يلقى ضــوءا آخر على الحادثة ، لقد كان الرجل بالفعل على علاقــة
بالدراويش وكان يتردد على تكيتهم ويتعامل معهم ، ويمضى الى عيادة

خاله لينقل اليه هــذه الأنباء فيضيف خاله بأن حاجى ممرضــا ليس هو الوحيد الذى قتل بهذه الطريقة بل هناك تجار آخرون فى المدينة قتلوا بنفس الطريقة ، وأن المدينة تنتظر أحداثا جساما ، ومن الخير له أن يغادر المدينة لمدة أسبوعين ، ولا ضرر فى أن يذهب مع ميرزا عبد الزكى لحصر أملاك ممرضا وتنفيذ الوصية .

***

بعد أن تشابكت أمامنا الأحداث وازدادت غموضا ، يشفق علينا المؤلف ويعود بنا فى المجلس الرابع الى الخلفية التاريخية للرواية ، ويقدم اعتذارا لاضطراره الى الحديث عن هــذه الموضوعات لأنهــا كانت تجرى فى الوقت الذى كان يعيش فيه بطلانا ، وكأنه يريد بهذا أن يوهمنا بأنه يقدم حياة البطلين من خــلال الأحداث وليس العكس كما هو واضح بالفعل ... قبل أربعين سنة من الوقت الذى تجرى فيه أحداث الرواية ظهر عدد من الدراويش بمذهب جديد يدور حول أن النقطة « التى توضع على الحرف » هى محور الكون ، ثم حطوا التكاليف عن الناس ، وذهبوا الى أن التقرب الى الله يكون عن طريق التقرب الى خلق الله ، وأن حل مشاكل الانسان لب العبادة ، وبدلا من الاستفتاح « باسم الله » كانوا يقولون « أستعين بنفسى » وبدلا من « لا اله الا الله » كانوا يقولون « لا اله الا المركب المبين » ، وكان شعارهم الطبرزين « الفأس ذات الحدين » يرسمونها وشــما على ظهور أكفهم ، وعند ظهور المذهب كانت الحرب محتدمة بين الشيعة والسنة « الصفويين والعثمانيين » ، وكانت ايران التى تشيعت حديثا تعمل المذابح فى أهل السنة من أبنائها ، كما امتلأت الطرق بضحايا الحروب ومشوهيها يتكففون الناس ، وانتشرت المجاعــات وســاد القحط ، وفى مثــل هـــذه الظروف كان لابد وأن ينجح الدراويش ، وسرعان ما نسجوا أساطيرهم بعد وفاة امامهم « ميرزا كوتشك جفردان » ، فقالوا انه لم يمت بل غاب وسوف يعود فيملأ

الأرض عدلا كما ملئت جورا ، وزاد من نفوذهم أن اعتبرت تكاياهم حرما آمنا يلاذ به كل هارب من الجندية ثم كونوا بمدار الزمن أنصارا من بعض أعيـان المدينة الذين دانوا لهم بالطاعة التامة ... وعندما كانت أحداث هذه الرواية تدور ، كان رئيس الدراويش هو « تراب تركش دوز » الذى استطاع بكراماته كما يروج العامة أن يظفر برأس قائد أهـل السـنة ، والذى أصبحت تكاياه ملجـأ لكل صـاحب مشكلة أو فار من العدالة ، وعندما كثر أتباعه جعل كل تكيـة من تكاياه مركزا لحرفة من الحرف ، وبالرغم من أنه كان فى الأصـل نساجا لكنانات السهام كما يدل اسمه الا أنه كان دائم الاقامة فى تكية خراطى السـلاح ... الى هذا الحد ولم يكن هناك خطر على الحكومة القائمة ، فبين الآن والآخر كان اذا جاوز أحد الحد دس له السم أو سملت عيناه أو طلى جسده بالشمع وأضرمت فيه النار ، لكن القضـية بدأت تتجه اتجاها آخر حينما أشيع أن تراب تركش دوز يجد جدا شديدا فى صنع المدافع ، وتحققت الاشاعة عندما اندس « خانلر خان » فى تكية الدراويش وتحقق بالفعل من أن تراب صنع ثلاثة مدافع ... يا للمصيبة ، ان هـذا السلاح لم يصل ايران بعد ، ومعظم الهزائم التى تمنى بها ايران من أهل السنة تعود الى أن واحدا من كل عشرة من الجنـود الايرانيين يحمـل بندقيـة ناهيـك عن المدفع ... اذن : لم يعد هناك بد من اخبار السلطان .

فى مشهد من أهم مشاهد الرواية يصور المؤلف بسخرية شديدة المجلس السلطانى ، وكيف تم اخبار السلطان بالخطر المحدق بعرشه ، وكيف اجتمع الوزراء ورجال البلاط للتباحث بشأن كيفية اعـلام « الباب العالى » ، وكيف أن كل المحاولات باءت بالفشل ؛ فالقصيدة التى نظمها خانلر خان وأومأ فيها الى الأمر لم يفهم منها السـلطان شيئا ، وتوسلوا بجاريته المفضلة ، لكنها رفضت أن تفسد « ليلتها » التى ستأتى بعد انتظار ثلاث وثلاثين ليلة بمثل هـذه الأنباء ...

وفى الصباح يكون « قبلة العالم » نائما ولا يمكن للأسد نفسه أن يوقظه ... ومر شهر استطاع تراب تركش دوز خلاله أن يصنع ثلاثة مدافع أخرى ، واجتمع رجال البلاط : صاحب الديوان ومقرب الديوان خانلر خان ورئيس المنجمين الذى كان قد خلف والده حديثا ويريد فرصة لاثبات اخلاصه ، وبدأ التحرك المضاد نسجلت أسماء سبعة من تجار السوق بينهم حاجى ممرضا ، ودس لهم السم جميعا ، وأمر « ميزان الشريعة » بمصادرة أموالهم ، كما أمر رئيس الشرطة بمصادرة بعض البغال والخيل لصالح الحكومة ، كما أرسلوا الى التكايا من يشيع أن عودة ميرزا كوتشك جفردان قد باتت وشيكة ، وعندما تمت هذه الأمور ، وفى نفس الوقت الذى تحرك فيه بطلانا الى أملاك حاجى ممرضا ، عقد المجلس السلطانى بحضور الأشراف ورجال الدولة .

تقدم خانلر خان وألقى قصيدته وأشار فيها الى تعدى الدراويش ، ووضع فيها كلمة « المدفع » أكثر من مرة ؛ وانطلقت صيحات الاستحسان ، لكن « ملك الملوك » لم يحرك ساكنا ، ثم تقدم المنجم بأسلوبه المعقد الملآن بالمحسنات فحذر « الملك » من النحس المحدق بالمملكة ، وهنا أحس السلطان أن فى الأمر شيئا ، وهنا تقدم الوزير الأعظم وبعد المقدمات التقليدية حذر السلطان من الأيام القادمة وطلب منه أن يقدم موعد « مشتاه » حتى اذا حدث هجوم كانت الضحية غيره ، وثار الملك ، انه لم يفهم الا أنهم يريدون الخلاص منه ، ووسط الفحش « الهمايونى » وبذاءة اللسان السلطانية يستدعى السياف فلا يجد الوزير الأعظم بدا من اخباره الأمر برمته ، ويقدم الحل : ان المشتى قريب من الحدود ، ومن هناك يمكن انفاذ الرسل الى « الأعداء » للتباحث معهم فى أمر الصلح ، وفى أثناء ذلك تكون الحاشية قد تمكنت من سجن بعضهم وقتل

بعضهم ونفى بعصهم وتموت الفتنــة ، ويوافق الســلطان معبرا عن موافقته بسيل من الشتائم المقذعة ينهال بها على وزيره الاعظم •

***

فى المجلس الخامس يعود بنا المؤلف الى الكاتبين فى رحلتهمــا الى أملاك حاجى ممرضا فى صحبة نائب الشرطة مع عدد من الحرس ، وخلال الرحلة نطــالع الخراب العام فى قرى البلاد ، كأن قحطا قضى على النــاس أو كأنهم فروا من وباء ، وكأن المحاصــيل المكومة فى الحقول كومات صغيرة من التراب تخلفت عن لعب أطفال •• ويدخل الموكب قرية ممرضا فلا يجد أحدا فى الانتظار ، حتى القرويون الذين كانوا يعملون فى مشارف القرية تركوا أعمالهم وهرعوا الى القريــة يختبئون خلف جــدران منازلهم ، وبينما نائب الشرطــة يلقى بــكل ما يعلمه من فحش على الفلاحين الجهلة الأشرار ، وعندما وصلت القافلة الى ميدان القرية كان الابن الأكبر للحاج فى انتظارهم بصحبة العمدة، أراد ميرزا أســد الله أن يتحدث مع ابن الحــاج الذى كان زميله فى الكتاب لكنه يتحاشاه ، وفى خفية من الباقين يدس فى يده ورقــة فحواها « ان عمل رفيقك معلوم فما شأنك أنت ؟ » وفى خلوة يلتقى الرفيقان القديمان ، ويقص ميرزا أسد الله عليه كل ما سمعه عن وفاة أبيه ، انه لم يأت الى القرية الا لعقد محــاولة الصلح بين الاخوة المتشاحنين كيلا يصيد « ميزان الشريعة » فى المــاء العكر ، لكن حسن آقــا ابن الحــاج يبين أن القضية معكوسة تماما ، لقد قتل الوالد ، وهدد الورثة جميعا : ان لم يتنازلوا طواعية عن كل أملاكهم فسوف يتركون فى السجن حتى يتعفنوا ، سوف تقسم التركة : ثلث لميزان الشريعة وثلث للصدر الأعظم والثلث الباقى مناصفة بين نائب الشرطة والكاتبين ، ان ميرزا أسد الله لم يكن يفهم كل هــذه الأبعاد، انه لم يغادر المدينة الا لأن جو الفتنة فيها يبيض ويفرخ ، ويعترف

حسن أن والده والتجـار الستة الآخرين المسمومين كانوا مستودع أسرار « الشخص الواحد » أى رئيس الدراويش ، ويطلب ميرزا أسد الله من « حسن » أن يقاتل دون ماله فان مات مات شـهيدا ، الا أن حسن لا يعترف بهذا الحديث ، ان من يموت دون ايمانه هو الذى يموت شهيدا ، ان ضـاع المـال فان « الشخص الواحد تراب محلة الحق » باق ، لقد امتنع الوالد من دفع الخمس لميزان الشريعة فكان ما كان ، ويعد ميرزا أسد الله حسنا بأنه سـوف يتصرف بوحى من ايمانه القديم ، ان استطاع أن يقنع رفيقه فبها ونعمت ، وان لم يستطع فسوف يتصرف وحده ، وليس معنى ذلك أنه يعتقد اعتقـاد صديقه القديم أو والده ، ويحذره حسن ، انه ان تصرف تصرفـا يغضب ميزان الشريعة فسـوف يزج بنفسه فى المشـاكل وهو رب عائلة ، ولكن أسد الله الذى سوف يتكشف رويدا رويدا عن ثائر من طراز خاص يجيب : لايمكن أن تكون الزوجة ويكون الأبناء عذرا للانسان عن كل ذنوبه ، وبناء على هـذا المنطق فان الجلادبن لو بثوا همومهم فسوف يخيل اليك أنهم انما يزاولون الحج الأكبر من أجل زوجاتهم وأبنائهم ، غافلين عن أنهم ان كانوا يعولون أولادهم بهذا العمل فكأنما يربون من كل ولد من أولادهم قاتلا مجرما لأنه يسقى جرعة من دم الناس مع كل لقمة يطعمها ... هـذه هى اللقمـة الحرام حقيقة .

ويخلو ميرزا أسـد الله بعدهـا الى زميله ، فيسر اليه بأصـل المهمة التى جاءا من أجلها ، لقد جاءا لسرقـة أموال الناس ، لكن ميرزا عبد الزكى يحتد عليه ويبدى ضيقه به وبمثالياته ، ثم يخبره بأنه لم يكن يعلم أن له نصيبا فى التركة ، لكن ميرزا أسد الله يحرجه: اذا عرض عليه عقد بما أخبره به هل يوقع أم لا ؟ ان علم أن ميزان الشريعة قد خدعه وأنه اتفق معه على شىء واتفق مع نائب الشرطة على شىء آخر هل يوقع أم لا ؟ لكن ميرزا عبد الزكى متردد : ان

لم يوقع فسوف يقع فى عداء مع ميزان الشريعة لا يعرف أحد مداه
ولا يطيقه ، ثم ما الفرق بالنسبة لهؤلاء القرويين أن يكون المـالك
ورثة الحاج أم غيرهم ؟ لا فرق ... لكن ميرزا أسد الله يصر أن فى
الأمر ظلما ومن واجبهما ألا يشتركا فى هـذا الظلم ، ثم ان منطق
ميرزا عبد الزكى قد يكون مبررا لكل أنواع الظلم ، اذا كان كل
انسان سوف يقول : ان لم أقم بهذا العمل فسوف يقوم به آخرون
فلماذا أمتنع أنا ماذا يكون الحـال ؟ ان هـذا المنطق يرضى الحرص
لكنه لا يرضى العقل والضمير .. وتنتهى المناقشة بين الكاتبين .
أرأيت كيف قام المؤلف بهـذا الحوار الممتع ببيان التناقض الذى
سوف يزداد بين الشخصيتين الرئيسيتين وكنا نظن آنفا أنهما متشابهان
فى كل شىء ؟ وسوف نعلم مع تطور أحداث الرواية أنهما طرفا نقيض
دون أن نرى فى هـذا التناقض نبوا أو افتعالا .. ان الكاتب يقدم
نموذجين موجودين فى كل زمان وكل مكان وتحت ظل كل دولة وفى
اطار كل سياسة : ذلك الذى يكون ثائرا عن ايمان ومنطق لكنـه
يعيش الثورة دون أن يجعل منها خبزا يؤكل وخطبا تلقى ، وذلك
الذى تجرفه الثورة فيبدو من أشد الناس ثورية وهو لا يزيد عن
كونه نهـاز فرص ، وهـكذا فعندما ينعقد المجلس ، يكون ميرزا
عبد الزكى أكثر حماسا فى الدفاع عن حقوق ورثة الحاج ، ويحطم
ميرزا أسد الله خاتمه ، وينتهى المجلس بالقبض على الكاتبين وترحيلهما
الى خارج القرية ، وقبل الخروج من القرية يهاجم القرويون الشرطة
ويطلقون سراحيهما ... وينتهى هذا الفصل بأن يتنازل حسن آقـا
عن كل أملاكه للزراع .

***

فى المجلس السادس ينتقل بنا المؤلف الى المدينة ، السلطان غادر
قصره بليل مع كل وزرائه وخدمه وحشمه والمحظيات من حريمه ،
والاشاعات تملأ المدينـة بأن الدراويش سوف يدخلونها ويحدثون

مذبحة ، والجو العام ينبىء بذلك ، فالقصر الملكى مغلق ، والطرق تخلو من الشرطـة ، أما الحـركة ففى تكايا الدراويش . ولم تكد الشمس ترتفع حتى خرج الدراويش من تكاياهم ومن خلفهم الناس يستولون على المخـافر التى كانت خالية تقريبـا من الحرس ، ثم مخازن السلاح ومن بعدها بوابات المدينة ، وأشعلت النار فى سوق المدينة ، وسرعان ما شاع الخبر بأن جواسيس الحكومة هم الذين أشعلوا النار لاحـداث مجاعة ، وكان الرد هو نهب مخـازن مؤن الحكومة ، وحرك الخوف من القحط الناس فانطلقوا خارج منازلهم وفتحوا سجن الحكومة وأطلقوا من فيه ، وقبيل الظهر انطلق المنادون فى المدينة معلنين أن « تراب تركش دوز » يسيطر على المدينـة وأن حرية العقيدة مكفولة للجميـع ، لكن على كل من يمتلك بندقيـة أو هاون نحاسى أن يحولهما الى تكية خراطى السـلاح والا فسوف يكون للدراويش الحق فى الهجوم على البيوت ومصـادرة هـذين النوعين ... ثم هدأت الأمور كما ثارت فجأة .

وفى تكية خراطى السلاح حيث يقيم « تراب تركش دوز » ، كان هناك لقاء مع رسول من قبل ميزان الشريعة وخانلر خان ، انهما يريدان الاجتماع بتراب لكنهمـا فى البداية يريدان أمانا مكتوبا ، ويجيب تراب بأن لهما الأمان بشرط أن يكف ميزان الشريعة عن لعبة التكفير التى بدأ يقوم بها ، ويرد خانلر خان خمسة آلاف دينار ذهبى كان قد أخذها هبات عن شعره الى الخزانة ، وأن يسلم القصر الملكى ، فتراب يعلم ما هو موجود فى القصر ، ونفاجأ بأن جـلاد البلاط كان من أتباعه وكان ينقل اليه كل ما كان يحدث فى القصر ، والقصر لا يعنى عند تراب الا مخزن البارود الموجود فيه ، أما ميزان الشريعة وخانلر خان فقد بقيا لاشعال الفتن وعرقلة الأمور حتى ينجح الملك فى مفاوضة الأعداء ويتنازل لهم عن عدد من مدن الحدود فى مقابل عدد من المدافع يقمع بها حركة الدراويش ، أما خطة الدراويش

المضـادة فسبنية على أن المباحثات بين السلطان والأعداء سـوف تستغرق على الأقل مدة شهر ، فاذا استطاع الدراويش صناعة مدفع كل يوم وجمع أكبر عدد من البنادق فسوف يكسبون الجولة •

يكلف حسن بالاشراف على مؤن المدينة ، كما يكلف أيضـا بمحاولة ضم « بطلينا » الى معية الدراويش ، ويفكر تراب فى الدخول هو الآخر فى مفاوضات مع الجيران ، ويلتقى الشخص الواحد مع ميزان الشريعة وخانلر خان ، ويحذرهما ، لقد منحهما الأمان ، لكنه لا يستطيع الوقوف أمام الناس ان أرادوا شيئا ، لكن ميزان الشريعة جاء يسلم مفتاح القصر الذى يحتوى على حريم الملك وهو لا يريد أن يتحمل مسؤوليتهن « فى هـذه الأيام التى يبحث كل واحد فيها عن مصلحتـه » ، ومع ذلك يقبل خانلر خان الاشراف على جنـاح الحريم ، وانتقل الدراويش الى القصر ، أما التكايا فقـد خصصت لمباشرة حقوق الناس •

فى اليوم التالى ألغيت بعض الضرائب التى كانت تثقل كواهل الناس . وخفضت أسـعار بعض السلع الضرورية ، وبدأت المدافع تعرض فى الطرق وعليها مناد يعلن الناس مزايا العوض الذى يتلقونه فى مقابل هاوناتهم النحاسية ، أما الناس الذين لم يروا من الدراويش ما كانوا يخشونه من قتل أو ضرب أو سجن فقد انصرفوا الى أعمالهم وأصبحوا أقل قلقا وأكثر بشرا ••• هكذا استطاع المؤلف خـلال بضع صفحات أن يتحدث عن قيام ثورة بكافة مستوياتها ، وبتركيز معجز صـور انتقال السلطة ومواقف الناس ، بل والتغير الذى حدث فى شوارع المدينة ، وذلك دون أن ينفرط منه الخيط ولا غرو فوراءه ماض فى الثورات يمكنه من أن يقوم بكل ذلك بهذه الأستاذية •

لكن الشىء الذى بدأ يؤرق الناس هو حمل هاوناتهم النحاسية من بيوتهم « فالهون كان يأخذ معه البركة من البيت » ، وبالرغم من

الأوامر المشددة بعدم استخدام القوة مع الناس ، اضطر الدراويش الى كسر الأبواب ودخول البيوت وحمل الأهوان قسرا ، ومن ثم فان كاتبنا ميرزا أسد الله أخذ يستقبل زبائن من نوع جديد ، كلها تشكو من الاستيلاء على الأهوان ، وها هى امرأة تسخر آمامه من اسم الشخص الواحد ، ورجل آخر يبدى عدم اقتناعه بأن الأمر تافه، فالأمر قد يبدو تافها ، لكن الظلم يبدأ دائما من الأمور التافهة ، انه لا يقبل أبدا أن يوضع البارود فى الهاون الذى كانت امرأته تدق فيه اللحم ، كما أنه لا يقبل أن يتسبب هونه فى سفك دم أحد وهو لا يقبل الايذاء ، وثالث يحتج بأن هونه وقف وأثرى فهو غير قابل للمصادرة ... أرأيت كيف أنه من الصعب على أى نظام جديد أن يرضى الناس ؟ لقد عصمت الحكومة الجديدة دماءهم وأموالهم ، ولم تتعرض لهم بأذى ما قل أو كثر اللهم الا فيما يختص بهذا الموضوع التافه ، لكن أسد الله يكتب العرائض ، ثم يأتى اليه « حسن » طالبا بأن يخلو اليه والى رفيقه معا .

***

نحن الآن فى موقف من أهم مواقف الرواية ، حيث يعرض حسن على الكاتبين التعاون مع الحكومة الجديدة ، ونواجه موقفا قد يبدو من النظرة السطحية غريبا لكنه واقعى كأشد ما تكون الواقعية ، ان الناظر نظرة سطحية الى أخلاق ميرزا أسد الله والى وضع ميرزا عبد الزكى لابد وأن يتوقع أن ميرزا أسد الله سوف يقبل وأن ميرزا عبد الزكى سوف يعتذر وذلك على الأقل لصلته بالنظام القديم ، لكن العكس هو الذى يحدث ، فان من تقوم شخصيته على أخلاقيات ومبادىء يكون من الصعب عليه أن يتغير ، أما الذى ينظر الى « الوضع » فسرعان ما يستبدل ولاءا بولاء ووضعا بوضع ، ان ديوان القضاء معروض على ميرزا أسد الله ، بينما ديوان المؤن والسلاح معروض على ميرزا عبد الزكى ، وميرزا عبد الزكى قد قبل

لكنه ينتظر جواب ميرزا أسد الله ، ويعتذر ميرزا أسد الله : ان هذا الوضع فوق طاقته ، نقد خلق لكتابة العرائض فحسب ، لكن ميرزا عبد الزكى يحاول اقناعه : ان هذا العمل مناسب له تماما فلماذا يحط من قدر نفسه ؟ فيرد ميرزا أسد الله : ان أساس كل عمل هو الايمان فلابد أن يؤمن أولا بما يؤمن به الدراويش لكى يستطيع أن يعمل معهم ، ويحرك ميرزا عبد الزكى « وهو أكثر حماسا من حسن أحد مؤسسى حركة الدراويش » وترا آخر فى نفس ميرزا أسد الله فيقول له لامزا : لعلك خائف ويجيبه أسد الله : اننى فى مكانى ولست فى حاجة الى أن أدق رأسى كل يوم فى باب أو فى جدار وأقوم بحيلة ما ، ويرد ميرزا عبد الزكى : اننى رجل مغامرة .. لكن ما حدث فى القرية يؤلم رأسك أكثر ، ويتدخل حسن فى الحديث ، فيدافع عن ثورته دفاع المستميت ، انها ثورة للدفاع عن الناس ، أما الأهوان فانه حتى مصير عالم القدس معلق بأصوات المدافع ، ويرد ميرزا أسد الله : ان الحكومة كانت هى الأخرى تملأ أفواهها بمثل هذه الكلمات ثم ان الأمر لم يستقر بعد ، فمن الذى يدرى ماذا سيحدث غدا ؟ لنفرض أن الدراويش سيطروا على مدينة أو مدينتين فماذا سيحدث بعدها ؟ ثم انهم يدعونه الى أمر لا وضوح فيه بالنسبة له « ان الانسان المؤمن فقط هو الذى يمشى بعين مغمضة » ، أما ميرزا عبد الزكى فيحاول الاقناع بطريقة أخرى ... ان الأمر بالنسبة له « حركة ، تغيير ، تنوع » ويحاول حسن أن يدق على نقطة أخرى : ان المبادىء وضعت أصلا من أجل الانسان ... ومبدؤهم يهتم بالانسان ولو على حساب المبادىء والأصول وعندما يستقر الانسان سوف تعود المبادىء والأصول ، لكن ميرزا أسد الله يرد : ان المبادىء الحقيقية لا تغيب ثم تعود ، انه يعرف معتقداته القديمة تماما ، أما هذا المعتقد الجديد فسوف يكون تكئة جديدة للتكفير وسفك الدماء وتصفية الحسابات ، وهذا يناقض المبادىء

التى يؤمن بها ، لقد انقضى الزمان الذى كانت فيه المذاهب والأديان عاملا أساسيا فى التطور انه لا يدرى أى عمل يمكن أن يقوم به فى هذا المجــال ، فلا هو زعيم ولا هو امام ولا هو قد آتى بمذهب جديد .. أما هم فهم لا يفعلون شـيئا الا أنهم يجهزون لمذبحــة جديدة ، ويذكره عبد الزكى بما حدث فى القرية على آيدى شخصين فقط ، لكن المدينة غير القرية والوطن كله غيرهما ، ويحــاول حسن أن يقنعه بأن الحق لا محالة منتصر ، وأنه لابد من الدفاع عن شرف الانسان ، ويضيف ميرزا عبد الزكى : من الذى يمكن أن يعيش ليرى بلاطا يخلو من كل هيلمانه ، فيطلب منه أسد الله ألا يكون عاطفيا ، فالأمر فى نظره لا يختلف كثيرا ، حكومة ذهبت وحكومة جاءت مع كل ما يلزم للحكومة من جلد وسجن ومصــادرة ونفى ، منذ آلاف السنين والناس ينتظرون حكومة عادلة وعاقلة ، لكن العادل والعاقل لا يحكمان ، الحكم صنعة من لا رؤوس لهم ، صنعة الأراذل ، فى حين أن الدنيا يمكن أن تسير بدون حكومة ، جرب فى المجتمــع ، المشكلة التى تحل وديا تحل وان وصلت الى الحكومة فقل على الدنيا العفاء ، ويقول عبد الزكى : ان هــذا هو منطق الذين لم يصلوا قط الى الحكم ، فيقول ميرزا أسد الله : وما هو منطق الحكم الا القتل ثم القتل ثم القتل ، ان الحكم لا يحتــاج من الانسان الا القدرة على الطفو وعلى معرفة اتجــاه التيار ثم يتعلم أن يغمض عينيه من البداية وبعدها تصير عادة وحتى عين الضمير بعدها لا تريد ان ترى شيئا ، ويضرب حسن الأمثلة من التاريخ عن العقلاء والمفكرين الذين شاركوا الطغاة الحكم من أمثال أرسطو ونظــام الملك ونصير الدين الطوسى ، ويجيب ميرزا أسد الله : انهم كفروا بمؤلفاتهم عن هــذا الخطــأ ، ثم : من قــال ان الحق كان معهم « ان الحق فى كــلام الشهداء ومن هنا فأنا أنظر الى التاريخ من خــلال الشــهداء من خــلال المسيح وعلى والحــلاج والسهروردى » ، اذن فهو ينتظــر

المعصوم « الامام الغائب » ، ويجيب : ان كل انسان يبحث عن شيء ما . ثم ان الذى ينتظر امام الزمان لا يعترف بالحكومات الدنيوية ، وكيف يكون الأمر كذلك وهو يقول ان الأديان لم تعد تستطيع أن تغير شيئا فى حين تفقد الشهادة كل مفهومها خارج نطاق الأديان فينكر ميرزا أسد الله أن الشهادة لا توجد خارج نطاق الأديان ، ويتدخل ميرزا عبد الزكى : انه لا يؤمن أيضا بمذهب الدراويش ، لكن اذا كانت الأمور قد ساءت ولم يعد هناك أمل فى الاصلاح فمن حق أى انسان أن يأمل فى أى طريق جديد ، بينما يستمر ميرزا أسد الله فى جدله : ان أكثر ما يؤرقه هو الفكر ، الفكر الذى أخرج آدم من الجنة ، وهو الأمانة التى عرضت على السموات والأرض فأبين أن يحملنها ، ويتدخل حسن « المؤمن المتحمس فى مقابل أسد الله المثالى الحالم وعبد الزكى الانتهازى » قائلا : الى متى يغرق الانسان فى التفكير فى ما حل بآدم وسواه بينما لا يفكر فى الانسان الذى يعيش على الأرض ، ان المفكر الحقيقى هو الذى يعيش عصره يقاوم الظلم ولا يستسلم له ، ثم من أين يدرى أن تراب محلة الحق ليس هو امام الزمان ؟ ويجيب ميرزا أسد الله : لست ممن ينتظرون امام الزمان ، ان كل انسان هو امام زمانه ، عليه أن يقوم فى عصره بما يقوم به امام الزمان ، ويجيب حسن : لا ، انك تنتظر امام الزمان ، وفى نفس الوقت فأنت تكره الوضع الموجود فما الذى يعطلك ثم يتدخل ميرزا عبد الزكى : على الأقل لكى تحافظ على شرفك ... ويتغير موقف أسد الله بعد هذا النقاش الطويل الذى اختصرته بقدر الامكان .. على الأقل ليخرج عن هذه السلبية التى لايمكن أن تكون المقابل للنعم التى أنعم الله بها عليه .. لكنه مع ذلك لن يستطيع أن يعالج أبدا داء من أدواء الأيام .

***

فى الفصل السابع اذن تكتمل عناصر الصراع : الثورة بكل

ما فيها من اندفاع وقوة وفى نفس الوقت لا تعتمد على قاعدة شعبية ، وجانب السلطة الغائب عن مسرح الصراع ماديا لكنه أكثر نشاطا وأكثر حضورا وفعالية ، وها هما بطلانا ، كل منهما منهمك فى عمله الجديد بمساعدة عدد من الدراويش بعد تدريبهم على العمل ، ولكن ميرزا أسد الله بولايته القضاء أكثر اتصالا بالجماهير التى تظهر كالكورس اليونانى بين الآن والآخر معلقة على حدث من الأحداث ، وماذا عن الجماهير ؟ كان سخطها على الحكومة الجديدة يتطور تطورا سريعا ، فى البداية كانت النساء تشكو من انضمام أزواجهن الى الدراويش تهربا من النفقة ، ثم الشكوى من قذارة المدينة ، لكن هذه المشاكل حلت ، وبينما الناس آمنون الى حكومة الثورة ، اذا بالحكومة تقدم الدليل الأول على فشلها ، فبينما هم يعرضون عددا من المدافع الجديدة ، اذا بخمسة مدافع تنفجر فتطيح بمن يجربونها أشلاء ، وحين ينتشر الخبر فى المدينة وينتقل من فم الى فم يكون عدد المدافع التى انفجرت قد وصل الى الخمسين ، ليس هذا هو المهم ، المهم أن ثقة الناس فى الدراويش قد اهتزت ، وتشهد دكاكين الخبازين وباعة الغذاء ازدحاما لا يحدث الا فى أوقات القحط ، ثم شغب من نسوة الرجال الذين رحلوا مع الملك يريدون تعهدا بعدم ايذاء نساء الحريم السلطانى ، ثم حدث ما هو أخطر فثار طلاب المدارس الدينية بعد أن قطعت جراياتهم بفعل جواسيس الحكومة المندسين ، وهكذا بدأت المدينة تتحرك ، وسرعان ما تحالفت الطبيعة مع الحكومة فاذا بالثلج يسد الطرق ، والقرى تنكص عن مد المدينة بالغذاء الا اذا دفعت نقدا ، وعندما يقل الغذاء يزداد حرص الناس ويزداد شرههم ، كل هذا و « الشخص الواحد » معتكف فى عزلة « أربعينية » ولا يجرؤ أحد على ابلاغه بالأمور التى تسوء يوما بعد يوم ، ثم يقوم المحتكرون باخفاء المؤن فى مخازنهم ، لا فائدة الا أن تتحرك الجماهير بنفسها لنهب المخازن ، وهذا أمر

يعرف الدراويش جيدا كيفية تنفيذه ، ولكي تتم عملية ضبط المؤن ، على الدراويش أن يقوموا بعمل احصاء عام ، والناس خائفون يعطون معلومات مضللة ، فالاحصاء لا يعقبه الا التجنيد الاجبارى، وهكذا كانت الفجوة تزداد يوما بعد يوم •

وفى نهاية الشهر الخامس من استيلاء الدراويش على السلطة ، اندفع الناس الى الشوارع ، وحدث ما كان يحدث فى عهد الملك الهارب ، الناس فى جانب ، والدراويش المسلحون فى جانب آخر ، وبالرغم من أن المشكلة قد انتهت دون عدد يذكر من الضحايا الا أن الثقة كانت قد انعدمت تماما ، بدأ الدراويش يفرقون المتجمهرين أمام محال الأغذية بالقوة ، ثم ودون أن ينتظروا فتوى من ميرزا أسد الله قبض الدراويش ذات صباح على ثلاثة من المحتكرين وشنقوهم أمام محالهم السرية ، وياالهول ما حدث بعدها ، شيعت جنازتهم كأبطال وشهداء •• وسرت النار فى الهشيم ، نار ساعد جواسيس الحكومة على اشعالها •

كان هذا يحدث بينما كان سفراء أهل السنة يدخلون المدينة للتفاوض مع الحكومة الجديدة ، لكن الملك الهارب كان أكثر كرما ، فبينما لم يتعهد تراب الا بعدم التعرض لأهل السنة ، كان الملك قد تنازل عن سبع مدن على الحدود فى مقابل تأجير أربعمائة مدفع لمدة شهرين ، وها هو يستعد للزحف على المدينة عندما تنكسر حدة البرودة ، اذن هذا هو الموقف : المؤن تقل ، ومدافع الدراويش غير مأمونة العواقب ، والصرافون أغلقوا محلاتهم وتبخروا ، وعندما تكسر محلاتهم وتوجد خاوية يقبض عليهم ويسجنون ، اذن أصبح للدراويش هم الآخرين قتلى وسجناء ، ولضغط المصروفات حتى ينتهى الشتاء فرضوا عددا من الضرائب وخفضوا جرايات طلاب العلم ومرضى الجذام الى النصف ، وأطلق جواسيس الحكومة اشاعة بأن الدراويش

سوف يغلقون معسكر المجذومين ويطلقونهم الى الشوارع ، وهـاج الناس وانطلقوا بمشـاعلهم لاحراق دار المجـذومين عليهم ، ويسرع ميرزا أسد الله مع عدد من الدراويش عن طريق آخر ، ويتم انقـاذ المجذومين ، لكن بعد سقوط عدد من القتلى •

***

تنكسر حدة الثلج ، وينصرف الناس الى أمورهم هادئين ، لكنه الهدوء الذى يسبق العاصفة ، فما ان تسرى نسائم الربيع فى المدينة حتى تسرى معها شائعة بأن جيش الملك على الأبواب وأن الدراويش أنفسهم قد أرسلوا عريضـة التسليم الى الملك ، وتقوم المدينـة قومة واحد ، كل من كان قد وشم على جسده شعار الدراويش أخذ يمحوه، حتى نسـوة الغجر أخذن يمحين من على أجسادهن وشم العقـارب والحيات المرسومة عليها ، وعندما وصل الخبر الى الدراويش أسرعوا الى أسوار المدينة لترميمها ، وها هو خانلر خان يرسل الى عبد الزكى يفاوضـه ، فيم ؟ فى أن الملك جمع لنفسه حريما جديدا ، واذا أراد عدد من أهل الحق أن ينقذوا أنفسهم فعليهم اصطحاب الحريم القديم معهم والهروب الى الهند ، وسوف ييسر لهم ذلك فى سبيل انقاذ الملك من هذا الحريم « غير المرغوب فيه » ، ثم على ميرزا عبد الزكى أن يطلق زوجته ويمضى الى حال سبيله ، ويذهب ميرزا عبد الزكى الى رفيقـه ثم يمضيان الى حسن ويمضون جميعا الى تراب ، لكنه لا يتقبل العرض بالانفعال المطلوب ، ويتحسس أحد المدافع قائلا : لو أننا أهل صفقات لمـا صنعنا هذه المدافع ، مصائرنا معلقة بفوهاتها •

وتتصاعد حدة الأحداث بشكل لا يتوقعه أحد ، فالناس يهاجرون من المدينة ، وتراب تركش دوز يتركهم ، من الأفضـل أن تكون المدينة خالية عند الدفاع عنها « أو الهروب منها بمعنى أصح » ، وبدأ الناس يتجهون الى المساجد « التى لم يمروا بها منذ ستة أشهر » ، وعلى

البعد بدأت نيران معسكر الحكومة تبدو ، وبالرغم من أن الدراويش هاجموه بليل وغنموا بعض الغنائم ، الا أن عمال الحكومة السريين يضربون ضربتهم ويغرقون مخزن البارود الموجود فى القصر ، اذن لم تعد هنـاك أهميـة للمدافـع فلم يعد أمـام تراب الا الاجتمـاع بخانلر خان •

بعد ساعة من المشاورة ، جمع رؤساء الدراويش : ليس أمامهم الا قبول عرض خانلر خان ، ليس أمامهم الا الحفـاظ على المـذهب بالحفاظ على رؤوسه ، هكذا كان يرى الأمر ، بينما كان أحد كبـار قواده يرى أن الثورة قد انتهت الى القوادة ، فالحريم المرافق سـوف يقدم هدية الى ملك الهند ، ويبلغ ميرزا عبد الزكى بالأمر فيقبل أن يكون مع الفارين ، فماذا عن ميرزا أسد الله ؟ انه لا يقبل الفرار ، انه لم يرتكب جرما ، انه يفضـل الاستشهاد ، ما دام لايستطيع المقاومة ولا يمكنه الفرار فليستشهد ، ويرد ميرزا عبد الزكى بعد نقاش طويل: اذن قررت أن تضحى بنفسك فى سبيل لا شىء ؟ لا ••• ليس فى سبيل لا شىء بل فى سبيل أن يعيش أولاده مرفوعى الرؤوس ، ويوصى ميرزا عبد الزكى بأن يطلب من زوجته ألا تترك نسج السجاد حتى تستطيع زوجته هو أن تربى أولادها •

فى الليل فر « أهل الحق » من البوابة الشرقية مع مائة وعشرين امرأة من حرم السلطان وخانلر خان الذى قبل أن يكون رهينة حتى يغادروا الحدود ••• ودخل السلطان المدينة حيث استقبله النـاس والمصاحف فوق رؤوسهم والخبز والملح فى الصـوانى ، وبالرغم من أن الدراويش كانوا قد فروا الا أن السلطان لم يرحم أهل المدينة ، عثروا على سبعة من الدراويش قتلوا أمام موكبه ، وأغار جنده على مائة منزل ، وقبضـوا على ألف أودعوا السجون ، وتم شنق سـبعة أشخاص فى اليوم التـالى على باب القصر ، وفعل ميرزا خان دايى

« خال أسد الله » كل ما فى وسعه وخرج عن معظم ما له حتى استطاع أن يضع اسم ميرزا أسد الله فى قائمة المنفيين ، أما زوج ميرزا عبد الزكى فلم تذهب الى حريم خانلر خان ، بل واستطاعت أن تنجى منزل حاجى ممرضا على أساس أنه مصنع للسجاد ، وظلت تصنع السجاد مع زوجة أسد الله ... وذات صباح ذهب خان دايى الى باب السجن بملابس ميرزا أسد الله وانتظره حتى خرج ولبس ملابسه ، وانصرف الى الصحراء .

***

هل تنتهى الرواية عند هذا الحد ؟ لا ... لابد أن يخبرنا الكاتب كيف وصلت القصة اليه ، وهل يهمنا الأمر ، سواء قصها أحد أبناء الراعى الذى صار وزيرا ، أو ابن ميرزا أسد الله الذى وصل الى منصب ملك الشعراء ، أو ابنه الآخر الذى صار صاحب أكبر كتاب فى المدينة ، سواء قصها ميرزا عبد الزكى أو ميرزا أسد الله الذى عاد بعد عشرين سنة من السياحة والسفر ، لا يهم ، ما يهمنا أنها وصلت ، فهل تراها « وصلت » بالفعل ؟

تم الكتاب

المصــادر

النصــوص :

١ ــ افغــانى « علی محمد » : سوهر آهو خانم . الطبعــة الأولى تهران ١٣٤٠ ش .

٢ ــ جمالزاده « محمد علی » : دار المجانين . تهران ١٩٤٢ م .

٣ ــ جــوبك « صــادق » : تنكسير . تهران ١٣٤٢ ش .

٤ ــ حجــازى « محمــد » : زيبــا . تهران ١٩٣١ .

٥ ــ مســعود « محمد » : كلهائى كه در جهنم مى رويــد تهران ١٩٤٢ .

٦ ــ مير صادقى « جمال » : درازناى شب . تهران ١٣٤٩ ش.

٧ ــ جــلال آل احمد : « نون والقــلم »: الطبعــة الثالثة . تهران ١٣٥٦ هـ.ش .

المصــادر الفارســية :

١ ــ امير خبزى (اســماعيل) : قيام آذربيجان وستارخان . تبريز ١٩٦٠

٢ ــ امير قلى امينى : فرهنكك عوام اصفهان ١٣٥٣ ش .

٣ ــ امير قلى امينى داستانهاى امثال اصفهان ١٣٥١ ش .

٤ ــ انجوى شــيرازى (سيد ابو القاســم) : تمثيل ومثل . تهران ١٣٥٢ .

٥ ــ براهنى (رضــا) : قصــة نويسى . تهران ١٣٤٨ ش .

٦ ــ برهــام (سيروس) : شوهر آهو خانم در راهنماى كتــابه شمارة ١٠ دورة جهارم ١٣٤٠ ش .

٧ ـ بروبزی (رسول) : شلوارها وصلة دار الطبعة السادسة .
تهران ١٣٥٣ ش .

٨ ـ دریابندی (نجف) : شوهر آهو خانم در سخن
دوره ١٢١ .

٩ ـ سخائی (محمود) : مصدة در رستاخیزملت .
تهران ١٩٥٢ .

١٠ـ کیمسارف : جنبه های نوین رمان فارسی معاصر .
در سخن دوره ٢٣ .

١١ـ کیانوش (محمود) : بر رسی شعر ونثر فارسی معاصر .
تهران ١٣٥١ ش .

١٢ـ مستوفی (عبد الله) : شرح زندکانی من یا تاریخ دوره
قاجاریه . تهران ١٩٤٥ .

١٣ـ ندوشن (محمد علی اسلامی) : شوهر آهو خانم در یغما
شماره ١١ سال ١٣٤٠ ش .

١٤ـ نکو روح (حسن) : داستانهای صادق جوبك در « نکین »
شماره ٢٦ ، ١١٥٤ ش .

١٥ـ هدایت (صادق) : بوف کور . تهران ١٣٤٢ ش .

١٦ـ هدایت (صادق) : سایة روشن . تهران ١٣٤٢ ش .

١٧ـ هدابت (صادق) سه قطره خون . تهران ١٣٤٢ ش .

١٨ـ هدایت (صادق) سك ولكرد . تهران ١٣٤٢ ش .

المصادر الأوربية :

1. Avery (P.), Development in modern Persian Prose. M.W. 1955.
2. Binder (L.), Iran, Polotical Development in a changing Society Berk. 1962.
3. Kamshad (H.), Modern Persian Prose literature. comb. 1966.
4. Rypka (Y), History of Iranian literature. Ubsala 1959.

الفهـــرس

رقم الايداع ٨٦/٣٣٠٥

الترقيم الدولى ٦ ـ ٠٩٨٨ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الرواية ديوان الشعوب . . وفى هذا العرض النقدى لروايات سبعة من أمهات الروايات الفارسية يقدم المؤلف سياحة زمانية ومكانية فى إيران تتسع زماناً لتشمل الثمانين السنة الأخيرة ، ومكاناً لتقدم بيئات متعددة : طهران وكرمانشاه وبوشهر وتنجستان . . عن طريق هذه الروايات سيفهم القارىء كثيراً مما لا يعرفه عن إيران . . بنياتها الدينية والاجتماعية والسياسية ، والصراع الطبقى فيها ، ومشكلات مجتمع يحتوى على الصراع بين القديم والجديد ، وبين من يمثلون القديم ويمثلون الجديد ، كما يقدم الكتاب صورة من فن جديد فى أدب كلاسى مما يتشابه مع أدبنا العربى من مناحٍ عديدة .

٢٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب